دكتور
مصطفى الصاوى الجوينى
أستاذ الدراسات الإسلامية والبلاغة
كلية الآداب . جامعة الاسكندرية

تاريخ النقد الأدبى عند العرب

حتى نهاية القرن الثالث الهجرى

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

تاريخ النقد الأدبى عند العرب

حتى نهاية القرن الثالث الهجرى

دكتـــور

مصطفى الصاوى الجوينى

أستاذ الدراسات الإسلامية والبلاغة

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

٢٠٠٠

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

يحاول هذا الكتاب وضع مادة نقدية بين يدى الطالب متوخيًا التبسيط وأن لا يُخلّ هذا التبسيط من التعمق فى النظر، وأن يُربّى الذوق الأدبى لدى الدارس حين يتنقل بين روائع النصوص الأدبية، ويحفز الدارسين على الاستزادة الأدبية، وعلى هذا فقد بدأ الدرس المؤرخ للنقد الأدبى مما روى من روايات شفوية فى كتب الأدب والمحاضرات مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، والموشح للمرزبانى، ومعجم الشعراء له أيضًا، ثم الشعر والشعراء لابن قتيبة، ثم قبل هذا كله كتب الجاحظ والمبرد والأصمعى وثعلب وابن المعتز وكانت من بعد وقفة عند عصر القرآن، وفيها تنبيه إلى ما أثاره الإعجاز القرآنى من حركة أدبية فى ميدانى النقد والبلاغة.

وإذا كان التقسيم المكانى لشبه الجزيرة العربية إلى بيئتى البدو والحضر هو السائد فى العصر الجاهلى، فقد كان الأمر كذلك فى العصر الأموى.

ولعل من بواكير التأليف النقدى هو كتاب جمهرة أشعار العربى لأبى زيد القرشى وفيه نقد لأعلام الشعر الجاهلى ومصطلحات نقدية مبتكرة فى مجال المختارات الأدبية تلتها مرحلة ابن سلام الجمحى فى كتابه طبقات فحول الشعراء الإسلاميين والجاهليين والكتاب يؤرخ للنقد العربى ويضع مقاييس نقدية وبها ينقسم الشعراء إلى طبقات وهى فى رأيى تعمق فى النظر وتضج فى التطبيق لموروث ابن سلام الأدنى من الروايات النقدية.

ويخطو الجاحظ بالنقد خطو، ومنهجية أصيلة حين يصور أولاً مناخ النقد الأدبى فى عصره ثم يدير درسه النقدى على أربعة محاول : الإبداع - التلقى - فنون الأدب - صور التعبير، وأنت تتلمس مادة هذه المحاور الأدبية من كتب الجاحظ جامعًا أشتاتها، مؤلفًا بين أجزائها صورة متكاملة.

ويواجه النقد الأدبى العربى تيارًا منطقيًا فلسفيًا موروثًا عن اليونان فيتصدى ابن قتيبة بتحليل بناء القصيدة العربية، ويبرز ابن المعتز القيم الجمالية العربية فى موروث النص الأدبى الرائع، قرآنًا وحديثًا وشعرًا ومثلاً وقولاً.

ويضع ابن طيفور فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٢٨٠ هـ) موسوعة ضخمة فى المنظوم والمنثور -بقى منها كتاب (بلاغات النساء) وحققه د. هنداوى ويعالج هذا الكتاب الإبداع النسوى الأدبى نثرًا وشعرًا، والنثر أغلب.

وفى المجال عينه يسير المبرد صاحب كتاب الكامل وفى كتابه هذا تجد فصلين من أروع فصول كتابه هما (التشبيهات) و(أخبار الخوارج وأدبهم) ويتمتع المبرد المقرى بذوق عربى أصيل.

وبعد، فإن كتابنا هذا يضع بين يدى ناشئة الأدب الحادة الأدبية والحكم النقدى راجيًا متعة العقل والقلب هادفًا إلى تربية الذوق الأدبى الذى ينمو ويتأصل مع الأيام، وما توفيقى إلا بالله.

الإسكندرية فى ٥ / ٨ / ١٩٩٩

دكتور

مصطفى الصاوى الجوينى

توطئة :

[تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجرى].

هذا هو موضوع درسنا هذا العام، وسنقوم الآن بتحليل مصطلحات هذا العنوان ونرتبه على النحو التالي :

الأدب - النقد - تاريخه - عند العرب - نهاية القرن الثالث الهجرى.

صعب البحث فى بدايات الأشياء وأشد صعوبة حينما لا يكون هناك دليل يرشدنا إلى نبحث أو يؤكد ما نفترض وجوده علميًا ولا يعنى هذا أن نتوقف. بل علينا أن نحاول ونجتهد.

يقولون فى مجال الدراسات الأدبية : «إن أول أديب تبعه أو ناقد»، وسنحاول معًا تعديل هذه العبارة ليكون معناها أكثر دقة.

لكن ما الأدب ؟ وما النقد ؟ إن أبسط تعريف للأدب "أنه فن لغوى" يتشكل أشكالاً منها شكلان كبيران : هما الشعر والنثر ويضمان فنونًا عديدة نعرض لها فى حينه، وأما النقد فمعناه النظر فى الأدب التقاط جيده وتمييزه من رديئه.

وعلى هذا فلا يكون نقدٌ إلا إذا وجد أدب، ومن هنا قيل إن أول أديب تبعه أول ناقد، وإذن نحن فى الواقع أمام أمرين : عملية الإبداع الأدبى، وعملية النقد الأدبى. وحين نتعمق التفكير نجد أن الأديب حين يقوم بإبداعه يمارس فى نفس الوقت عملية النقد إضافة وحذفًا، ويغير ويبدل فى الألفاظ والصور والمعانى والأخيلة وتستمر العمليتان معًا عند الأديب طالما هو لم ينته من عملية إبداع القصيدة أو الرسالة، فإذا ما انتهى يعاود النقد الإجمالى لإبداعه، ثم يعرض الأديب عمله على الجمهور، ويتلقاه بالقبول أو الرفض وهنا يكون تلقى الجمهور للعمل الأدبى نقدًا، وقد يتلقى أديب عمل أديب آخر ويكون هنا ناقد آخر أكثر تخصصًا من الجمهور العام، وعلى هذا فالعبارة المأثورة نعدلها بالنسبة للأديب لتكون [أول أديب معه أول ناقد] لكن عبارة [أول أديب تبعه أول ناقد] صحيحة فنيًا وتاريخيًا لأن عمل الأديب يتسلمه الناقد سواء كان جمهورًا أو نقادًا للأدب وحين نتابع

حركة الأدب والنقد مع الزمان تطورًا أو تأخرًا، فهنا ينشأ علم تاريخ الأدب وعلم تاريخ النقد.

وعلينا أن نتعرف على الأنواع الأدبية التى عرفت حتى نهاية القرن الثالث الهجرى الشعر بأغراضه المختلفة : من غزل ووصف، ومدح ورثاء وهجاء أو الكتابة، كتابة الرسائل بخاصة ثم ثالثًا وأخيرًا الخطابة. تلك هى الأنواع التى كان عليها مدار النقد الأدبى.

أما المكان الذى نشأ فيه الأدب العربى وتطور، وكان مجالاً للدرس النقدى فهو شبه الجزيرة العربية، والشام، والعراق، وتلك بيئات تكلمت باللغة العربية وأبدعت أدبًا عربيًا، لا يبقى من تحليل مصطلحات العنوان إلا مصطلح الزمان [نهاية القرن الثالث الهجرى] وربما يوحى المعنى المباشر لكلمتى (القرن الثالث) أننا سندرس تاريخ النقد فى ثلاثمائة عام والواقع غير ذلك، لأن ما عرفناه من زمان الشعر الجاهلى -كما يقول الجاحظ- زمانه مائة وخمسون عامًا قبل الإسلام، فإذا ما أضفنا ثلاثمائة سنة فى الإسلام يكون حدود زمان الدراسة هو نحوًا من أربعمائة وخمسين عامًا.

وينبغى منذ البداية أن نلحظ أمرين فيما يتصل بمكان دراستنا النقدية إن معظم ما وصلنا من نقد فى بيئتى شبه الجزيرة العربية والشام فكان نقدًا مرويًا شفاهيًا. أما النقد فى بيئة العراق، فقد سجلته كتب النقاد. وهذا يتفق مع طبيعة، الحركات العلمية والأدبية عند العرب حيث بدأت بالرواية وانتهت بالتدوين.

القسم الأول :

تاريخ النقد الأدبى عند العرب فى الجاهلية

مقدمة :

يشير المرحوم الأستاذ طه إبراهيم فى كتابه " تاريخ النقد الأدبى عند العرب". من دلائل قوة الحس البيانى عند الجمهور الأدبى فى العصر الجاهلى ما نعلمه من أثر البيان فى الدعوة إلى الإسلام، إذ كان عماد الدعوة متمثلا فى القرآن. فببيانه استطاع أن يغزو قلوب المشركين - ولعله قد مر بكم قصة النفر الثلاث من زعماء قريش الذين كانوا يستمعون إلى القرآن سر، وافتتانهم بما يسمعون. ومما نعلمه أيضا عن هذا الجمهور الذى يشترك فى تقوية الحركة الأدبية والنقدية ما يذكر من أن هذا الجمهور الأدبى كان يفضل الشعر أولا على الخطابة فلما جعل الشعراء يلتمسون بشعرهم التكسب تحول العرب عن تفضيل الشعر إلى تفضيل الخطابة.

وإذن فلم تكن الحياة الأدبية الجاهلية بسيطة ساذجة كما هو شائع معروف، فقد رأينا أنه تكامل عناصر ثلاث تشير إلى نضجها وهى: الحدود الأدبية التقليدية / الدراسة الدائبة المتصلة / الجمهور الأدبى اليقظ. ومما وصل إلينا من أخبار قليلة نستطيع أن نؤلف صورة للنقد الأدبى فى العصر الجاهلى، كالذى يروى عن أقواء النابغة وبشر بن أبى حازم. فالاقواء عيب من عيوب الشعر، ولكنه عيب دقيق فهو خروج جزئى ....الخ. من ألوان النقد أيضا التى تلتقى بها فى العصر الجاهلى، هذا النقد الذى يقوم على الحكم على الشاعر حكما عاما يصور طابع شعره إجمالا، مثل ما يظهر فى تسمية عدى بن ربيعة مهلهلا، لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه. أو لأنه أول من رقق الشعر، وتجنب الكلام الغريب الحوشى ". ونجد مثالا لهذا اللون من النقد فى خبر تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبده بن الطيب، والمُخبل السعدى، إلى ربيعة بن جدار فى الشعر. فقال للزبرقان أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل، ولا هو نيئا فينتفع به. وأما أنت يا عمرو: فان شعرك كبرود حير، يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نفص البصر. وأما أنت يا مخبل، فان شعرك قصر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم. وأما

أنت يا عبدة، فان شعرك كمزادة أحكم خرزها، فليس تقطر ولا تُمطر. فمثل هذا اللون من النقد يعتمد على حاسة الناقد الفنية وتذوق الروح العامة لشعر الشاعر.

البيئات النقدية فى الجاهلية :

فى العصر الجاهلى نستطيع تبين بيئتين متميزتين للنقد الأدبى وهما بيئة البادية وبيئة الحضر، لكل منهما أسلوب تفكير، ومن قبل لاحظ علماء الأدب من العرب هذا التميز بين البيئتين من مثل ما نراه عند ابن سلام صاحب طبقات الشعراء إذ فرق بين شعراء البادية وشعراء القرى العربية: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين فجعل شعراء القرى طبقة على حده فى كتابه طبقات الشعراء. وإذن فماذا يميز بين هاتين البيئتين فيما يتصل بالنقد الأدبى؟ وما مدى تأثر النقد فى كل منهما بألوان الحياة فيهما؟

بيئة البادية :

ولعل أظهر مواطن البادية التى كان النقد الأدبى يجد فيها مجالا فسيحا لنشاطه هو تلك الأسواق التى كانت للعرب فى الجزيرة قبل الإسلام تتبادل فيها السلع إلى جانب أنها محافل أدبية عامة تزخر بألوان النشاط الأدبى فيجتمع فيها الشعراء كل سنة ويتفاخرون بقبائلهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر من أنه كان ينقد بعضهم بعضا من الناحية الفنية فيما يتبارون ناحية المباراة فى الفخر بمآثر قبائلهم.

ولعل أشهر هذه الأسواق التى غطت على شهرتها التجارية شهرتها الأدبية، عكاظ. حتى ليذهب بعض اللغويين إلى القول بأنها إنما سميت عكاظا لان العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضا بالفخار، أى يدعك... وتستطيعون تتبع أقوال أخرى فى هذا الشأن فى معجم البلدان لياقوت (جـ٦ ص٢٠٣ ط السعادة مصر ١٩٥٦). على كل حال فالذى يهمنا هنا هو أن هذا السوق كان منتدى أدبيا يجتمع فيه الشعراء يتناشدون مفاخر قبائلهم وتثير المفاخر الشعرية نشاطا نقديا يتولاه أما الجمهور الأدبى المستمع أو بعض الشخصيات البارزة مثل ما يروى من أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له قبة حمراء

من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فأتاه الأعشى ذات مرة فكان أول من أنشده ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى:

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحـــرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ". وعلى ما أثير حول هذا الخبر من آراء وشكوك فانه يمكن لنا أن نقيده صورة نقدية لهذا العصر تتناول نقدا لصيغ الاستعمال العربى فى الشعر. فالناقد يستحب الجفان على الجفنات، والسيوف على الأسياف، ويرى الشاعر قد خرج على متعارف الفخر حين فخر بالأبناء وأهمل الآباء والأجداد. هو نقد إذن يتجه إلى المعانى الشعرية من ناحية العبارة عنها والتنبيه على ما قد يكون فيها من خطأ وبخاصة فى الفخر. وهكذا كانت هذه الأسواق محافل أدبية تثير نشاطا نقديا، لكنه لم يكن يخلو من تيارات العصبية مما كان ينحرف بالنقد عن وجهته الفنية الخالصة.

بيئة الحضر :

وتمثلها قرى الحجاز التى ذكرها بن سلام فى طبقاته وأشار إلى أن أشعرهن قرى المدينة والعرب فى هذه المدن أو القرى بين زراع وتجار، فأسلوب حياتهم يختلف عن أسلوب الحياة البدوي. فنجد مثلا أن التجارة أتاحت لأهل هذه المدن ألوانا من الثقافات وسعت مداركهم وهذبت حسهم كما أتاحت لهم الحياةالمستقرة نوعا الرخية عن حياة البدو، أنواعا من الترف الفنى، رقق مشاعرهم. فكانت لهم القيان ومجالس الغناء يعنون بها. وكان لذلك مظهره فى بعض اتجاهات النقد الأدبى عندهم، وأثر هذا ظاهر فيما رأينا من النقد الذى أتيح لشعر النابغة حين دخل المدينة إذ كان يقوى وهو لا يدرى، حتى أنشد شعره فيها فتنبه إلى خطئه بل أن المرزبانى يذكر أن الاقواء كان كثيرا ما يقع فى شعر الأعراب، ويقرر أيضا أن أهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو، معنى هذا أنه لما كان

حرج تبهر الوقوع فى شعر الأعراب فقد اتجهت القرى العربية إلى التنبيه على تلك العيوب التى تتعلق بصورة الشعر وموسيقاه. فهذا لون حضرى من النقد الأدبى.

ولعل مجالس الغناء التى اشتهرت بها يثرب منذ الجاهلية مما أعان أهلها على إدراك مثل تلك الفروق الدقيقة بين الهيئات الصوتية إذا أكسبتهم أذنا موسيقية وجهتهم إلى ذلك من اللون من النقد الأدبى كما تشير إلى هذا قصة النابغة. أمر آخر يضاف هو من خصائص الحياة الحضرية ولعله كان له أثره أيضا فى مثل هذا الاتجاه وهو الكتابة. فقد تكون إحاطة أهل القرى بها واصطناعهم لها مما جعل أصوات اللغة تأخذ فى أذهانهم صورا متميزة، فكان ذلك مما دلهم دلالة صريحة على ما بين الأصوات المتقاربة من فروق، قد لا يفطن لها الأعرابى الذى يدرك الصوت بأذنه وحدها. أما هؤلاء فيعرفون للصوت صورتين: واحدة مسموعة، والأخرى مرئية: وذلك كالذى بين الميم والنون أو بين السين والصاد، فالصورة الصوتية للصاد مثلا قريبة من الصورة الصوتية للسين، أما فى الكتابة فالصورتان متميزتان تميزًا واضحًا.

جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى :

هذا الكتاب من بواكير كتب النقد الأدبى، والذى يقوم منهجه على الذوق والاختيار ويمهد لفكرة وضع الشعراء فى طبقات، كما أنه يؤرخ للنقد العربى مجملاً فى البداية أسباب تفضيل شاعر جاهلى ما على نظرائه، ثم يفصِّل بعد فى ذكر الروايات الأدبية وتلقى هنا لأول مرة فى تاريخ النقد الأدبى بمصطلحات مثل المنتقيات والمعلقات والملحمات والجمهرات والمذهبات، ويعطى بعض النماذج الأدبية تفضيلاً، ونلمح هذا الذوق الأدبى العربى الأصيل لأبى زيد القرشى والذى يشارك فى جماله وحسنه معاصرة المبرد صاحب الكامل.

امرؤ القيس :

قال : اختلف الناس فى الشعراء أيهم أشعر وأذكى، فقال قوم : امرؤ القيس، ورووا فى ذلك أنه : خرج وفد من جهينة يريدون النبى صلى الله عليه وسلم، فلما قدموا عليه سألهم عن مسيرهم فقالوا : يا رسول الله لولا بيتان قالهما امرؤ القيس هلكنا، قال : وما ذلك ؟ قالوا : خرجنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق إذا برحل على ناقة مقبل إلينا، فنظر إليه بعض القوم فأعجبه مسير الناقة، فتمثل ببيت لامرئ القيس، وهما قوله :

ولما رأت أن الشريعة وردها وأن البياض من فرائصها دامى

تيممت العين التى جنب ضارج يفيء عليها لظل عرمضها طامى[1]

وقد كان ماؤنا نفد فاستدللنا على العين بهذين البيتين فوردناها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما أنى لو أدركته لنفعته وكأنى أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه وحموشة ساقيه[2] فى يده لواء الشعراء يتدهدى[3] بهم فى النار (قال وذكر المفضل)[4] أن لبيد بن ربيعة مر بمجلس بنى نهد بالكوفة وبيده عصا له يتوكأ عليها بعدما كبر، فبعثوا خلفه غلامًا يسأله عن أشعر الناس، فقال : ذو القروح بن حجر الذى يقول :

وبدّلت قرحًا داميًا بعد صحة فيالك نعمى قد تبدّلت أبؤسًا

يعنى امرأ القيس. فرجع إليهم الغلام وأخبرهم، قالوا : ارجع فاسأله: ثم مَن، فرجع فسأله: ثم من ؟ قال : ثم ابن العنيزتين -يعنى طرفة، قال : ثم من ؟ قال : صاحب المحجن[5] يعنى نفسه (قال ابن المرزوى)[6] : حدثنى أبى قال : خرجت على بعير لى صعب

---

[1] العرمض بوزن جعفر : صغار السدر والأراك وكل شجرة لا يعظم أبدًا والطحلب الواحدة عرمضة.

[2] حمشت الساق تحمش حموشة : دقت.

[3] تدهدى الحجر بمعنى تدهده أى تدحرج، وفى نسخة يتهادى.

[4] قوله : وذكر المفضل أن..إلخ فى هامش بعض النسخ عن أبيه عن جده عن أبى عبيدة عن عتاب بن عمير بن عبد الملك قال إن لبيد...إلخ، وقوله ابن العنيزتين فى نسخة ابن العشرين.

[5] المحجن : العصا المنعطفة الرأس.

[6] قوله : قال ابن المرزوى حدثنى ..إلخ فى بعض النسخ، وحدثنا أبو العباس الوراق عن أبى طلحة موسى بن عبد الله الزرودى قال حدثنى إلخ.

فيمّر لى لا يملكنى من أمر نفسى شيئًا، حتى مر على جماعة ظباء فى سفح جبل على قلته رحل عليه أطمار له، فلما رأتنى الظباء هربت،، فقال : ما أردت إلى ما صنعت إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدعكم[1]. عن ذلك قال فدخلنى عليه من الغيظ ما لم أقدر أن أحمله، فقلت : إن تفعل بى ذلك لا أرضى لك. فضحك، ثم قال : امضِ عافاك الله لبالك. قال : فجعلت أردّد البعير فى مراعى الظباء لأغضبه، فنهض وهو يقول : إنك لجليد القلب. ثم أتانى فصاح بعيرى صيحة ضرب بجرانه[2] الأرض، ووثبت عنه إلى الأرض، وعلمت أنه جان، فقلت : أيها الشيخ إنك لأسوأ منى صنيعًا، فقال : بل أنت أظلم وألأم، بدأت بالظلم ثم لؤمت فى تركك المضى، فقالت : أجل عرفت خطئى، قال : فاذكر الله فقد رعناك وبذكر الله تطمئن القلوب، فذكرت الله تعالى ثم قلت دهشًا : أتروى من أشعار العرب شيئًا ؟ فقال : نعم أروى وأقول قولاً فائقًا مبرّزًا، فقلت : فأرنى من قولك ما أحببت، فأنشأ يقول :

طاف الخيال علينا ليلة الوادى ... من آل سلمى ولم يلمم بميعاد
أنى اهتديت إلى من طال ليلهم ... فى سبب ذات دكداك وأعقاد[3]
يكلفون فلاها كل يعملة[4] ... مثل المهاة إذا ما حثها الحادى
أبلغ أبا كرب عنى وأسرته ... قولاً سيذهب غورًا بعد أنجاد
لأعرفنك بعد اليوم تندبنى ... وفى حياتى ما زوّدتنى زادى
أما جامك يومًا أنت مدركه ... لا حاضر مفلت منه ولا باد

فلما فرغ من إنشاده قلت : لهذا الشعر أشهر فى معدّ بن عدنان من ولد الفرس الأبلق فى الدهم العراب[5].

---

[1] قوله قدعكم أى كفّكم ومنعكم.

[2] الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

[3] الدكداك : الأرض الغليظة، والأعقاد : ما تلبد من الرمل.

[4] اليعملة : الناقة النجيبة، اسم ولا تستعمل صفة، وفى نسخة كل هاجرة.

[5] خيل عراب : أى كرائم سالمة من الهجنة.

هذا العبيد بن الأبرص الأسدى فقال ومن عبيد لولا هبيد، فقلت: ومن هبيد؟ فأنشأ يقول :

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيد حبوت القوافى قرمى أسد
عبيدا حبوت بمأثورة وأنطقت بشرًا على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الكميت ملاذًا عزيزًا ومجدًا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد

فقلت : أمّا عن نفسك فقد أخبرتنى، فأخبرنى عن مدرك. فقال : هو مدرك بن واغم[1] صاحب الكميت، وهو ابن عمى، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن، ثم قال : لو أنك أصبت من لبن عندنا، فقلت : هات أريد الأنس به، فذهب فأتانى بعس فيه لبن ظبى فكرهته لزهومته[2] فقلت : إليك، ومججت ما كان فى فمى منه، فأخذه ثم قال : امض راشدًا مصاحبًا، فوليت منصرفًا، فصاح بى من خلفى : أما أنك لو كرعت فى بطنك العس لأصبحت أشعر قومك، (قال أبى) فندمت أن لا أكون كرعت عسه فى جوفى على ما كان من زهومته، وأنشأت أقول فى طريقى :

أسفت على عس الهبيد وشربه لقد حرمتنيه صروف المقادر
ولو أننى إذ ذاك كنتُ شربته لأصبحت فى قومى لهم خير شاعر

(وعنه قال) قال مظعون بن مظعون الأعرابى : لما حدثنى أبى بهذا الحديث عن نفسه لهجت به، وتعرضت لما كان أبى يتعرض له من ذلك، وأحببت إذ علمت أن لشعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها أن أعرف ذلك، ورجوت أن ألقى[3] هاذرًا أو مدركًا اللذين ذكر الهبيد لأبى، وكنت أخرج فى الفيافى ليلاً ونهارًا أتعرّض لذلك، ولم أكن ألقى راكبًا إلا ذاكرته شيئًا مما أنا فيه، فلايزال الرجل يخبرنى بما أستدل على ما سمعت، حتى جمعت من ذلك علمًا حسنًا، ثم كبر سنى، وضعفت ولزمت زرود، فكنت إذا ورد علىّ

---

[1] قوله بن واغم هو بالواو والغين المعجمة فى الأصول التى بيدنا. اهـ

[2] الزهومة ريح منتن.

[3] قوله أن ألقى هذار إلخ، يذكر هبيد هاذرًا فيما تقدم من الأبيات فلعله ذكره فى أبيات بعده، وحرر اهـ.

الرجل سألته عن ذلك. فوالله إنى لبلة من ذلك لبفناء خيمة لى، إذ ورد علىّ رجل من أهل الشام، فسلم ثم قال: هل من مبيت؟ فقلت: انزل بالرحب والسعة. قال: فنزل فعقل بعيره، ثم أتيته بعشاء، فتعشينا جميعًا، ثم صف قدميه يصلى حتى ذهبت هدأة من الليل وأنا وابناى أرويهما شعر النابغة، إذ انفتل من صلاته، ثم أقبل بوجهه إلىّ فقال: ذكرتنى بهذا الشعر أمرًا أحدثك به أصابنى فى طريقى هذا من ثلاث ليال، فأمرت ابنىّ فأنصتا، ثم قلت له: قل. فقال: بينما أنا أسير فى طريقى ببلقعة من الأرض لا أنيس بها إذ رفعت لى نار، فدفعت إليها فإذا بخيمة وإذا بفنائها شيخ كبير ومعه صبية صغار، فسلمت ثم أنخت راحلتى آنسًا به تلك الساعة فقلت: هل من مبيت ؟ قال: نعم فى الرحب والسعة. ثم ألقى إلىّ طنفسة رحل فقعدت عليها، ثم قال: ممن الرجل؟ فقلت حميرىّ شامى. قال: نعم أهل الشرف القديم. ثم تحدثنا طويلاً إلى أن قلت: أتروى من أشعار العرب شيئًا؟ قال: نعم، سَلْ عن أيها شئت. قلت: فأنشدنى للنابغة. قال: أتحب أن أنشدك من شعرى أنا؟ قلت: نعم؟ فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابغة وعبيد، ثم اندفع ينشد للأعشى. فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمان طويل. قال: للأعشى، قلت: نعم. قال: فأنا صاحبه. قلت: فما اسمك؟ قال: مسحل السكران بن جندل، فعرفت أنه من الجن، فبت ليلةً الله بها عليم. ثم قلت له: من أشعر العرب؟ قال: ارو قول لافظ ابن لاحظ وهياب وهبيد وهاذر بن ماهر، قلت: هذه أسماء لا أعرفها. قال : أجل أما لافظ فصاحب امرئ القيس وأمّا هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر وأما هاذر فصاحب زياد الذبيانى وهو الذى استنبغه ثم أسفر لى الصبح فمضيت وتركته (قال الزرودى) فحسن لى حديث الشامى حديث أبى.

(وذكر مطرّف الكنانى عن ابن دأب قال) حدثنى رجل من أهل زرود ثقة عن أبيه عن جدّه قال : خرجت فى طلب لقاح لى على فحل كأنه فدن[1] يمرّ بى بسبق الريح حتى دفعت إلى خيمة، وإذا بفنائها شيخ كبير، فسلّمت فلم يردّ علىّ، فقال: من أين وإلى أين؟ فاستحمقته إذ بخل بِردّ السلام وأسرع إلى السؤال، فقلت: من ههنا، وأشرت إلى خلفى، وإلى ههنا، وأشرت إلى أمامى، فقال: أما من ههنا فنعم، وأما إلى ههنا فوالله ما

---

[1] قوله كأنه فدن : أى كأنه القصر المشيد.

أراك تبهج بذلك إلا أن يسهل عليك مداراة من ترد عليه. قلت: وكيف ذلك أيها الشيخ. قال: لأن الشكل غير شكلك، والزىّ غير زيك. فضرب قلبى أنه من الجن، وقلت: أتروى من أشعار العرب شيئًا ؟ قال: نعم، وأقول. قلت : فأنشدنى كالمستهزئ به، فأنشدنى قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخل فحومل

فلما فرغ قلت: لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام. فقال: ماذا تقول؟ قلت: هذا لامرئ القيس. قال: لست أول من كفر نعمة أسداها. قلت: ألا تستحى أيها الشيخ ألمثل امرئ القيس يقال هذا؟! قال: أنا والله منحته ما أعجبك منه. قلت: فما اسمك؟ قال: لافظ بن لاحظ. قلت: اسمان منكران. قال: أجل. فاستحمقت نفسى له بعدما استحمقته لها، وأنست به لطول محاورتى إياه، وقد عرفت أنه من الجن، فقلت له: من أشعر العرب، فأنشأ يقول :

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله   ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذرًا يجود بقوله   ان ابن ماهر بعدها لجواد

قلت: من هاذر؟ قال: صاحب زياد الذبيانى، وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره، فالعجب منه كيف سلسل لأخى ذبيان به ولقد علم بنية لى قصيدة له من فيه إلى أذنها، ثم صرخ بها اخرجى فدى لك من ولدت حواء، فقلت له: ما أنصفت أيها الشيخ، فقال: ما قلت بأسًا، ثم رجعت إلى نفسى فعرفت ما أراد، فسكت، ثم أنشدتنى الجارية :

نأت بسعاد عنك نوى شطون   فبانت والفؤاد بها حزين[1]

حتى أتت على قوله منها *كذلك كان نوح لا يخون* قال: لو كان رأى قوم نوح فيه كرأى هاذر ما أصابهم الغرق، فحفظت البيتين، ثم نهض بى الفحل، فعدت إلى لقاحى. (وحدثنا) سنيد عن حزام بن أرطأة عن أبى عبيدة، قال: حدثنى أبو بكر المزنى عن شيخ من أهل البصرة، قال: خرجت على جمل لى حتى إذا أنا ببعض الطريق فى ليلة مقمرة، وإذا

---

[1] فى نسخة رهين، وقوله شطون : أى بعيدة.

شخص مقبل كهيئة الإنسان على ظهر ظليم[1] قد خطمه، فاستوحشت منه وحشة شديدة، فأقبل نحوى وهو يقول فى شدّة من صوته

هـــل يبلغنيهم إلى الصـــباح   هقل كأنّ رأســـه جمـــــاح[2]

فمازال يدنو حتى سكن روعى وأنست فقلت من أشعر الناس قال الذى يقول :

وما ذرفت عيناك إلا لتضـــربى   بسهميك فى أعشـــار قلب مقتـــل

فعرفت أنه يريد امرأ القيس، قال: ثم ذهبت وأقبل قلت: ثم من قال الذى يقول :

وتبـرد بـــرد رداء العـــــرو   س فى الصيف رقرقت فيه العبـيرا

وتسخـــــن ليلة لا يـستـطيـع   نـباحًـــا بها الكلب الاهـريــــرا

يريد الأعشى، ثم ذهب وأقبل، فقلت: ثم من قال الذى يقول :

تـطـــرد القرّ بحـرٍّ صـــادق   وعكيك الصـــيف إن جـــاء بقـــر

يريد طرفة العكيك الحر.

ويشيد هذه الأحاديث عندنا فى الجن وأخبارها وقولها الشعر على ألسن العرب ما حدثنا به المفضل عن أبيه عن جده عن ابن إسحق عن مجاهد عن ابن عباس قال: وفد سواد ابن قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال عمر: يا سواد، قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: ما بقى من كهانتك؟ فغضب وامتلأ سحره[3] ثم قال: يا أمير المؤمنين، ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيرى. فلما رأى عمر الكراهية فى وجهه، قال: يا سواد إن الذى كنا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة، فحدّثنى بحديث كنت أشتهى أن أسمعه منك. قال: نعم يا أمير المؤمنين. بينما أنا فى إبلى بالسراة[4] ، وكان لى نجىّ من الجن إذ أتانى فى ليلة وأنا كالنائم، فركضنى برجله ثم قال:

---

[1] الظليم: الذكر من النعام، وقوله خطمه: أى جعل الخطام فى خطمه؛ أى فى أنفه.

[2] الهقل: الفتىّ من النعام،والجماح كرمان سهم بلا نصل، مدوّر الرأس يتعلم به الرمى.

[3] يقال انتفخ سحره وامتلأ سحره إذا انتفخت أوداجه من شدة الغيظ.

[4] قوله بالسراة هى بفتح السين اسم لجملة مواضع كسراة بجيلة وغيرها، والمراد أرض قومه ومنازلهم، وقوله ركضنى برجله أى دفعنى.

قم يا سواد فقد ظهر بتهامة نبيّ يدعو إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، قلت: تنح عنى فإنى ناعس، فولّى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وتبكارها | وشدّها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى | ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة[1] من هاشم | بين روابيها وأحجارها

ثم لما كان فى الليلة الثانية، أتانى فقال مثل ذلك القول، فقلت: تنح عنى فإنى ناعس فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وتطرابها | ورحلها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى | ما مؤمنو الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم | ليس قداماها كأذنابها

ثم أتانى فى الليلة الثالثة، فقال مثل ذلك، فقلت: إنى ناعس، فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وإيجاسها | وشدّها العيس بأحلاسها[2]
تهوى إلى مكة تبغي الهدى | ما مؤمنو الجن كأرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم | واسم بعينيك إلى راسها

(قال) سواد: فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلت لناقة من إبلى فشددت عليها، وأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت وأنشأت أقول :

أتانى نجيّ بعد هدء ورقدة | ولم يك فيما قد عهدت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة | أتاك رسول من لؤىّ بن غالب
فشمرت عن ذيلي الإزار وأرقلت | بى الدعلب الوجناء غير السباسب[3]
فأشهد أن اللّه لا رب غيره | وأنك مأمون على كل غائب

---

[1] الصفوة من كل شيء مثلثة خالصه وخياره.

[2] الأحلاس جمع حلس، وهو كساء تجلل به الدابة تحت البرذعة.

[3] قوله أرقلت أى أسرعت، والدعلب والوجناء الناقة القوية الشديدة.

وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

فرني بما أحببت يا خير مرسل وإن كان فيما قلت شيب الذوائب

وكن لى شفيعًا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

(وأخبرني المفضل) عن أبيه عن جده قال: أخبرني العلاء بن ميمون الآمدى عن أبيه قال: ركبت بحر الخزر أريد ناجورا[1] حتى إذا ما كنت منها غير بعيد لجج مركبنا فاستاقته ريح الشمال شهرًا في اللجة، ثم انكسر بنا، فوقعت أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس، فجعلنا نطوف ونطمع في النجاة إذ أشرفنا على هوّة، وإذابشيخ مستند إلى شجرة عظيمة فلما رآنا تخشحش وأناف[2] إلينا ففزعنا منه، ثم دنونا منه وقلنا: السلام عليك أيها الشيخ، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فأنسنا به، فقال: ما خطبكما ؟ فأخبرناه، فضحك وقال: ما وطئ هذا الموضع أحد من ولد آدم قط، فمن أنتما ؟ قلنا: من العرب، قال: بأبي وأمي العرب، فمن أين؟ قلت: أما أنا فرجل من خزاعة، وأما صاحبي فمن قريش. قال: بأبي قريش وأحمدها، ثم قال: يا أخا خزاعة، هل تدرى من القائل :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر[3]

قلت: نعم، ذلك الحرث بن مضاض الجرهمي. قال: ذلك مؤديها، وأنا قائلها في الحرب التي كانت بينكم معشر خزاعة وبين جرهم يا أخا قريش أولد عبد المطلب بن هاشم، قلت: أين يذهب بك رحمك الله فَرَبا وعَظم[4]، وقال: أرى زمانًا قد تقارب ابانه أفولد ابنه عبد الله ؟ قلنا: وأين يذهب بك إنك لتسألنا مسألة من كان في الموتى. قال: فتزايد، ثم قال: فابنه محمد الهادى. قلت: هيهات مات رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ

---

[1] قوله ناجورا في بعض النسخ ناحورا بالحاء وحرر أ هـ

[2] قوله تخشحش وأناف أى تحرك وأشرف ومال أ هـ.

[3] قوله والجدود العواثر أى الحظوظ المتشائم السواقط.

[4] قوله فربا وعظم، أى ارتفع وتعالى.

أربعين سنة. قال: فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت، وانخفض حتى صار كالفرخ وأنشأ يقول :

ولرب راجٍ حيل دون رجائه ومؤمل ذهبت به الآمال

ثم جعل ينوح ويبكى حتى بَلّ دمعه لحيته فبكينا لبكائه، ثم قال: ويحكما فمن ولى الأمر بعده؟ قلنا: أبو بكر الصديق وهو رجل من خير أصحابه، قال: ثم من ؟ قلنا: عمر ابن الخطاب. قال: أفمن قومه؟ قلنا: نعم، قال: أما إن العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك (قلنا) أيها الشيخ قد سألتنا فأخبرناك فأخبرنا من أنت وما شأنك ؟ فقال: أنا السفاح ابن الرقراق الجنى لم أزل مؤمنًا بالله وبرسله ومصدقًا، وكنت أعرف التوراة والإنجيل، وكنت أرجو أن أرى محمدًا صلى الله عليه وسلم، فلمّا تفرقت[1] الجن، وأطلقت الطوالق[2] المقيدة من وقت سليمان عليه السلام، اختبأت نفسى فى هذه الجزيرة لعبادة الله تعالى وتوحيده وانتظار نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وآليت على نفسى أن لا أبرح ههنا حتى أسمع بخروجه، ولقد تقاصرت أعمار الآدميين وإنما صرت فيها منذ أربعمائة سنة وعبد مناف إذ ذاك غلام يفعة ما ظننت أنه ولد له ولد، وذلك أنا نجد علم الأحداث ولا يعلم الآجال إلا الله تعالى، والخير بيده، وأما أنتما أيها الرجلان فبينكما وبين الآدميين من الغامر مسيرة أكثر من سنة، ولكن خذا هذا العود فاكتفلا به كالدابة إذا نوّم الناس، فإنه يؤديكما إلى بلدكما، وأقرئا محمدًا منى السلام فإنى طامع بجوار قبره، قال: ففعلنا ما أمرنا به فأصبحنا فى مصلى (آمد).

(وقد روى) أن عبيد بن الأبرص خرج فى ركب فبينما هم يسيرون إذا بشجاع[3] قد احترق جنباه من الرمضاء، فقال له بعض أصحابه : دونك الشجاع يا عبيد فاقتله، قال عبيد: هو إلى غير القتل أحوج، فأخذ إداوة من ماء فصبها عليه، فانساب الشجاع ودخل فى جحرة، وسار القوم فقضوا حوائجهم، ثم أقبلوا حتى صاروا إلى ذلك الموضع الذى فيه

---

[1] قوله فلما تفرقت فى نسخة تعفرتت.

[2] قوله وأطلقت الطوالق المقيدة من وقت سليمان... إلخ، أى حلت وفكت من قيودها أ هـ.

[3] قوله بشجاع أى حية، وهو الذكر أو الخبيث منها.

الشجاع، قال: فتأخر عبيد لقضاء حوائجه فانفلت بكره[1] وقيل بل حسر عليه، فسار القوم وبقى عبيد متحيرًا، فإذا بهاتف من عدوة الوادى وهو يقول :

يا صاحب البكر المضل مركبه   دونك هذا البكر منا فاركبه
ما دونه[2] من ذى الرشاد تصحبه   وبكرك الآخر أيضًا تجنبه
حتى إذا الليل تجلى غيهبه   فحط عنك رحله وسيّبه
إذا بدا الصبح ولاح كوكبه   وقد حمدت عند ذاك مصحبه

قال: فالتفت عبيد فإذا هو ببكره وبكر إلى جنبه، فركبه حتى إذا صار إلى دار قومه، أرسل البكر وأنشأ يقول :

يا صاحب البكر قد أنقذت من بلد   يحار فى حافتيها المدلج الهادى
هلا أبنت لنا بالحق نعرفه   من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
ارجع حميدا فقد أبلغت مأمننا   بوركت من ذى سنام رائح غادى

فأجابه هاتف يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضا   فى رملة ذات دكداك وأعقاد
فجدت بالماء لما ضنّ حامله   جودا علىّ ولم تبخل بانجادى
هذا جزاؤك منى لا أمنّ به   فارجع حميدًا رعاك اللّه من غادى
الخير أبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

(وذكر جماعة من أهل العلم) أن الحرث بن ذى شداد[3] الحميرى كان ملكًا فى الجاهلية الجهلاء،وهو أول من دخل أرض الأعاجم ودوّخها، ثم إنه وضع يده يقتل رؤساء قومه ثم إنه خاف رجل منهم، فطلبه فأعجزه وهرب الرجل ترفعه أرض وتخفضه أخرى إذ جنه الليل، فاستضاف إلى كهف فى جبل، فأخذته عينه فإذا هو بآتٍ قد أتاه، فقعد عند رأسه، وأنشأ يقول :

---

[1] قوله فانفلت بكره : البكرة من الإبل بمنزلة الفتى من الناس.

[2] نسخة ما حوله.

[3] فى نسخة ابن ذى سلد.

الدهـر يـأتيك بالعجـائب ... إن الدهـر فيـه لديـك معتـبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعـا ... فرقـه مـن صروفـه القـدر
لا تنفـع المـرء فيـه حيلتـه ... مما سيلقى يومًـا ولا الحـذر
إنـى زعيـم بقصـة عجـب ... عندى لمن يستزيدها الخـبر
تأتى بتصديقها الليـالى والأيـ ... ـام إن القضـاء[٢] ينتظـر
يكـون فـى الأنـس مـرة رجـل ... ليس لـه فـى ملوكهـم خطـر[٣]
مولـده فـى قـرى ظواهـر هـمـ ... ـدان بتلـك التـى اسمهـا خبر
يقهر أصحابه على حدث السـ ... ـن ويخفـى فيهـم ويحتقـر
حتـى إذا أمكنتـه صولتـه ... وليـس يـدرى بشأنه بشـر
أصبح فى هتـوم[٤] علـى وجـل ... وأهلـه غـافلون مـا شـعروا
رأوا غلامًـا بـالأمس عندهـم ... أزرى لديهم جهـلا بـه الصغر
لم يفتقـدوه لا درّ درّهـم ... لو علموا العلم فيه لافتخـروا[٥]
حـتى إذا أدركتـه روعتـه ... بـين ثـلاث وقلبه حـذر
جاءت إليـه الكبرى بأسقية ... شتى وفـى بعضهـا دم كـدر
قـال لهـا ذاك إذن أشـربه ... قـالت لـه ذره قـال لا أذر
فناولتـه فمـا تـورّع عـن ... أقصـاه حتـى أهـاره السـكر
قـالت لـه هـذه مراكبنـا ... فـاركب وشـر المراكب الحمـر
فنهنهتـه الوسطى فثـار لهـا ... كأنـه الليـث هاجـه الذعـر[٦]

---

(٤) فى نسخة هنوم.

(٢) فى نسخة أن المقدور.

(٣) قوله خطر أى ارتفاع شأن وعلوّ مقدار.

(٥) قوله لم يفتقدوه أى لم يغب عنهم، يعنى أنه حاضر فيهم موجود

(٦) نهنهته أى كفته.

فقال حقًا صدقت ثم سما … فوق ضمير قد زانه الضمر[٢]
فصدَّ لما علاه من أنن … ومن جراح بها أثر[٣]
ثم أتته الصفرى تمرّضه … فوق الحشايا ودمعها درر
فحال منها لمضجع ضجرا … ولا تساوى الوطاء والوعر
كأن إذ ذاك بعد صرعته … من شدّة الجهد تحته الابر
فقلن لما رأين صرعته[٤] … اسعد فأنت الذى لك الظفر
فى كل ما وجهة توجهها … وأنت يشقى بحربك البشر[٥]
وأنت للسيف واللسان ولـلا … بد أن تبدو كأنها الشرر
وأنت أنت المهريق كل دم … إذا ترامى بشخصك السفر
فارشد ولا تسكننَّ فى خمر … ورد ظفارًا فإنها الظفر
فلست تلتذ عيشه أبدا … وللأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب … يا تبع الخير هاجنا الذعر
فيما بلوناه فيك من تلف … عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم … بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسارعنهم من بعد تاسعة … نحو ظفار وشأنه الفكر
فحل فيها والدهر يرفعه … في عظم الشأن وهو يشتهر

---

(٤) قوله صرعته فى نسخة جرأته أ هـ

(٢) قوله فوق ضمير فى نسخة ضبيع وهو تصغير ضبع الحيوان المعروف أو حارك أحد المراكب التى كانت معهنّ إهـ

(٣) قوله فصدّ لما علاه إلى آخر البيت هكذا فى بعض النسخ وفى بعضها ما نصه:

فصدّ لما علاه عن لرن … ومن جراح وهاجه الحصر
فشق منه حشا وغادره … فيه جراح منها به أثر

(٥) قوله يشقى بحربك أى يقع فى الشقاء وهو التعب والعناء إهـ

حتى أتته من المدينة تشـ ـكو الظلم شمطاء قومها غدر
أدلت إليه منهم ظلامتها ترجو به ثأرها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت تلك وكلٌ بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به مثل الدبا فى البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره كأنه الليل حين يعتكر
تأتمّ أعداءه كتائبه فليس يبقى منهم ولا يذر
حتى قضى منهم لبانته وفاز بالنصر ثمّ من نصروا
إنا وجدنا هذا يكون معا فى علمنا والمليك مقتدر
والحمد للّه والبقاء له كلٌ إلى ذى الجلال مفتقر

(خبر آخر) وفى مصداق ما ذكرناه من أشعار الجن وقولهم الشعر على ألسن العرب قول الأعشى :

وما كنت شاحوذا[1] ولكن حسبتنى إذا مسحل يسدى لى القول أعلق
شريكان فيما بيننا من هوادة صفيان انسيّ وجنٌ موفق
يقول فلا أعيا بقول يقوله كفانى لا عيّ ولا هو أخرق[2]

(خبر آخر) ذكر أن رجلاً أتى الفرزدق[3] فقال: إنى قلت شعرًا فانظره، قال: فأنشد فقال:

ومنهم عمر المحمود نائله[4] كأنما رأسه طين الخواتيم

قال: فضحك الفرزدق ثم قال: يا ابن أخى إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه، ومن انفرد به الهوجل فسد

---

[1] قوله شاحوذا هو هكذا فى النسخ، ولعله شحذوذا وهو الحديد الذرق، إهـ مصححة.

[2] الأخرق المدهوش من خوف أو حياء.

[3] قوله ذكر أن رجلاً أتى الفرزدق إلخ فى نسخته أخبرنا ستيد عن أبى مسمع النحوى عن مؤرخ قال أتى رجل من بنى تميم الفرزدق إلخ.

[4] قوله نائله فى نسخة شيمته.

شعره، وإنما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الموبر في أوله فأحدت، وخالطك المرجل في آخره فأفسدت، وإنّ الشعر كان جملاً بازلاً عظيمًا فنحر فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه، وعمرو بن كلثوم سنامه، وزهير كاهله، والأعشى والنابغة فخذيه، وطرفة ولبيد كركرته، ولم يبق إلا الذراع والبطن فتوزعناهما بيننا، فقال الجزار: يا هؤلاء لم يبق إلا الفرث والدم فأمروا لي به، فقلنا: هو لك، فأخذه ثم طبخه ثم أكله ثم خريه، فشعرك هذا من خرء ذلك الجزار، فقال: الفتى فلا أقول بعده شعرًا أبدًا.

(فصل آخر) قيل لأبي عبيدة: هل قال الشعر أحد قبل امرئ القيس؟ قال: نعم، قدم علينا رجال من بادية بني جعفر بن كلاب، فكنا نأتيهم فنكتب عنهم، فقالوا ممن ابن خدام[1] قلنا: ما سمعنا به. قالوا: بلى قد سمعنا به، ورجونا أن يكون عندكم منه علم، لأنكم أهل أمصار، ولقد بكى في الدمن قبل امرئ القيس، وقد ذكره امرؤ القيس في شعره حيث يقول :

عوجا خليليّ الغداة لعلنا　　　نبكي الديار كما بكى ابن خدام

* * *

باب صفة الذين قدموا زهيرًا على امرئ القيس[2]

قالوا هو أشعر العرب، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرئ القيس إنه يقدم بلواء الشعراء إلى النار لقدمه في الشعر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول لقوله عز وجل وما علمناه الشعر وما ينبغي له، ولكن كان يعجبه ولو كانت التقدمة بالتقدّم في الشعر لقدم عليه ابن خدام الذي ذكره في شعره وليس هنالك، وقول الفرزدق إن الشعر كان جملاً فنحر، فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه، فهذا مثل ضربه والسنام والكاهل أكثر نفعًا من الرأس إذا كان منحورًا، ولو أنه ضرب المثل وكان حيًا فأخذ رأسه لكان الرأس أفضل، إذ لا بقاء للبدن إلا مع الرأس وإنما أخذه ميتًا.

---

[1] قوله ابن خدام قال في القاموس: وابن خدام ككتاب شاعر أو هو بالذال أ هـ يعني مع الخاء المعجمة كتبه مصححه.

[2] قوله باب صفة الذين قدّموا زهيرًا إلخ كذا في نسخة أخرى (خبر زهير بن أبي سلمى) قال الذين قدّموا زهيرًا إلخ.

(فصل آخر) ذكر أبو عبيدة وأخبرنا أبو عبد الرحمن الغساني عن شريك ابن الأسود. قال: كنا ليلة في سمر بلال بن أبي بردة الأشعري، وهو يومئذ على البصرة، فقال: أخبروني بالسابق والمصلي من الشعراء من هما ؟ قلنا: أخبرنا أنت أيها الأمير، وكان أعلم العرب بالشعر، فقال: السابق الذي سبق بالمدح فقال :

وما يك من خير أتوه فإنما　　توارثه آباء آبائهم قبل

وأما المصلي، فهو الذي يقول :

ولست بمستبق أخًا لا تلمه　　على شعث أي الرجال المهذب[1]

(فصل آخر) ذكر أبو عبيدة عن الشعبي[2] يرفعه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سفر، فبينا نحن نسير قال: ألا تزاملون أنت يا فلان زميل فلان، وأنت يا فلان زميل فلان، وأنت يا ابن عباس زميلي، وكان لي محبًا مقربًا، وكان كثير من الناس ينفسون عليّ لمكاني منه، قال: فسايرته ساعة ثم ثنى رجله على رحله ورفع عقيرته[3] ينشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها　　أبرّ وأوفى ذمة من محمد

ثم وضع السوط على رحله ثم قال: أستغفر الله العظيم ثم عاد فأنشد حتى فرغ، ثم قال: يا ابن عباس ألا تنشدني لشاعر الشعراء ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، ومن شاعر الشعراء ؟ قال: زهير. قلت: لم صيرته شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل بين الكلامين ولا يتتبع وحشي الكلام ولا يمدح أحدًا بغير ما فيه[4] المعاظلة أن يردد الكلام في القافية بمعنى واحد، قال أبو عبيدة: صدق أمير المؤمنين. ولشعره ديباجة، إن شئت قلت شهد إن مسسته ذاب،

---

[1] قوله على شعث: الشعث ما تفرق من الأمر يقال : لَمّ الله شعثك أي جمع ما تفرق من أمرك، والمهذب مطهر الأخلاق إهـ مصححة.

[2] قوله: ذكر أبو عبيدة عن الشعبي إلخ هكذا في بعض النسخ، وفي نسخة: وحدثنا سنيد عن أبي عبد الله الجهمي من ولد جهم بن حذيفة عن أبي عبيدة عن أبي المخشى ومجالد عن الشعبي، إلخ.

[3] قوله رفع عقيرته، أي صوته أ هـ.

[4] قوله المعظلة أن يردّد الكلام... إلخ فسرها ابن الأثير في النهاية فقال أي لا يعقده ولا يوالي بعضه فوق بعض وكل شيء ركب شيئًا فقد عاظله إهـ كتبه مصححه.

وإن شئت قلت صخر لو رديّت به الجبال لأزالها (وحدثني محمد بن عثمان) عن أبي مسمع عن ابن دأب قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالسًا في أصحابه يتذاكرون الشعر والشعراء فيقول بعضهم: فلان أشعر، ويقول آخر: بل فلان أشعر، فقيل: ابن عباس بالباب، فقال عمر رضي الله عنه: قد أتى من يحدّث عن أشعر الناس، فلما سلّم وجلس قال له عمر: يا ابن عباس، من أشعر الناس؟ قال: زهير يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: و لم ذلك؟ قال ابن عباس: لقوله يمدح هرما وقومه بني مره :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
جنّ إذا فزعوا إنسٌ إذا أمنوا ... مرزؤن بهاليل إذا جهدوا[1]
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع اللّه عنهم ما به حسدوا

قال عمر: صدقت يا ابن عباس.

(فصل من أخبار زهير)[2] ذكر أبو عبيدة عن قتيبة بن شبيب بن العوّام ابن زهير عن آبائه الذين أدركوا بجيرًا وكعبًا ابني زهير، قال: كان أبي من مُتَرهِّبة العرب، وكان يقول: لولا أن تنفدون لسجدت للذي يحيي هذه بعد موتها. قال: ثم إن زهيرًا رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع إلى السماء حتى كاد يمس السماء بيده، ثم انقطعت به الحبال، فدعا بنيه فقال: يا بنيّ، رأيت كذا وكذا، وإنه سيكون بعدي أمر يعلو من اتبعه ويفلح فخذوا بحظكم منه، ثم لم يعش إلا يسيرًا حتى هلك، فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (وذكر عن الأصمعي) قال: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا طرب، والنابغة إذا رهب[3] والأعشى إذا غضب، وعنترة إذا كلب[4] .

---

[1] قوله مرزؤن: أى كرام، والبهاليل : جمع البهلول وهو السيد الجامع لكل خير، وقوله : إذا جهدوا أى أصابهم الجهد. إهـ.

[2] قوله فصل من أخبار زهير إلخ، في بعض النسخ قبل هذا زيادة، وهي : وعنه وعن الجهمي عن أبي عبد الرحمن الأنصاري ثم العجلاني فصل ...إلخ إهـ.

[3] قوله إذا رهب نسخة رغب إهـ مصححه.

[4] قوله إذا كلب أى غضب وسفه وصاح، إهـ مصححه.

باب خير الذين قدّموا النابغة الذبيانى

قالوا هو أوضحهم معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة (وأخبرنا ابن عثمان) عن مطرف الكنانى عن ابن دأب فى حديث رفعه إلى عبد الملك بن مسلم أن عبد الملك ابن مروان كتب إلى الحجاج أنه لم يبق من لذة الدنيا شىء إلا وقد أصبت منه، و لم يبقَ إلا مناقلة الحديث، وقِبَلك[1] عامر الشعبى، فابعث به إلىّ يحدثنى. فبعث الحجاج بالشعبى وأطراه فى كتابه، فخرج الشعبى حتى صار بباب عبد الملك، فقال للحاجب استأذن لى. فقال الحاجب: ومن أنت رحمك الله ؟ قال: أنا عامر الشعبى. فنهض الحاجب وأجلسه على كرسيه، فلم يلبث الحاجب أن أدخله. قال الشعبى: فدخلت فإذا بعبد الملك على كرسى، وإذا بين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسىّ آخر، فسلمت فردّا السلام، ثم أومأ بقضيبه فقعدت على يساره، ثم أقبل على رجل عنده فقال: ويحك من أشعر الناس، قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال الشعبى: فأظلم ما بينى وبين عبد الملك من البيت و لم أصبر أن قلت: من هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس؟ فعجب عبد الملك من عجلتى قبل أن يسألنى، وقال: هذا الأخطل؟ قلت: بل أشعر منك يا أخطل الذى يقول :

هــذا غـلام حسـن وجهه	مستقبل الخير سريع التمام
للحـرث الأكـبر والحـرث الأ	عـرج والأصغر خير الأنـام
ثـم لـهـنـد ولـهـنـد وقـد	أسرع فى الخيرات منهم إمـام
سـتة آباؤهـم مـا هـم	أكرم من يشرب صوب الغمـام

قال: فردّدتها حتى حفظها عبد الملك. فقال الأخطل: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الشعبى. قال الأخطل: والإنجيل هذا ما استعذت با لله من شره، صدق وا لله، النابغة أشعر منى. فالتفت إلى عبد الملك، فقال: ما تقول فى النابغة يا شعبى؟ قال: قدّمه عمر ابن الخطاب فى غير موضع على جميع الشعراء.

---

[1] قوله وقبلك بكسر القاف وفتح الباء الموحدة أى قبالتك وجهتك. وقوله أطراه أى أحسن الثناء عليه وبالغ فى مدحه. إهـ.

(فصل آخر) قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه وببابه وفد غطفان، فقال: أيّ شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك[1] ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني سعاية ... لمبلغك الواشي أغشى وأكذب
ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل

خطاطيف[2] حجن في حبال متينة ... تمدّ بهم أيد إليك نوازع
فإنك كالليل الذى هو مدركي ... وإنْ خلت أنّ المنتأى عنك واسع

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن قائل :

إلى ابن محرّق أعملت نفسي ... وراحلتي وقد هدأت عيون
فألفيت الأمانة لم يخنها ... كذلك كان نوح لا يخون
أتيتك عاريًا خلقًا ثيابي ... على خوف تظن بي الظنون

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاحددها عن الفند[3]

قالوا: النابغة يا أميرالمؤمنين. قال: هو أشعر شعرائكم (قال الشعبى) ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال: أتحب أن يكون لك شعر أحد من العرب عوضًا عن شعرك؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، إلا أن رجلاً قال شعرًا فيه أبيات وكان ما علمت والله مغدف القناع[4] قليل السماع قصير الذراع وددت أني قلتها، وهو القطامى

---

[1] قوله: فلم أترك لنفسك.... إلخ، في بعض النسخ: فلم أترك لنفسي.. إلخ. إهـ.

[2] قوله خطاطيف حجن.. إلخ : جمع خطاف البئر، وحجن بضم الحاء المهملة وسكون الجيم؛ أى معوجة جمع أحجن وحجناء. ونوازع : جواذب، والمنتأى بضم الميم كالمصطفى : المكان البعيد. إهـ مصححه.

[3] قوله فاحددها أى ازجرها عن الفند محركًا، أى الخطأ والظلم. إهـ مصححه.

[4] قوله مغدف القناع، أى مرسله، يقال أغدفت قناعها إذا أرسلته. إهـ مصححه.

لیس الجدید به تبقی بشاشته إلا قلیلاً ولا ذو خلة یصل

والعیش لا عیش إلا ما تقرّ به عین ولا حالة إلا ستنتقل

والناس من یلقَ خیرًا قائلون له ما یشتهی ولأم المخطئ الهبل[1]

قد یدرك المتأني بعض حاجته وقد یكون مع المستعجل الزلل

(فصل آخر) وذكر محمد بن عثمان عن أبی علقة عن مفالج بن سلیمان عن عبد العزیز بن عبد الرحمن بن زید عن عمر بن الخطاب عن حسان بن ثابت رضی الله تعالی عنه أنه حدثه أنه وفد علی النعمان بن المنذر قال: فلما دخلت بلاده لقینی رجل فسألنی عن وجهی[2] وما أقدمنی، فأخبرته، فأنزلنی، فإذا هو صائغ، فقال: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الحجاز. قال" كن خزرجیًا. قلت: أنا خزرجی. قال: كن نجاریًا. قال: أنا نجاری. قال: كن حسانًا. قلت: أنا حسان. قال: كنت أحب لقاءك وأنا واصف لك أمر هذا الرجل وما ینبغی لك أن تعمل به فی أمره إنك إذا لقیت حاجبه وانتسبت وأعلمته مقدمك أقام شهرًا لا یرد علیه شیئًا ثم یلقاك فیقول: من أنت وما أقدمك؟ ثم یمكث شهرًا لا یردّ علیك شیئًا، ثم یستأذن لك، فإذا دخلت علی النعمان فستجد عنده أناسًا فیستنشدونك فلا تنشدهم حتی یأمرك، فإذا أمرك فأنشده، فیستزیدك مَن عنده فلا تزده حتی یستزیدك هو، فإذا فعلت هذا فانتظر ثوابه وما عنده، فإن هذا ینبغی لك أن تعرفه من أمره. قال حسان: فقدمت إلی الحاجب فإذا الأمر علی ما وصف لی، ثم دخلت علی النعمان ففعلت ما أمرنی به الصائغ، فأنشدته شعری ثم خرجت من عنده فأقمت أختلف إلیه، فأجازنی وأكرمنی وجعلت أخبر صاحبی بما صنع فیقول إنه لایزال هكذا حتی یأتیه أبو أمامة -یعنی النابغة- فإذا قدم فلا حَظّ فیه لأحد من الشعراء. قال: فأقمت كذلك إلی أن دخلت علیه لیلة، فدعا بالعشاء فأتی بطبیخ فأكل منه بعض جلسائه، فامتلأ فضحك بطال كان یكون بباب النعمان، فغضب وقال: أبجلیسی تضحك احرقوا صلیفیه[3] بالشمعة، فأحرق صلیفاه،

---

[1] الهبل: محركا الثكل والفقد مصدرها هبل كفرح إهـ مصححه.

[2] قوله فسألنی عن وجهی: أی عن قصدی ونیتی. إهـ مصححه.

[3] قوله صلیفیه تثنیة صلیف كأمیر، عرض العنق، كما فی القاموس إهـ.

قال حسان: فوا الله إني لجالس عنده إذ بصوت خلف قبته وكان يومًا ترد فيه النعم السود، ولم يكن للعرب نعم سود إلا للنعمان، فأقبل النابغة فاستأذن فقدم وهو يقول:

أنــام أم يســمع رب القبــــه   يا أوهب الناس لعـيس صلبـــه

ضرّابة[1] بالـمشـــفر الأذبـه   ذات تجاف في يديها حدبــــه

قال أبو أمامة أدخلوه فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ولســت بمستبق أخًا لا تلمـه   على شعث أيّ الرجال المـهذب

فأمر له بمائة ناقة فيها رعاؤها ومطافيلها[2] وكلابها من السود. قال حسان: فخرجت من عنده لا أدرى أكنت له أحسد على شعره أم على ما نال من جزيل عطائه، فرجعت إلى صاحبي فقال: انصرف فلا شيء لك عنده سوى ما أخذت.

(وعنه) فى حديث رفعه إلى الوليد بن روح الجمحي: مكث النابغة دهرًا لا يقول الشعر، ثم أمر بثيابه فغسلت وعصب حاجبيه على جبهته. فلما نظر إلى الناس أنشأ يقول:

الـمـــــرء يأمل أن يعيـــــ   ـش وطــول العيش قد يضره

تفنى بشاشـــــته ويبــــ   ـقى بعــد حلو العيش مــرُّه

وتصــــــرّم الأيام حــتـ   ـى لا يــرى شــيئًا يســرّه

كم شـــــامتٍ بى إذ هــلكـ   ـت وقـــائـــلٍ للّـــــه درّه

(فصل آخر عنه) قال: لما قال النابغة :

من آل مية رائح أو مغتــــدى   عجـلان ذا زاد وغــير مــزوّد

وقوله فى البيت الثانى :

زعم البوارح[3] أن رحلتنا غدا   وبــذاك خبرنا الغراب الأسـود

---

[1] قوله ضرّابة أى كثيرة الضرب بمشفرها، والمشفر من البعير كالشفة من الإنسان والجحفلة من الفرس، جمعها مشافر والأذبة جمع الذباب إهـ.

[2] قوله مطافيلها جمع مطفل، وناقة مطفل أى معها طفلها إهـ.

[3] قوله البوارح جمع البارح، وهو من الصيد ما جاء من عن يمينك فولاك مياسره، وكانت العرب تتطير بالبارح وتتفاءل بالسانح، وهو الذى يأتى من عن يسارك فيوليك ميامنه، ومنه المثل "من لى بالسانح بعد البارح" أ هـ

هابوه أن يقولوا له لحنت أو أكفأت[1] فعمدوا إلى قينته، فقالوا: غنيه، فلما غنته بالخفض والرفع فطن وقال *وبذاك تنعاب الغراب الأسود* وكان بدء غضب النعمان عليه أن النعمان قال: يا زياد صف لى المتجرّدة ولا تغادر منها شيئًا، وكانت زوجة النعمان، وكانت أحسن نساء زمانها، وكان النعمان قصيرًا دميمًا أبرش، وكان ممن يجالسه ويسير معه رجل آخر يقال له المنخل وكان جميلاً، وكان النابغة عفيفًا، فقال له النعمان صف لى المتجرّدة، فوصفها فى الشعر الذى يقول فيه :

لو أنهـا عرضت لاشمط راهـب يدعو الإله صـرورة المتعبـد[2]

لصـبا لبهجتها وطيب حديثها ولخالـه رشدًا وإن لم يرشـد

تسـع البلاد إذا أتيتك زائرًا فإذا هجرتك ضاق عنى مقعدى

ثم وصف جميع محاسنها، فلما بلغ إلى المعنى، قال :

وإذا لـمست لـمست أجثم جاثمًا متحـيزًا بمكانه مـلء اليد

وإذا طعنت طعنت فى مستهدف ناتى المجسة بالعبير مقرمـد

وإذا نزع نزعت مـن مستحصف نزع الحزوّر بالرشاء المحصد

وتكاد تنزع جلـده عـن ملـة فيها لوافح كالحريق الموقـد[3]

قال: فلما سمع ذلك المنخل، وكان يغار عليها، قال: أيد الله الملك ما يقول هذا إلا من جرّب ورأى. فوقع ذلك فى نفس النعمان، وكان له بوّاب يقال له عصام، وكان صديقًا للنابغة، فأخبره الخبر، فهرب إلى ملوك غسان وهم آل جفنة الذين يقول فيهم حسان ابن ثابت:

---

(1) قوله أكفأت من الإكفاء، وهو على رأى بعضهم الاقواء، وهو اختلاف قوافى الشعر برفع بيت وجر آخر، وكان الاقواء منتشرًا كثيرًا عند العرب، وقلت قصيدة لهم بلا اقواء، وأما الاقواء بالنصيب فقليل اهـ.

(2) الصرورة : قال أبو عبيد هو التبل وترك النكاح لأنه فعل الرهبان، ومنه الحديث «لا صرورة فى الإسلام» اهـ

(3) قوله مستهدف: أى عريض لحيم، والعبير أخلاط من الطيب تجمع بالزعفران، ومقرمد: أى مطلى، وناتى المجسة: أى رابيها كما فى رواية من النتوء وهو الارتفاع، والمستحصف: الفرج ضاق ويبس عند الجماع، والحزوّر: القوى والضعيف ضد، والرشاء: حبل الدلو، والمحصد: المحكم الفتل، وقوله وتكاد... إلخ كذا بالأصل والذى فى الديوان ويكاد ينزع جلد من يصلى به * بلوافح مثل السعير الموقد اهـ مصححه.

للّه درّ عصابة نادمتهم يومًا بجلق في الزمان الأوّل
أبناء جفنة حول قبر أبيهم عمرو بن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فأقام النابغة عندهم حتى صح للنعمان براءته، فأرسل إليه ورضي عنه. ولعصام يقول النابغة:

نفس عصام سوّدت عصاما * وعلّمته الكرّ والإقداما * وجعلته ملكًا هماما

وله فيه أيضًا :

ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمول على النعش الهمام
فإني لا ألوم على دخول ولكن ما وراءك يا عصام
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام[1]
ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام
تمخضت المنون له بيوم أنى ولكل حاملة تمام
وليس بخابئ لغد طعامًا حذار غد لكل غد طعام

وكان النابغة قد أسنّ جدًا فترك قول الشعر، فمات وهو لا يقوله.

(باب خبر أعشى بكر بن وائل) قال الذين قدّموا الأعشى هو أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأغزرهم شعرًا وأحسنهم قريضًا (وذكر الجهمي) عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: عليكم بشعر الأعشى فإنه أشبه شيء بالبازي الذي يصطاد به ما بين الكركيّ والعندلين وهو عصفور صغير، ولعمري إنه أشعر القوم ولكنه وضعته الحاجة بالسؤال (وذكر ابن دأب) أن الأعشى خرج يريد النبي صلى الله عليه وسلم فقال شعرًا، حتى إذا كان ببعض الطريق نفرت به راحلته فقتلته، ولما أنشد شعره الذي يقول فيه :

---

[1] في نسخة والبلد الحرام، وقوله ونأخذ بعده في نسخة، ونمسك بعده. اهـ

فـآليت لا أرثي لها مــن كلالـها   ولا من حفا حتى تلاقي محمــــدا

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تنوزى وتلقى من فواضله يـــــدا

قال النبى صلى الله عليه وسلم: كاد أن ينجو ولما[1].

(وأخبرنا المفضل) عن عليّ بن طاهر النعليّ عن أبي عبيدة عن المجالد عن الشعبى قال: قال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده: أدّبهم برواية شعر الأعشى، فإن لكلامه عذوبة، قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره، فمن زعم أن أحدًا من الشعراء أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر، وقيل لعليّ بن طاهر: مَن أشعر الناس؟ قال: الذى يقول:

وتـبـرد بـــرد رداء العــــرو   س في الصيف رقرقت فيه العبيرا

وتسخـــن ليلة لا يستطـــيع   نباحـهـا بها الكلــب الاهـــريرا

وقال: يا ابن أخى مَن قدّم على الأعشى أحـدًا فإنما يفعل ذلك بالميل فهو أشعر شعراء الناس، ولما أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول الأعشى الذى نفر فيه عامر بن الطفيل وفضله على علقمة بن علاثة ويمدح عامرًا:

علقـــم مـــا أنت إلى عامـــر   الناقـــم الأوتـــار والــواتـــر

سُدْتَ بنيالأحوص لم تعدهـم   وعامــــر ســـاد بنى عامـــــر

وكان علقمة قد أسلم وحسن إسلامه، وكان من المؤلفة قلوبهم، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن إنشاد هذا الشعر حين أسلم علقمة، وحديث منافرتهما يطول.

(باب خبر لبيد بن ربيعة) قال الذين قدّموا لبيد بن ربيعة هو أفضلهم فى الجاهلية والإسلام وأقلهم لغوًا فى شعره، وقد قيل عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : رحم الله لبيدًا ما أشعره فى قوله :

ذهب الذيــن يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

لا ينفعـــون ولا يرجى خيرهم   ويعاب قائلهم وإن لم يشغب[2]

---

[1] قوله ولما: أى ولم ينجح، أى لم يحصل له الفوز بالإسلام. إهـ مصححه.

[2] قوله يشغب: أى يَحِدْ عن الحق، وبابه منع إهـ مصححه

ثم قالت: كيف لو رأى لبيد خلفنا هذا. ويقول الشعبة: لو رأت أم المؤمنين خلفنا هذا.

(فصل آخر) قال: وكان لبيد حَوّادًا شريفًا فى الجاهلية والإسلام، وكان قد آلى فى الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا، ثم أدام ذلك فى إسلامه، ونزل لبيد بالكوفة وأميرها الوليد بن عقبة، فبينا هو يخطب الناس إذ هبت الصبا بين ناحية المشرق إلى الشمال، فقال الوليد في خطبته على المنبر: قد علمتم حال أخيكم أبي عقيل وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا، وقد هبت ريحها فأعينوه، ثم انصرف الوليد فبعث إليه بمائة من الجزر واعتذر إليه فقال:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه — إذا هبت رياح أبي عقيل
أشمّ الأنف أصيد[1] عامريٌ — طويل الباع كالسيف الصقيل
وَفّي ابن الجعفرى بما نواه — على العلات والمال القليل
يذكي الكوم ما هبت عليه — رياح صبا تجاوب بالأصيل

فلما وصلت الهدية إلى لبيد قال له الرسول: هذه هدية ابن وهب فشكره لبيد وقال: إنى تركت الشعر منذ قرأت القرآن وإنى ما أعيا بجواب شاعر، ودعا ابنة له خماسية[2] فقال: أجيبيه عني، فقالت:

إذا هبّت رياح أبى عقيل — دعونا عند هبتها الوليدا
أشمّ الأنف أصيد عبشميا — أعان على مروأته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبًا — عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك اللّه خيرًا — نحرناها وأطعمنا الوفودا
فعد أن الكريم له معاد — وظنى بابن أروى أن يعودا

---

[1] قوله أصيد: أى يرفع رأسه كبرًا، ومنه قيل للملك أصيد من الصيد محركًا لأنه لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً إهـ.
[2] قوله خماسية بضم الخاء : أى طولها خمسة أشبار إهـ.

فقال لبيد: أجبت وأحسنت لولا أنك سألت في شعرك، قالت: إنه أمير وليس بسوقة ولا بأس بسؤاله ولو كان غيره ما سألناه. قال: أجل، إنه لعلى ما ذكرتِ.

قيل: وكان لبيد أحد المعمرين، يقال إنه لم يمت حتى حُرِّم عليه[1] نكاح خمسمائة امرأة من نساء بني عامر. وهو القائل لما بلغ تسعين حجة :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامي

ولو أنني أرمى بسهم رأيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام

وقال حين بلغ عشرين ومائة:

وغنيت[2] دهرًا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقال حين بلغ أربعين ومائة :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد

غلب الزمان وكان غير مغلب ... دهر طويل دائم ممدود

يوم إذ يأتي عليّ وليلة ... وكلاهما بعد انقضاه يعود .

ثم أسلم وحسن إسلامه، وجمع القرآن وترك قول الشعر.

(فصل آخر من أخباره) ولما حضرته الوفاة قال لابنه: إن أباك قد توفى، فإذا قبض أبوك فأغمضه واستقبل به القبلة، وسجّه بثوبه ولا تصح عليه صائحة ولا تبك عليه باكية، وانظر إلى جفنتي التي كنت أصنعها، فأجد صنعتها ثم احملها إلى مسجدك لمن كان يغشاني عليها، فإذا سلم الإمام فقدّمها إليهم، فإذا فرغوا فقل احضروا جنازة أخيكم لبيد، ثم أنشأ يقول:

يوم إذ يأتي عليّ وليلة ... وكلاهما بعد انقضاه يعود

فإذا دفنت أباك فاجـ ... ـعل فوقه خشبًا وطينا

---

[1] قوله حتى حرم عليه ..إلخ، أى لأنهن ما بين بناته وبنات بناته وهكذا اهـ مصححه.

[2] قوله وغنيت أى عشت اهـ.

وصفائحًا صُمًّا روا … سيها يسدّدن الغضونا[1]

ليقين حرّ الوجه من … عفر التراب ولن يقينا

(باب صفة عمرو بن كلثوم) قال الذين قدّموا عمرو بن كلثوم: هو من قدماء الشعر وأعزهم نفسًا وأكثرهم امتناعًا وأجودهم واحدة.

(قال عيسى بن عمر) لله درّ عمرو بن كلثوم أىّ حلس شعر ووعاء علم لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه من الشعراء وإن واحدته لأجود سبعهم (وذكر أبو عمرو ابن العلاء) أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته، ولولا أنه افتخر فى واحدته وذكر مآثر قومه ما قالها. وقيل إن عمرو بن كلثوم كان ينشد عمرو بن هند وهو الثانى من ملوك الحيرة[2] ، فبينما هو ينشد فى صفة جمل إذ حالت الصفة إلى صفة ناقة، فقال طرفة استنوق الجمل والبيت الذى أنشده عمرو بن كلثوم :

وإنى لأمضى الهمّ عند احتضاره … بناج عليه الصيعرية ميسم

الصيعرية سمة من سمات الإبل الإناث خاصة لا فى الذكور، فلذلك قال طرفة استنوق الجمل، فقال عمرو: ما يدريك يا صبى، فتشاتما، فقال عمرو بن المنذر: سبه يا طرفة، فقال قصيدته التى أوّلها :

أشجاك الربع أم قدمه … أم سواد دارس حممه

حتى بلغ إلى قوله :

فإذا أنتم وجمعكم … حطب للنار تضطرمه

فقال عمرو بن كلثوم يتوعد عمرو بن هند :

ألا لا يجهلن أحد علينا … فنجهل فوق جهل الجاهلينا

بأىّ مشيئة عمرو بن هند … تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

---

[1] قوله الغضونا: هى غضون الأذن أى مثانيها إهـ.

[2] قوله عمرو بن هند وهو الثانى من ملوك الحيرة: هكذا فى النسخ التى بأيدينا، وفى بعض النسخ عمرو بن المنذر بن ماء السماء، وهو الثانى من ملوك الحيرة إلخ.. وحرر إهـ.

(وروى) أن هذا الخبر كان بين طرفة والمتلمس وأنه لا يجترئ على عمرو ابن كلثوم بمثل هذا نشدته في قومه.

(وقال مطرّف) بلغني عن عيسى بن عمر وأظن أني قد سمعته منه أنه كان يقول: لو وُضِعَتْ أشعار العرب في كفة، وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة، لمالت بأكثرها.

(باب طرفة بن العبد) قال الذين قدّموا طرفة هو أشعرهم إذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في طول أعمارهم، وإنما بلغ عمره نيفًا وعشرين سنة، وقيل لا بل عشرين سنة، فحبّ وركض معهم، وكان من حديثه أنه هجا عبد عمرو بن بشر بن مرثد بن سعد ابن مالك بن ضبيعة، فقال:

فيا عجبًا من عبد عمرو وبغيه ... لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما

ولا خير فيه غير أن له غنى ... وأن له كشحًا إذا قام أهضما

وكان قد هجا عمرو بن هند الملك، وكان له يوم نعيم ويوم بؤس، فقال:

قسمت الدهر من زمن رخيٍّ ... كذاك الدهر بقصد أو بجور

لنا يوم وللكروان[1] يوم ... تطير البائسات وما يطير

قال: فبينما عمرو بن هند قاعد، وعنده عبد عمرو، إذ نظر إلى خصر قميصه متخرقًا، وكان من أجمل العرب، وكان صفيًا له يداعبه، وقد سمع ما قال فيه طرفة فضحك وأنشده شعر طرفة، فقال: أيها الملك قد هجاك بأشد من هذا، قال: وما هو؟ فأنشده قوله، فوقع في قلبه، وقال: يقول فيَّ مثل هذا، وكره العجلة عليه لمكان قومه فطلب عامليه[2] وكان المتلمس وهو عمرو بن عبد المسيح[3] رجلاً مسنًا مجربًا وكان المتلمس أيضًا قد هجا عمرًا فأقبل المتلمس وطرفة على عمرو يتعرضان لمعروفه فكتب لهما إلى عامل البحرين وهجر وقال: انطلقا إليه فاقتضيا جوائزكما، فلما خرجا من عنده قال المتلمس: يا طرفة إنك غلام

---

[1] الكروان هو اسم طير، وتطير البائسات أي ذات البؤس والشدة. إهـ.

[2] قوله فطلب عامليه هكذا في الأصل الذي بيدنا، ولعل صواب العبارة: فكتب إلى عامله وحرر إهـ مصححه.

[3] وهو خال طرفة إهـ.

حدث السن ولست تعرف ما أعرف وكلانا قد هجاه، ولست آمن أن يكتب بما نكره فتعال ننظر فى كتبه، فقال طرفة: لم يكن ليقدم عليّ بمثل هذا وعدل المتلمس إلى غلام عبادى[1] من أهل الحيرة فقال: اقرأ ما فى هذه الصحيفة، فإذا فيها السوء فألقاها فى النهر وتبع طرفة يريد أن يرده فلم يدركه وقدم طرفة على عامل البحرين، وهو ربيعة بن الحرث، وهو الذى كتب إليه فى شأن طرفة والمتلمس، فقال المتلمس يذكر ما كان من أمره:

فألقيتها من حيث كانت فإننى ... كذلك أقنو[2] كل قــط مضلل

رضـيت لها بالماء لما رأيتها ... يجول بها التيار فى كل جدول

ومضى طرفة حتى إذا كان ببعض الطريق سنحت له ظباء فيها تيس وعقاب، فزجرها[3] طرفة فقال:

لعمرى لقد مرّت عواطس[4] جمّة ... ومـر قبيل الصبح ظبى مصمـع

وعجــزاء دفـت بإجناح كأنها ... مع الصبح شيخ فى بجـد مقنـع

فلـن تمنعى رزقا لـعبـد يناله ... وهـل يعدون بؤساك ما يتوقـع

وقال المتلمس :

مــن مبلغ الشعراء عن أخويهم ... خبرًا فتصدقـهم بذاك الأنفس

أودى الذى علق الصحيفة منهما ... ونجاحذا رحبانــه المتلمس[5]

ومنها قوله :

ألــق الصحــيفة لا أبالك إنه ... يخشى عليك من الحباء النقرس

---

[1] قوله عبادى نسبة إلى العباد بكسر العين وهى قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة إهـ.

[2] قوله أقنو هو هكذا فى النسخ، ولعله أقفو، والقط الصك بالجائزة، والمضلل الكثير الضلال الذى لا خير فيه.

[3] قوله زجرها: الزجر هو أن يرمى الطيربحصاة أو أن يصيح به، فـإن ولاه فـى طيرانـه ميامنـه تفـاءل بـه، وإن ولاه مياسره تطيّر منه.

[4] قوله عواطس: هى جمع عاطس، وهى ما استقبلك من أمامك من الظباء ومصمـع مؤلـل، والعجـزاء مـن العقبـان القصيرة الذنب، والتى فى ذنبها ريشة بيضاء، ودفت أى حركت جناحيها كالحمام.

[5] قوله أودى: أى هلك وعلق الصحيفة أى تعلق قلبه بها، يقول: إن الذى ضـن بالصحيفـة هلـك. وأمـا هـو أى المتلمس فإنه لم يغره العطاء وهو الحباء فألقى الصحيفة فى الماء فنجا أ هـ.

فلما قدم طرفة على عامل البحرين، دفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه فقال: هل تعلم ما أمرت به؟ قال: نعم، أمرت أن تجيزني وتحسن إليّ، فقال: يا طرفة بيني وبينك خؤولة أنا لها راع حافظ، فاهرب في ليلتك هذه، فإني قد أمرت بقتلك، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس، فقال طرفة: اشتدت عليك جائزتي فأردت أن أهرب وأجعل لعمرو بن هند عليّ سبيلاً، كلا والله لا أفعل ذلك أبدًا. فلما أصبح أمر بحبسه، وجاءت بنو بكر، فقالوا: ما أقدم طرفة، فقرأ عليهم كتاب الملك ثم حبس طرفة ولم يقتله، وكتب إلى عمرو بن هند أن ابعث إلى عملك من تريد فإني غير قاتله. فبعث عمرو بن هند رجلاً من تغلب فاستعمله على البحرين، فقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحرث، وقدمهما وقرأ عليهما عهده، فلبث أيامًا واجتمعت بكر بن وائل فهمت بالتغلبي وقتل طرفة رجل من الحواثر يقال له أبو رشية فقتله فقبره[1] اليوم معروف بهجر بارض لبني قيس بن ثعلبة وودته الحواثر إلى أبيه لما كان من قتل صاحبهم إياه بعثوا بالإبل حسبة. ويروى أن طرفة قال قبل صلبه :

فمن مبلغ أحياء بكر بن وائل ... بأن ابن عبد راكب غير راجل

على ناقة لم يركب الفحل ظهرها ... مشذبة أطرافها بالمناجل

وقال أيضًا :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال المتلمس يحرّض أقوام طرفة :

أبني فلانة لم تكن عاداتكم ... أخذ الدنية قبل خطة معضد

وقالت أخت طرفة وهي الخرنق تهجو عبد عمرو حين أنشد الملك شعر أخيها طرفة ابن العبد :

ألا ثكلتك أمك عبد عمرو ... أبا النخبات[2] واخيت الملوكا

هم ركلوك للوركين ركلا ... ولو سألوك أعطوك البروكا

---

[1] قوله فقتله فقبره إلخ هكذا في الأصول التي بأيدينا ولعل لفظة فقتله زائدة من قلم الناسخ إهـ.

[2] أبا النخبات في نسخة أبا النجبات وحرره.

فيومك عند زانـيـة هـــلـوك　　كظل الرجع مزهرهـــا ضحـــوكا[1]

ورثته أخته أيضًا بقولها :

نعمنا به خمسًا وعشرين حجـة　　فلما توفاها اســتوى ســيدًا فخمًا

فجعنا به لما اســتـتم تمامـــه　　على خير حال لا وليدا ولا قحمـــا[2]

ومضى المتلمس هاربًا إلى الشام فكتب فيه عمرو بن هند إلى عماله بنواحي الريف يأمرهم أن يأخذوا المتلمس إن قـدروا عليـه يمتار طعامًا أو يدخـل الريـف، فقـال المتلمس يحرض قومه :

يا آل بكر ألا للّـــه دركـــم　　طال الثواء وثوب العجز ملبـــوس

وقال أيضًا :

إن العراق وأهله كانوا الهوى　　فـإذا نآنا ودّهـــم فليبعــــدوا

وقال أيضًا :

أيها الســـائلى فإني غريب　　نـــازح عن محلتي وصمـــيمى[3]

وقال أيضًا :

ألا أبلغـا أفـنـاء سعد بن مالك　　رسالة من قد صار في الغور جانبه

وقال أيضًا :

أطردتنى حـــذر الهجاء ولا　　واللات والأنـصـــاب لا تـــئل[4]

وقال أيضًا يهجو عمرو بن هند :

قولا لعمرو بن هـــند غير متئب　　يا أخنس الأنف والأضراس كالعدس

ملك النهار وأنت اللـــيل مومسة　　ماء الرجال على فخذيك كالغـرس[5]

---

[1] قوله كظل الرجع... إلخ، فى نسخة : تصل الرجع ... إلخ، وحرره إهـ.

[2] قوله فخما، أى عظيم القدر، وقوله قحما، أى شيخًا كبير السن جدًا إهـ.

[3] وصميمى صميم كل شيء خالصه، يقال: هو فى صميم قومه إهـ.

[4] قوله لا تئل أى لا تنجو إهـ.

[5] قوله كالغرس هو ما يخرج مع الولد كأنه مخاط ساعة يولد، وقوله ذا جلد..إلخ: الجلد جمع جلدة، وهـى القلادة تعلق فى عنق الكلب إهـ.

لو كنت كلب قنيص كنت ذا جدد　　تكون أربته فى آخر المـــــرس

يعوى حريصًا بقول القانصات له　　قبحت ذا وجه أنف ثـــمّ منتكس

وقال يهجوه :

كأن ثـــناياه إذا افـــترّ ضاحـــكاً　　رؤوس جراد فى أرين[1] تخشخـــش

(**باب ذكر طبقات من سمينا منهم**) قال أبو عبيدة: أشعر الناس أهل الوبر خاصـة، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة. فإن قال قائل إن امرأ القيس ليس من أهـل نجـد، فلعمـرى إن هذه الديار التى ذكرها فى شعره ديار بنى أسد بن خزيمة. وفـى الطبقـة الثانيـة الأعشـى ولبيد وطرفة، وقيل إن الفرزدق قال: امرؤ القيس أشعر الناس، وقـال جريـر: النابغـة أشعر الناس، وقال الأخطل: الأعشى أشعر الناس، وقال ابن أحمر: زهـير أشـعر النـاس، وقـال ذو الرمة: لبيد أشعر الناس، وقال ابن مقبل: طرفـة أشـعر النـاس، وقـال الكميـت: عمـرو ابـن كلثوم أشعر الناس. والقـول عندنـا مـا قـال أبـو عبيـدة : امـرؤ القيـس ثـم زهـير والنابغـة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة (وقال المفضل) هؤلاء أصحاب السبع الطـوال التـى تسـميها العرب السموط، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليـه أهـل العلـم والمعرفـة، وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهنّ سبعًا ما هنّ بدونهـنّ، ولقـد تـلا أصحـابهن أصحاب الأوائل فما قصروا (**وهن المجمهرات**) لعبيد بن الأبرص وعنترة بـن عمـرو وعـدىّ ابن زيد وبشر بن أبى خازم وأمية بن أبى الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تولب (**وأمـا منتقيات العرب**) فهن للمسيب بن علس والمرقش والمتلمس وعروة بن الورد والمهلهـل ابـن ربيعة ودريد بن الصمة والمتنخل بن عويمر (**وأما المذهبات**) فللأوس والخزرج خاصة، وهـن لحسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ومالك بن العجلان وقيس بـن الخطيـم وأحيحـة ابـن الجلاح وأبى قيس بن الأسلت وعمرو بن امرئ القيس (**وعيون المراثى سبع**) لأبـى ذؤيـب الهذلى وعلقمة بن ذى جدن الحميرى ومحمد بن كعب الغنوى والأعشى الباهلى وأبى زبيـد الطائى ومالك بن الريب النهشلى ومتمم بن نويرة اليربوعى (**وأما مشوبات العـرب**) وهـنّ

---

[1] قوله فى أرين: الأرين المكان أو اسم موضع بعينه. وانظر (أصحاب السبع الطوال).

اللاتى شابهن الكفر والإسلام، فلنابغة بنى جعدة وكعب بن زهير والقطامى والحطيئة والشماخ وعمرو بن أحمر وابن مقبل (**وأما الملحمات السبع**) فهن للفرزدق وجرير والأخطل وعبيد الراعي وذى الرمة والكميت بن زيد والطرماح بن حكيم (**قال المفضل**) فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ونفس شعر كل رجل منهم (وذكر أبو عبيد) فى الطبقة الثالثة من الشعراء المرقش وكعب بن زهير والحطيئة وخداش بن زهير ودريد بن الصمة وعنترة وعروة بن الورد والنمر بن تولب والشماخ ابن ضرار وعمرو بن أحمر (قال المفضل) هؤلاء فحول شعراء أهل نجد الذين ذموا ومدحوا وذهبوا فى الشعر كل مذهب، فأما أهل الحجاز فإنهم الغالب عليهم الغزل (وذكر أبو عبيدة) أن الناس أجمعوا على أن أشعر أهل الإسلام الفرزدق وجرير والأخطل، وذلك لأنهم أعطوا حظًا فى الشعر لم يعطه أحد فى الإسلام، مدحوا قومًا فرفعوهم، وذموا قومًا فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم وعن الرد عليهم فأسقطوهم، وهؤلاء شعراء أهل الإسلام، وهم أشعر الناس بعد حسان بن ثابت لأنه لا يشاكل شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد[1] (وذكر عن أبى عبيدة) قال: قيل لجرير كيف شعر الفرزدق؟ قال: كذب من قال أنه أشعر من الفرزدق، قيل: فكيف شعرك: قال: أنا مدينة الشعر؟ قيل: كيف قول الراعى: قال شاعر ما خليته وإبله وديمومته يريد راعى الإبل، قيل: كيف شعر الأخطل، قال: أرمانا للأعراض، قيل : كيف شعر ذى الرمة؟ قال: نقط عروس وبعر ظباء، وأما جرير فأعزنا بيتًا[2]، وأما الفرزدق فأفخرنا بيتًا (وقال أبو عبيدة) فتح الشعر بامرئ القيس، وختم بذى الرمة فرواه أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء (وعنه) عن مسلم عن أبى بكر المدينى قال: جاء رجل من بنى نهشل إلى الفرزدق وهو بالبصرة فقال: يا أبا فراس هل أحد اليوم يرمى معك؟ قال: والله ما أعلم نابحًا إلا وقد انحجر ولا ناهسًا إلا وقد أسكت، إلا أبياتًا جاءت من غلام بالمروة، قال: وما هى؟ قال: قوله

---

[1] فى نسخة: وحدثنا محمد بن أبى بكر العمرى عن مسلم بن محمد البكرى عن بعض البكريين قال: قيل...إلخ.

[2] قوله: وأما جرير فأعزنا بيتًا : هكذا فى الأصول التى بيدنا.

فإن لم تكن فى الشرق والغرب حاجتى ... تشاءمت أو حوّلت وجهى يمانيا

فردّى جمال الحىّ ثم تحملى ... فمالك فيهم من مقام ولا ليا

فإنى لمغرور أعلل بالمنى ... ليالى أدعو أن مالك ماليا

بأىّ سنان تطعن القوم بعدما ... نزعت سنانًا من قناتك ماضيا

بأىّ نجاد تحمل السيف بعدما ... قطعت القوى من محمل كان باقيا

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ... وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

فقيل من هو؟ قال: أخو بنى يربوع.

(وقال أبو عبيدة) قيل للأخطل أنت أشعر أم الفرزدق؟ قال: أنا غير أن الفرزدق قال أبياتًا ما استطعت أن أكافئه عليها

يا ابن المراغة والهجان إذا التقت ... أعناقها وتماحك الخصمان[1]

كان الهزيل يقود كل طمرّة ... دهماء مقربة وكل حصان

يا ابن المراغة ان تغلب وائل ... رفعوا عنانى فوق كل عنان

ما ضر تغلب وائل أهجوتها ... أم بلت حيث تناطح البحران

إن الأراقم لن ينال قديمها ... كلب عوى متهتم الأسنان

(وقيل للفرزدق) أنت أشعر أم الأخطل ؟ قال : أنا، غير أن الأخطل قال أبياتًا ما استطعت أن أكافئه عليها وهى قوله :

ولقد شددت على المراغة سرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد

وعصرت نطفتها لتدرك دارمًا ... هيهات من أمل عليك بعيد

وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائل صيد

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتًا كبيت عطارد ولبيد

بيت تزلّ العصم عن قذفاته ... فى شاهق ذى منعة محمود[2]

---

[1] قوله المراغة هى الأتان لا تمنع الفحولة إهـ. وقوله وتماحك الخصمان: أى تلاحا من محك إذا لج فى الأمر إهـ.

[2] قذفاته بضم القاف والذال أعالى رؤس الجبال إهـ.

(وذكر محمد بن عثمان) عن علي بن طاهر الهذلي قال: كنت عند عمرو بن عبيد أكتب الحديث وكان فيمن حضر المجلس عيسى بن عمر الثقفي، وقد ذكر الشعر والشعراء أيهم أشعر، فقلت: أنا يكلفني أشعر الناس الأعشى، قال عيسى : وكيف ذلك: فجعلت أنشد محاسن شعره الذى يفضل به، وهو منصت، فلما فرغت، قال: يا ناعس، أشعر الناس الأخطل حيث يقول :

ونجى ابن بدر ركضة من رماحنا ولينة الأعطاف ملهبة الحضر

كأن بقايا عذرها وخزامها أداوى تسح الماء من خرز وفر[1]

الوفر الجديدة، قال :

وفراء غرفية أثأى خوارزها مشلشل ضيعته بينها الكتب

الكتب الخرز والمشلشل كثير القطران

يشير إليها والرماح تنوشه فدى لك أمي إن دأبت إلى العصر

ثم قال لله دره كيف ينتحل شعره.

(وذكر عوانة بن الحكم) أن عبد الملك بن مروان صنع طعامًا فاكثر وأطيب ودعا الناس فأكلوا[2] ، فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام وما أظن أحدًا أكل أطيب منه فقال أعرابي من ناحية القوم أما أكثر فلا، وأما أطيب فقد أكلت أطيب منه، فطفقوا يضحكون فأشار إليه عبد الملك فدنا منه فقال : ما أنت لما تقول بحقيق، قال : بلى يا أمير المؤمنين بينا أنا بهجر في تراب أحمر في أقصاها حجرًا إذ توفي أبي وترك كلا وعيالاً ونساء ونخلاً وفي النخل نخلة لم ير الناظرون مثلها كأخفاف الرباع، و لم ير تمر قط أغلظ لحمًا ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها وكانت أتان وحشية قد ألفت تلك النخلة فتثبت برجليها وترفع يديها وتعطو بفيها[3] ، وكادت أن تنفد ما فيها، فانطلقت بقوسي وكنانتي وأسهمي

---

[1] أداوى جمع أداوة وهى القربة الصغيرة إهـ.

[2] قوله فقال بعضهم ما أطيب هذا الطعام إلى قوله أما أكثر فلا ... إلخ هو هكذا فى النسخ التى بأيدينا وانظره فلعل فيه سقطًا إهـ.

[3] وتعطو بفيها، أى تميله لتأكل. إهـ.

وزندى وأنا أظنني أرجع من ساعتي، فمكثت يومًا وليلة حتى إذا كان السحر أقبلت فرميتها فأصبتها، ثم عمدت إلى سرتها فأبرزتها ثم عمدت إلى خطب جزل فجمعته وإلى رضف فوضعته، وإلى زندى فأوريته ثم ألقيت سرتها فى ذلك الحطب، ثم أدركنى النوم فنمت فلم يوقظنى إلا حرّ الشمس، فانطلقت فكشفتها وألقيت عليها من رطب تلك النخلة من مجزعه[1] ومنقطه[2] فسمعت لها أطيطا[3] كتداعى قطا وغطيطا ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة والتمرة، فقال عبد الملك: لقد أكلت طيبًا، فمن أنت؟ قال: أنا رجل جانبتنى صأصأة اليمن[4] وعنعنة تميم وأسد وكشكشة ربيعة وتأنيث كنانة. العنعنة إبدال العين من الهمزة فى مثل قول ذى الرمة :

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

والكشكشة إبدال الشين المعجمة من الكاف نحو عليش وبش فى موضع عليك وبك (قال عبد الملك) فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أخوالك بنى عذرة، فقال عبد الملك: أولئك من أفصح العرب، فهل لك من معرفة بالشعر ؟ قال : سل عما بدا لك يا أمير المؤمنين. قال: أىّ بيت قالت العرب أمدح؟ قال: قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

قال وكان جرير فى القوم فتحرك ورفع رأسه قال عبد الملك فأىّ بيت قالت العرب أفخر؟ قال: قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم وجدت الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير وتطاول، ثم قال عبد الملك فأىّ بيت قالت العرب أهجى ؟ قال قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

فتحرك جرير، قال عبد الملك، فأىّ بيت قالت العرب أغزل قال قوله :

---

[1] قوله من مجزعه هو كمعظم الذى أرطب نصفه أو ثلثه.

[2] وقوله ومنقطه أى الذى فيه نقط تخالف لون البسر إهـ.

[3] وقوله أطيطا إلخ أى صوتًا كأصوات القطا وغطيطا أى صوتًا كغطيط النائم.

[4] قوله صأصأة اليمن أى كلامهم الشبيه بصأصأة الطائر.

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فتحرك جرير، قال عبد الملك: فأيّ بيت قالت العرب أحسن تشبيهًا؟ قال قوله :

سـرى لهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المفتل

(قال) فقال جرير: أصلح الله شأن أمير المؤمنين، جائزتي لأخي عذرة، قال عبد الملك: ومثلها معها. قال: وكانت جائزة جرير عند الخلفاء أربعة آلاف وما يتبعها من كسوة، فخرج الأعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلاف، وفي يده اليسرى رزمة ثياب.

القسم الثانى :

النقد فى العصر الأموى

عصر القرآن:

بنزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتقلت ثقافة الإنسان العربى من طور السذاجة والطفولة، ومن طور الخرافة الممازجة للحقيقة إلى طور أسمى سموا دخل فيه العربى بتوجيه من القرآن وإرشاد إلى دور اهتز فيه كيانه اهتزازا عنيفا فكرا ووجدانا وتجربة. وتوجز فى تحديد أنه واجه بالقرآن الحقيقة العلمية عن الكون، والحقيقة الدينية عن الله وعالم الغيب. وأرسى السلوك الإنسانى فى تعامله مع بنى الإنسان وكل ما يحيط به فى الكون. تجربة جديدة دخلها الإنسان العربى، وثقافة جديدة ربى عليها تخالف تماما تجربة وثقافة العصر الجاهلى. وفى مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن جهاد المسلمين بالسيف وحده ولكن بالفن القولى كذلك، فإذا كان للمشركين شعراء يهاجمون المسلمين فقد كان يوازر المسلمين فى جهادهم شعراء مسلمون كحسان وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وابن الزبعرى وكثير غيرهم سجلت أشعارهم فى معارك الفتوح الإسلامية ثم فوق هذا كله كان القرآن يثبت المجاهدين ويفضح المنافقين.

نخلص من تلك العجالة التاريخية إلى حقيقة أدبية هى أن القرآن كان من الروعة والإعجاز بحيث وقف الأدباء أمامه حيارى مبهورين وصور موقفهم الشاعر لبيد فقد قال: أعفانى الله بسورة البقرة عن قول الشعر. وإذن فقائل الشعر - إن قاله - لابد أن يلتزم بمثل الإسلام وقيمه، ويجتنب نجم فن كالهجاء أو الغزل الفاحش أو المديح المداحى. هذا الحطيئة الشاعر المخضرم الذى شد نفسه إلى مثل الجاهلية بأكثر مما التزم بالمثل الإسلامية يقول فى الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فيحبسه الخليفة عمر بعد أن أشهد عليه الشاعر حسان بن ثابت والخليفة عمر كذلك هو الذى يعجبه من النابغة قوله:

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

وكان يعجَب بزهير بن أبى سلمى لأنه إذا مدح لم يمدح الرجل إلا بما فيه. كان لابد من فترة كافية لتسود تلك القيم والمثل الإسلامية فى الحياة الأدبية والنقدية وكان تيارها من غير شك يعمل عمله. ونستطيع أن نبين التأثير الأدبى القوى للإسلام فى الفنون النثرية التى كانت استجابتها وتأثراتها أسرع من الشعر. ففى نماذج الخطابة لعصر النبوة والخلفاء الراشدين وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفى رسائله ورسائل خلفائه الراشدين وفيما أُثر عن للصحابة من أقوال مادة ثرية لم يلتفت إليها نقدنا العربى ربما لان الشعر هو الذى كان يستأثر بالنقد، وربما لاعتبار النقاد أن المادة النثرية لعصر النبوة والخلفاء الراشدين هى من باب الدراسة الإسلامية أو التاريخية. على أنه من حق ذلك التراث الأدبى الثمين علينا وهو ما هو غنيًا بالمضمون وبالعبارة الفنية أن يلتفت إليه باعتباره الصدى الأدبى العملى للمثل الإسلامية الجديدة .

المادة النثرية الإسلامية :

ونخرج من عصر صدر الإسلام بالقيم النقدية التالية:

أولاً : أن التجربة والثقافة التحمتا التحاما شديدا منذ كان السلوك الإسلامى هو القول الإسلامى وهو كذلك التجربة التى يمارسها الإنسان المسلم. ونسمع إلى التوجيه القرآنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وإذن يصبح المضمون الإسلامى الذى لا يتشكل حسب الهوى الخاص ولكن وفق التوجيه الإسلامى – يصبح هذا المضمون – هو الذى يلتزم به الأدباء فى إبداعهم وإذن يواجه النقد مشكلة ماذا ينقد؟

إن هذه الأساليب الأدائية فى فنون النثر الإسلامى كانت تتجه كلها وجهة الإقناع والتأثير الوجدانى لا تتجه أبدا فى تحيز إلى العقل وحده على حساب العاطفة ولا إلى العاطفة وحدها مع إهمال العقل. وإنما خاصيتها التوازن الذى تتسم به شخصية المسلم القائل، وتطبع بطابعها عباراته، وتحرك بصدقها كذلك الإرادات والسلوك.

وبهذا فالعبارة الأدبية متوازنة الفكر والوجدان، ومن هذا الذوق يكون مقياس الجودة هو التوازن المنطقى والشعورى معا. إن القول لدى تلك النماذج الإنسانية هو الفعل، والفعل هو القول والنقد هدفه حينئذ هو الحكم بالخطأ أو الصواب. ومن ثم يصبح لازما أن يكون مقياس النقد هو التفسير الأدبى والفهم الذوقى بحسب المفهوم النقدى المعاصر. إذا رددنا كل آثار تلك العصور الأدبية إلى المعانى والأساليب القرآنية نجدها هى المصدر المشع المحرك لقوى التفكير والإحساس فى تلك النصوص، وهى حقيقة فريدة تسم عصر النبوة والخلفاء الراشدين بما لم يعرف عن مثله فى أى عصر من عصور تاريخ الدنيا، إذا ركزنا على الجانب الأدبى راعنا ما كان من صلة بين وحى السماء وأحداث الأرض وما واكب ذلك من قول صادق بليغ يسجل الحدث ويصوره.

لقد كانت حركة التاريخ من القوة والاندفاع بحيث لم تستطع حركة النقد أن تلاحق أدبه أو أن تعيه. لقد بهرت النقاد شخصيات القائلين بالرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته وأبطال المسلمين وكان سحر شخصياتهم يعقد الألسنة عن أن تنبس بنقد فيهم.

رأى:

وعند هذا الحد وقفة تأمل .. إن اختيارنا لهذا الموضوع لتأكيد حقيقة فريدة ألا وهى أن أدبنا ونقدنا قديمة وحديثة ما يزالان مادة خام تنتظر الاقتراب منها بمنهج أدبى معاصر. ولقد وقع بعض باحثينا فى الأدب والنقد فى خطأ كبير حين فهموا: من التجديد الأدبى والنقدى أنه يعنى استعارة مقاييس أدبية ترتبط بأذواق وأفهام آداب أجنبية وحاولوا فى عسر أن يلووا نصوصنا الأدبية العربية لتخضع لتلك المقاييس واغفلوا فى هذا بديهية أدبية أن المقاييس الأدبية لابد أن تنبع من ذات الأدب والذوق الذى يستحب ويسترزل مصدره الأدب نفسه. وبعد أول أديب كان أول ناقد سجل تأثره بما تأثر به ذوقه ونبض به وجدانه. وإذن فالمقاييس النقدية لا تُستَزْرَع بذور أدب فى تربة أدب آخر لأن الأمر هنا متصل بوجدان وفكر جيل من الناس فى حيز مكانى وزمانى بعينه. أما الذى يستعار حقا فهو المنهج، وهذا الذى صنفناه هنا حين اخترنا عنصرى التجربة والثقافة وحددناهما بإطار مكانى وزمانى ثم رحنا نتتبع تأثيرات هذين العنصرين فى الحياة النقدية. إن المادة عربية،

وزاوية البحث ومنهجه جديدان، وهكذا يتبنى التزاوج فى مرحلة التجديد بعنصرين مادة القديم الموروث، وعنصر المعاصرة فى خطة البحث ومنهج الدرس، وتكشف لنا من خلال البحث أن ثمت جهودًا وجهودًا ينبغى بذلها لتحقق للدرس الأدبى والنقدى وجده العربى الحق.

حقيقة نقول أن أدبنا الجاهلى والإسلامى شتات مبعثر لم تجمع بعد نصوصه فى واد واحد، يوضح غريبها ويحقق نصها، وترتب بحسب إعصار قائليها، وهذه المادة الأدبية بالصورة التى حكينا عنها ما ظهر منها مطبوعا، أما المخطوط فلازال مبعثرا بمكتبات الشرق والغرب. وبودى لو أن جامعاتنا العربية وأن لبعوثنا فى الخارج، ومجامعنا اللغوية العربية، وفيها أعلام محققون ... بودى لو أن هؤلاء جميعا قاموا بعمل جدى مخطط ومنظم لجمع تراثنا الأدبى وتحقيقه وتقديمه للباحث والقارئ المعاصر بحيث يسهل عليه فهمه وتذوقه مستعينا بما يضئ لنا النص من دراسات حول عصر القول وحياة القائل. وحقيقة ثانية ترتبط بتلك الأولى، أن المادة النقدية لعصرى الجاهلية وصدر الإسلام منها نقاد يملأ بضعة صفحات متواضعة لا تتناسب بحال مع خطر وعظم المادة الأدبية الثرية التى ظلت إلى اليوم النموذج المثالى الذى يترسم. وحقيقة ثالثة أن الذوق الأدبى النقدى لا يمكن فرضه من الخارج، باستعارة ذوق أدبى أو شرقى لأدبنا العربى. فالحس بالكلمة، وتحرك الوجدان لعبارة، وطريقة تأليف العبارة يخضع كله لعبقرية لغتنا العربية، ولهذا لم نجد مستشرقا يتعرض لحياتنا الذوقية والنقدية. فأهل كل لغة هم سادة أذواقها وأصحاب وجدانها. وحقيقة أخرى تنادى أصحاب الدرس النقدى أن النص الأدبى شئ له خطره ومتاعبه فهذا النص يرتبط بقائل، وهذا القائل له ثقافته منها ما ينتمى إلى حياته المعاصرة وما ينتمى إلى موروثه الثقافى. وله كذلك تجربة خلص فيها بفكره عن الكون أردفها بتجربة أسلافه هذا النسيج الفكرى والوجدانى المعقد يرتبط بالنص الأدبى، وعلى الناقد أن يتفحصه غير متكئ على جانب اجتماعى أو نفسى أو عقلى .. الخ مغفلا درس النص فى ذاته بل يظل للنص الأدبى مكانه الأثير من البحث وأن لم نغفل كل ما يحيطه من ظروف. إن المشتغلين بالنص الأدبى اليوم واحد من اثنين، مهمل لهذا النص يتحدث فى كل شئ حوله ويتجاهله. أو هو

يتحدث عن هذا النص وحده فكأنه جاءه سابحا فى الفضاء لا يرتبط بأجواء فكرية ونفسية وتاريخية ... الخ. فتراه يفك بعض مصاعبه العفوية وتفوته أشياء ذوقية ذات بال.

وصية:

آن لنا أن ننتهى إلى وصية. أن الدرس النقدى حين نتعرف إلى أصوله الصحيحة يزودنا بقيمة كبيرة هى أن نأخذ من كل نص أمرين: الفهم، والذوق، العقل والإحساس، وبهذا ألا تكون خياليين سارحين، ولا عقلانيين بلا حس نابض ولهذا نظلم ناشئتنا حين نفرض عليهم نصوصا كلها خيال، ومقاييسها كلها ترف جمالى ونفعل به مثل ذلك حين نعرض حقائق جافة مقاييسها عقلية جامدة. إن تخير النصوص التى لها عطاؤها الفكرى والوجدانى، هى ما ينبغى تقديمه لجيلنا المعاصر بحيث يرى فى العقل والحس جمالا إن هما تساويا واتصلا. إن أدبنا العربى الأصيل ليس ترفا ولا نقدنا الأدبى متعة غير ذات ضرورة بل هما بأصالتهما أساس من أسس تربية أجيالنا العربية الصاعدة، متوازنة بالحس والفكر. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

يزوال نظام الحكم الأول المتمثل فى دولة الخلفاء الراشدين زال ذلك الحاجز الذى كان قائما يمنع المثل الجاهلية ويعيدها.. ولم تلبث تلك المثل الجاهلية أن جمعت فى قوة دافعة فكسرت الحواجز وجعلت تغالب الروح الإسلامية وتحاول قواها أن تفرض نفسها على المجتمع الإسلامى.

والذى يهمنا هنا ملاحظته هو أن هذه النكسة الجاهلية كان لها أثرها فى الحياة الأدبية فى هذه الفترة اذ أتاحت لتيار النشاط الأدبى الجاهلى أن يمضى فى سبيله قويا عنيفا. ومما زاد هذا التيار قوة إلى قوة عوامل جديدة منها نظام الحكم الملكى الوراثى ثم السياسة التى اصطنعتها الدولة الجديدة للتمكين لنفسها وتوطين عرشها بإثارتها للعصبيات وإحيائها لدعوة الجاهلية ليكون من ذلك ما تعتمد عليه فى تقوية سلطانها وبسط نفوذها.

وعلى ذلك فانا نعتبر هذه الفترة من أخصب الفترات فى تاريخ الأدب العربى وأحفلها بألوان النشاط الأدبى ثم هى إلى هذا تمثل فى معظم نواحيها تمثيلا صادقا عميقا الحياة الجاهلية بصورها واتجاهاتها وخصائصها.

وقد تختلف هذه الظاهرة قوة وضعفا بين البيئات الأدبية المختلفة فى هذه الفترة، وقد تتلون هنا بغير ما تتلون به هناك، لكنها جميعا تتشارك فى عودة النشاط الأدبى إليها خصبًا غامرا. وفى تميزه عموما بمجافاة الروح الإسلامية التى كان الخليفة عمر حريصا على أن يجعلها زمام الحياة الأدبية فى زمنه.

وسنحاول أن ننظر فى هذه البيئات الأدبية واحدة واحدة تتمثل فى كل منها صورة النقد الأدبي... وهذه البيئات هى الحجاز والعراق والشام.

الحجاز :

١) أما الحجاز فلعلنا لا نبالغ اذ نقول أنه لم يظفر فى تاريخه كليه بمثل ما ظفر به فى هذه الفترة من النشاط الأدبى الرائع والمنزلة الفنية الممتازة. هذا النشاط الأدبى الرائع الذى تجلت فيه شخصية الحجاز الأدبية بصورة لم يسبق لها نظير، كان هو الظاهرة الاولى التى لفتت الانظار.. ذلك أنه كانت للحجاز حياته الخاصة المنصرفة إلى ألوان النشاط الاقتصادى فلم يدع ذلك للشعر مكانا كبيرا فيه.. ولكنه لم يلبث أن أصبح فى عصرنا الذى نؤرخه جزءا من هذه الحياة وعنصرا بارزا من عناصرها..

٢) ثم إن الحجاز من ناحية أخرى لم يعد مركز الدولة ومستقر السلطان كما كان فى الفترة السابقة للعصر الذى نؤرخه، فقد تحرك هذا المركز عنه أيضا.. لكنه احتفظ خلال هذا القرن الأول بسراته ومترفيه واحتفظ بالغنى والثروة تتدفق عليه من البلاد المفتوحة ومن العطاء الذى كانت الدولة تفرضه لرعاياها وتخص بالإيثار أبناء المهاجرين والأنصار. ولعله كان من سياسة هذه الدولة القائمة فى دمشق أن تحيط هؤلاء بأسباب النعمة ووسائل الترف ليظلوا مشغولين عنها وعن معاكستها.

وهكذا تجئ الظاهرة الثانية التى تميز حياة الحجاز الأدبية فى هذه المرحلة وهى ظاهرة الترف، والتى تتمثل فى سراة شعراء مدن الحجاز من مثل عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعرجى وابن قيس الرقيات وكلهم يمثلون الأرستقراطية العربية فى هذا الإقليم. والمجالس الأدبية التى كان يجتمع فيها الشعراء والمتأدبون كانت مجالس مترفة فى متنزهات المدينة أو متنزهات مكة، وقد اجتمع فيها الشعر والغزل والغناء والطرب واللهو والمجون مما

يمكن التماسه فى أخبار الشعراء والمغنين الأمويين ممن ذكرهم أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى...

ومن هنا كان الشعر الحجازى مطبوعا بطابع الترف فى معانيه، وصوره، وفى موضوعاته واتجاهاته وفى ألفاظه وصياغته ملائما لهذ الحياة المترفة وهذه المجالس الموسيقية الغنائية الغزلة فكان الغزل وحديث المرأة أغلب الموضوعات عليه، وكانت صور تلك الحياه اللاهية العابثة أكثر صوره ومعانيه وكانت ديباجته رقيقة سهلة.

ذلك هو الطابع العام الذى كان يطبع الشعر والحياة الأدبية عادة فى الحجاز لهذه الفترة وهو كما أسلفنا ظاهر المجافاة لروح الثورة التى جاء الإسلام بها.. فالتشبيب وأحاديث النساء والتعرض للمحصنات ووصف مظاهر العبث والمجون، وإشاعة الفاحشة بذلك كل هذه أمور منافية أشد المنافاة لروح الإسلام ومبادئه... فأما الآن فقد أصبح لتشبيب طابع النشاط الأدبى. وأصبح حديث المرأة ووصف علاقاتها أكبر سمات الشعر وأظهرها. ومن أجل ذلك أصبح عمر بن أبى ربيعة إمام شعراء ذلك العهد وزعيمهم، إذ كان المعبر عن نزوع العصر وأهوائه.

هذا التحول الكبير كان له أثره فى تحول النقد الأدبى وفى استحداث مقياس جديد يلائم هنا الحس العام، وهذه القيمة الجديدة فى الحياة الأدبية، ودليلنا هنا نص صريح أورده أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى، قال:(ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبى ربيعة عند ابن أبى عتيق: بعض قولك يا بن أخى. لشعر عمر ابن أبى ربيعة لوطة بالقلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة، ليست لشعر الحارث وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة فخذ منى ما أصف لك: أشعرقريش من دق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه ومتن حشوه، وتعطفت حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته.

فقال الفضل للحارث: أليس صاحبنا الذى يقول:

ألا وما نحروا غداة مِنىً	عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها	سفلا واصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها	فيرده الاقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت	منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبي عتيق: يا بن أخي استر على نفسك، واكتم على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا. أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها، فجعل عاليه سافله. ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل، ابن أبي ربيعة كان أحسن صحبة للربع من صاحبك وأجمل مخاطبة حيث يقول:

سائلا الربع بالبلى وقولا   هِجْتَ شوقا لى الغداة طويلا

ويقول:

أين حي حلوك اذ أنت محفو   ف بهم آهل اراك جميلا

ويقول:

قال ساروا فأمعنوا واستقلوا   وبرغمي لو استطعت سبيلا

سئمونا وما سئمنا مقاما   وأحبوا دماثة وسهولا

والذى يهمنا فى هذا النص هو قول ابن أبي عتيق فى تفضيل شعر عمر بن أبى ربيعة والإشادة به: " وما عصى الله جل وعز، بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة وهذا شئ جديد حقا. فقد أصبح من الفضائل التى يَفْضُل بها شعر شعرا فى اعتبار النقد الأدبى فى هذا العصر أن يتضمن الدعوة إلى عصيان الله، وكلما كان حظه من هذا كبيرا، كان نصيبه من الجمال الفنى وفيرا. وهكذا صار الفسوق من أوامر الدين وتعاليم الإسلام مقياسا جديدا من مقاييس الفن.

وباقى هذا الخبر يدل على مجموعة المثل التى كان يراها النقاد فى الشعر ويزنه بها: أن يكون قوى التأثير فى النفس، بليغ التعبير عن الغرض. أما وسائله إلى بلوغ هذه الغاية فهى أن يكون دقيق المعنى، ليس من المعانى الشائعة أو المبتذلة التى تجرى على لسان بحيث يوضع المعنى فى موضعه من الكلام. وأن يكون الشعر جزل الديباجة حلو الصياغة، قريب المأخذ. وكما ترون، فمن هذه الصفات ما يتصل بالمعنى، ومنها ما يتصل بالترتيب، ومنها ما يتصل بالصياغة وهى جميعا دليل صريح على ما بلغه النقد الأدبى فى الحجاز فى هذا العصر من منزلة غير هينة تتجلى فيما أشرنا اليه من مثل الجمال الفنى عندهم.

وهناك لون آخر من المجالس الأدبية، أدنى إلى الوقار، كان ينعقد في المسجد، مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أو المسجد الحرام بمكة. وكانت مثل هذه المجالس يتحلق حول جماعة من العلماء الذين كانوا يأخذون هنالك مجالسهم لرواية الحديث وللتبصير بالدين وبيان مبادئه وأصوله ومناهجه ولكنهم كانوا إلى ذلك أدباء تغلغل الأدب في صميمهم، وكون ناحية من نواحي شخصيتهم فكانوا إلى جانب تلك الغاية الأولى التي أطبعوا أنفسهم عليها يشاركون في الحياة الأدبية الحجازية فكان منهم الشاعر الذي يقول الشعر الجيد الرائع يعبر به عن نوازعه وخنجات نفسه كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود. وعروة بن أذينة ومنهم الذواقة الذي يروي الشعر وينشده ويستمع إلى إنشاده ويجيد التمييز بينه كعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب.

وطبيعي أن يكون للنقد الأدبي مثل هذه المجالس مجال، فيتحدث فيها عن الشعر، ويوازن بين شعر وآخر ويفاضل بين هذا الشاعر وذاك إلى غير ذلك من ألوان النشاط النقدي.

وساهمت المرأة في النشاط الأدبي في بيئة الحجاز وشاركت في حركة النقد، كالذي نعرفه عن سكينة بنت الحسين بن علي وعقيلة بنت عقيل بن أبي طالب. وكلتاهما كانت دارها ناديا من الأندية الأدبية في الحجاز، يجتمع فيها الشعراء وأهل الأدب ورجال الفن ويجري فيه حديث الشعر ونقده ولدينا طائفة من الآثار النقدية المنسوبة اليهما تكشف عن دقة في الإدراك وسلامة في الذوق. ومن ذلك ما حكى أن سكينة انشدت قول الحارث بن خالد:

ففرعنا من سَبْعٍ وقد جهدت أحشائهن ، موائل الخمر

فقالت: أحسن عندكم ما قال؟ قالوا: نعم! قالت: وما حسنه؟ فوالله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشائها (الاغاني جـ ٣ ص ٣٢٧) إلى غير ذلك من أخبار تلك المجالس الأدبية التي يذكر أن الشعراء كانوا يتحاكمون فيها إليها (انظر مثلا الأغاني جـ ١٩ ص٣٧ / العقد جـ ٥ ص ٣٧٣ / الموشح صفحات ١٥٩ ، ١٦١، ١٦٩ / (وانظر في الموشح خبرا عن عقيلة بنت عقيع ص ١٦٠).

وهناك شئ أخر كانت تتيحه مدينتا الحجاز: مكـة والمدينـة للحيـاة الأدبيـة عامـة، ولحركة النقد الأدبي خاصة، ذلك هو تلك الخصوصية التي اختصت بها هاتان المدينتان مـن شد الرحال اليهما ووفود المسلمين عليها لأداء فريضة الحج، وزيارة قـبر الرسـول صلـى الله عليه وسلم وبينهم الشعراء وأهل الأدب من هنـا وهنـاك يجمعهـم الموسـم فيعقـدون هنـالك مجالسهم وقد اجتمع اليهم شعراء الحجاز وطلاب الأدب فيه. فيتناشـدون الشـعر ويفيضـون في حديثه ويفاضلون بينه ويوازنون بين شعراء الحجاز ويلاحظـون مـا يمتـاز بـه هـؤلاء عـن أولئك من خصائص في معاني شعرهم وأساليب صياغتهم ويكـون مـن ذلـك مـادة خصبـة للنقد الأدبي. في هذه المجالس التي تنقل الينا كتب الأدب بعض أخبارها نجد شعراء العـراق كجرير والفرزدق، كما نجد شعراء البادية كالنصيب وذى الرمة. وحين كان جرير يذهـب إلى المدينة مثلا كان طلاب الأدب والشعر يتسابقون إلى الجلوس والاستماع منه والآخذ عنه كما كان من شعراء الحجاز من يقصد اليه ليتحداه، ويدخل مراءيا في بعض ألوان الخصومة وكذلك تروى أخبار عن الفرزدق كتلك التي من جريـر ممـا يدلنـا علـى مـا أتاحـه الحجـاز ومجالسه للشعر ونقده.

وقد كانت مجالس الشعراء في أكثر الأمر مجـالس نقـد أدبـي وكذلـك كـان النقـد الأدبي في أول أمره من صناعة الشعراء. كان هذا عند اليونـان كمـا يقـرره مؤرخـو النقـد عندهم وكذلك كان شأنه عند العرب كما رأينا فلا جرم كانت هـذه المجالس التي يجتمع فيها الشعر، بعضهم إلى بعض في الحجاز مما نشط النقد الأدبي ولاسيما حين يكـون هـؤلاء الشعراء متنافسين في المنزلة الشعرية كالذى رأينا شيئا من الإشـارة إليـه بـين عمـر بـن أبـي ربيعة والحارث بن خالد فقد كان أكثر من خصومة حولهمـا باعثـا قويـا مـن بواعـث النقـد الأدبي ومثل هذا ما كان بين عمر وجميل بن معمر.

القسم الثالث

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى

النقد الأدبي والتاريخ الأدبي

الجمحي وابن قتيبة

إذا كان النقد قد أخذ يستخدم علوم اللغة المختلفة لتوضيح أحكامه وتعليلها. وذلك عندما تكونت تلك العلوم، فهو بدوره قد اتخذ أساسًا من أسس التاريخ الأدبي، بل كان أساسه الجوهري في أول كتاب ألف في تاريخ الأدب هو طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي (م ٢٣٢ هـ) وذلك لما هو واضح في منهج تبويبه للأدب من اتخاذ أحكام النقد فيصلاً في النهاية.

قسم ابن سلام الشعراء تبعًا للمبادئ الآتية :

١- الزمان : فجعل منهم مجموعتين، جاهليين وإسلاميين، وهذا تقسيم لم يكن منه مفر، لأن الأمر لا يقف عند مجرد سير الزمن، بل يعدوه إلى مضمونه، وقد جاء الإسلام فأحدث في حياة العرب ثورة روحية ومادية كانت لها آثارها البعيدة في كل مظاهر نشاطهم -إذن فاتخاذ الزمن أساسًا للتقسيم أمر لم يكن منه بد، بل إن في ألفاظ ابن سلام نفسه ما يدل على أنه لم يقصد إلى هذا التقسيم و لم يفكر فيه، بل أملته طبائع الأشياء، وإنما كان تفكيره منصرفًا إلى توزيع شعراء العهدين في طبقات تبعًا لجودة شعرهم و كثرته (ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام المخضرمين، فنزلناهم منازلهم واجتمعنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء، وقد اختلف الرواة فيهم فنظر قوم من أهل الشعر والنفاذ في كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلف الرواة وقالوا بآرائهم وقالت العشائر بأهوائها، فلا يقنع الناس في ذلك إلا الرواية عمن تقدم [طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٦] وإذن فقد كان هناك نقد سابق لمحاولة تأريخ الأدب وتبويبه وتفصيله وقد اتخذ هذا النقد فيصلاً وبخاصة عندما (قالت العشائر بأهوائها).

٢- المكان : وذلك لأن ابن سلام عندما وزع الشعراء بين الجاهلية والإسلام وقسم هؤلاء وأولئك إلى طبقات، نظر فوجد أن هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة، بل ظلوا[1] متصلين كل بقريته وهم ما يمكن أن نسميهم (بالشعراء الإقليميين)

---

[1] من النقد المنهجي للدكتور مندور.

فجمعهم فى باب شعراء القرى -مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين- وهذه الظاهرة من مخلفات الجاهلية، روح الإقليم والقبيلة التى لم يستطع الإسلام أن يمحوها فظلت مصدرًا للفتن والقلاقل فى تاريخ العرب السياسى وللمفارقات والتلوين فى تاريخهم الأدبى : ومع هذا فابن سلام يفاضل بين شعراء كل قرية فيجعل من حسان أشعر المدنيين [طبقات الشعراء لابن سلام، ص ٨٤] وأن عبد الله بن الزبعرى أبرع المكيين [طبقات الشعراء لابن سلام، ص ٩٩] .... إلخ.

٣- **الفن الأدبى** : فمن الشعراء الأصليين من انفرد بفن بذاته، وهم لم يقصدوا إلى ذلك الفن، بل سيقوا إليه بدوافع من حياتهم، وهؤلاء هم أصحاب المراثى. متمم بن نويرة والخنساء وكعب بن سعد الغنوى.

ولقد فطن ابن سلام بذوقه الأدبى السليم إلى أن هؤلاء الشعراء ليسوا كغيرهم ممن صدروا عن فن، بل هم إنسانيون، قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد فلم تأت مراثيهم مدحًا للميت بل عبارة عن ألمهم هم لفقد ذويهم حتى أن المديح نفسه ليلونه الأسى، ولذلك أفردهم فيما نظن بباب خاص [طبقات الشعراء لابن سلام، ص ٧٨ وما بعدها] وإن لم يذكر السبب. ثم إنه لم يكتف بهذا، بل فاضل بينهم كما فاضل بين شعراء القرى فقال (والمفضل عندنا متمم بن نويرة).

وإذن فابن سلام، وإن يكن قد أملت عليه طبائع الأشياء اتخاذ الزمان والمكان أساسين لمحاولة وضع تاريخ للشعر العربى، فإن هذين الفصلين لم يكونا عنده إلا إطارين كبيرين أدخل فيهما تقسيمه للشعراء على أساس من النقد الأدبى.

ولو أننا أضفنا إلى فكرة الطبقات فكرته عن الفن الأدبى، كما تظهر فى إفراده أصحاب المراثى بباب خاص، لوضح لدينا بما لا يترك مجالاً للشك أن النقد الأدبى سابق للتاريخ الأدبى عند العرب وأساس له.

وهكذا تنتهى بنا النظرة التاريخية إلى التمييز بين النقد الأدبى، وهذه حقيقة تؤيدها الدراسات الأدبية الحديثة، كما يؤيدها التاريخ. وهى من مقتضيات كل منهج صحيح.

يظهر أثر حركة تدوين اللغة والادب فى القرن الثانى الهجرى فى أول كتاب النقد العربى وهو كتاب طبقات الشعراء لابن سلام، ومن هنا تجئ أهمية هذا الكتاب الى ما سيبدو لنا بعد قليل من نواح أخرى من الأهمية لهذا الكتاب حين نستعرض سويا النواحى التى طرقها والتفكير النقدى الذى بثه فى ثنايا الكتاب. أما مؤلف طبقات الشعراء فهو محمد بن سلام الجمحى البصرى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ وبعد، فكما تصور الكتب المعتمدة من الإخباريين والرواة ومن جملة أهل الأدب أخذ ابن سلام صاحب الطبقات عن حماد ابن سلمة وغيره وتتلمذ للخليل وروى عنه الامام أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب وأبو حاتم والرياشى والمازنى وغيرهم، زيد بهذا أن نقول إن دائرة معارف الرجل كانت واسعة بين أدب ورواية وأخبار ونحو حديث، نريد أن نقول إلى جانب هذا إنه كان ثقة وهى صفة لها أهميتها فى رواة ذلك العصر لهذا وجدنا كتب الأدب كالأغانى والأمالى والمزهر وجدناها تنقل عنه كثيرا وتستشهد بأقواله وترجع إليه فى تعيين طبقات كثير من الشعراء. وللرجل كتب ليست بين أيدينا الآن يذكرون منها كتاب (ملح الاخبار) و (بيوتات العرب) وكتاب (طبقات الشعراء الجاهليين) وطبقات الشعراء الإسلاميين والذى يعنينا هنا كتابه فى طبقات الشعراء. والنسخة الموجودة بين أيدينا منه تجمع طبقات الشعراء الجاهليين، وطبقات الشعراء الإسلاميين. ومن الجائز أن تكون هذه النسخة قد جمعت الكتابين اللذين أشرنا إليهما.

عرض سريع :

١) وميزة كتاب ابن سلام أنه أخذ آراء من سبقه وأفكارهم فى النقد ونظمها تنظيما علميا. لقد رأينا فيما درسنا من تاريخ النقد أن النقد كان مستندا إلى الذوق وحده فى العصر الجاهلى والأموى فلما جاء العصر العباسى تحول النقد من اعتماد على الذوق إلى علم بقواعد وأصول ولهذا نجد ابن سلام يفتتح كتابه ببيان ما ينبغى للناقد من ثقافة فيقول (وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات) ... ويبين أن كثرة مدارسة الشعر هى التى تعين على معرفة هذه القواعد وإدراك قواعدها ومقاييسها.

٢) ويتعرض ابن سلام فى كتابه لمسألة خطيرة فى الأدب العربى وهى مسألة الشك فى الشعر الجاهلى، وهل الأشعار المنسوبة لأقوام مثل عاد وثمود بل وآدم صحيحة؟ والكلام فى الشعر الموضوع كان طبيعيا جدا فى عصر ابن سلام فى عصر كادت تنتهى فيه الرواية وأقبل فيه العلماء على تدوين الشعر ليسلموه إلى الأجيال المقبلة.

٣) ثم يتناول طبقات الشعراء وفكرتها وليدة التطور النقدى فى القرن الأول الهجرى حين بدأ الناس يفاضلون بين الشعراء ووجد جرير والفرزدق والأخطل وتعصب كل شاعر قبيلته ومجموعة من عشاق فنه.

وفى تقسيمه للشعراء إلى طبقات كثيرا ما يذكر رأيه ورأى من سبقه فى كل شاعر فيما أحسن وفيما لم يحسن، ويوازن بينهم كان يقول مثلا (كان لكثير فى التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه فى النسيب، والشماخ بن ضرار كان شديد متون الشعر، أشد أسرا فى الكلام من لبيد وفيه كزازة ولبيد أسهل منه منطقا).

٤) وقد تعرض للشعراء الجاهليين فجعلهم طبقات ملاحظا كثرة شعر الشاعر ومعالجته للفنون المختلفة مع الجودة الفنية مع ذكر أهم قصائده وقد يصدر عنه فى بعض الإشارات فى وصف فن الشاعر، وحين عرض للشعراء الإسلاميين صنع معهم صنيعه بالجاهليين، ولكنه لم يفتح للعباسيين باباً فى كتابه جاريا مع ذوق اللغويين المحافظ الذى لم يعتد بالشعر المحدث. ونلحظ فى طبقات الشعراء جاهليين وإسلاميين أنه لم يذكر فيهما غير الممتازين من الشعراء.

٥) لابن سلام نظرات فنية جديدة من أهمها:

أ- إفراده باباً خاصا لشعراء أصليين انفردوا بفن بذاته وقصدوا إليه بدافع ذاتى وهؤلاء هم أصحاب المراثى " متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوى ". لقد فطن ابن سلام بذوقه الأدبى السليم إلى أن هؤلاء الشعراء إنسانيون قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد، فجاءت مراثيهم ليست مدحا للميت فحسب ولكن ألما مخلصاً وأسى صادقاً على ذويهم الذين فقدوا.

ب- فطنته لبعض المؤثرات في الشعر من أمثلتها البيئة بالحالة الاجتماعية فهو يعلل سهولة شعر عدى بأنه كان يسكن الحيرة ومركز الريف فكان لذلك لين اللسان سهل المنطق وكتعليله قلة الشعراء بالطائف فإن الشعر إنما يكثر بالحروب التى بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج أو بين قوم يغيرون ويغار عليهم ولم يكن من ذلك شئ في ثقيف.

صور النقد العربى منذ نشأته حتى أوائل القرن الثالث الهجرى
كما رسمها ابن سلام فى طبقاته

النقد منذ أواخر العصر الجاهلى حتى صدر الإسلام:

كان يقول الشعر مهتاجا بما حوله ويقوله في وصف الحبيبة، والوقوف عند طللها الدارس، وفي وصف الصحراء، ومشاهدها، وفى الفخر وفى الهجاء وفى الرثاء، فالشاعر منفعل حين يقول وكذلك هو منفعل حين ينقد والعربى لدقة إحساسه ورقته يهتز للكلم البليغ ويطرب إعجابا ولكنه حين ينقد لايبسط سر إعجابه أو استهانه للكلام، وهو إنْ علل شيئا فإنما تعليله فطرى ساذج بسيط فما كان يرى الشعر الا صياغة ومعنى فحسب ونحن ننتظر أن يكون النقد أكثر ما يكون فى المعنى لأنه من خيال الشاعر من روحه وفكره أما الصياغة، فلأن العربى يقول عن طبع لا عن تكلف، وعن سليقة وفطرة لا عن تصنع أو تعلم، فهو قل أن ينبه لخطأ فى معنى. فحين يقال أن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهلين لم يقو منها ولا من أشباهها أحد إلا النابغة فى قوله: أمن آل مية أو مغتنى: فى بيتين.[1]

حين يقال هذا نرى أن مثل هذا التنبيه لخطأ فى الصياغة نادر ومثل هذا النقد بعد قائما على وقع الشعر فى السمع، على الإحساس بنشاز موسيقى على القلق فى انسجام القافية وتناسبها. ويقول ابن سلام عن مهلهل: زعمت العرب أنه كان يتكثر ويدعى فى قوله بأكثر من فعله[2] فهذا نقد لمعان أفسدت الشعر بتخطيها للمعقول. ثم إنْ العرب كانت تستجيد القصيدة فتسميها سمطا أو يتيمة أو كما سميت بعد معلقة فهذه المعلقات على اختلاف فى تسميتها إنما هى نوع من النقد فقصائد بعينها أفردت وامتازت على سائر الشعر لما فيها من عناصر الجودة، أعجب بها العربى و لم يفصح عن سر هذا الإعجاب بها ولكنه على كل حال أعجب بها. لأنها من الكلم البليغ ثم لأنه يرى نفسه ومجتمعه بما يقوم عليه من قيم مصورا أصدق تصوير وأجمله فى هذه المعلقة أو السمط أو اليتيمة. فطرفة أشعر الناس واحدة وهى قوله:

---

[1] الطبقات ص١٩.

[2] ص١٣.

لخولة أطلال ببرقة ثهمد وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد

ويليها أخرى مثلها وهي:

أصحـــوت اليوم أم شاقت هر ومن الحب جنــون مستمـــر[1]

وعلقمة الفحل له ثلاث روائع جياد، الأولى:

ذهبت من الهجران كل مذهب ولم يــك حقا كل هذا التجنب

والثانية : طحا بك قلب في الحسان طروب

والثالثة : لعل ما علمت وما استودعت مكتوم[2].

وعدى بن زيد له أربعة قصائد غرر روائع مبرزات وله بعدهن شعر حسن أولهن:

أرواح مــــودع أم بـــكـــور أنـــت فاعلـــم لأى حال تصير[3]

والطبقة السادسة من الجاهلين أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة فقصيدة عمـــرو بن كلثوم:

ألا هبى بصحنك فأصبحينا

والحارث بن حمزة قصيدته آذنتا ببينها أسماء

وعنترة بن شداد قصيدته:

يـــا دار عبلة بالجـواء تكلم وعـــم صباحا دار عبلة واسـلم

وسويد بن أبي كاهل اليشكرى قصيدته:

بســطت رابعـــة الحبل لنا فوصلنـــا الحبل منها ما انقطع

وله شعر كثير ولكن برزت هذه على شعره[4]. ثم نجد بعد إن الشعر فى أواخر العصر العصر الجاهلى صار – مع النحوز – فلا يكاد يدرس ويلتقـى فالحطيئة كـان راويـة

---

[1] الطبقات ص٣٠.

[2] ص٣١

[3] ص٣١

[4] الطبقات ص٣٤، ص٣٥

آل زهير[1]. ويقول ابن سلام ولم يزل فى ولد زهير شعر ولم يتصل فى ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير[2]. ومهلهل كان خال امرئ القيس[3] وكان للتلمس خال طرفة بن العبد والمسيب بن علس خال الأعشى[4]. والشاعر كما نرى كان ينشأ فى حجر شاعر من ذوى قرباه يلتقى عنه أصول الشعر ورسومه ثم تظهر من بعد ذلك خصائص من أخذ عنه فى شعره. ولقد يروى أن بشامة حين حضرته الوفاة ولم يكن له ولد: قسم ماله بين أخوته وبنى أخيه وأقاربه فقال له زهير بن أبى سلمى -وهو ابن أخته- ماذا قسمت لى يا خالاه فقال: أفضل من ذلك كله. قال: ما هو؟: قال شعرى فيزعم من يزعم أن زهيرا جاءه الشعر من قبل بشامة[5] فأستاذ زهير إذن بشامة وهو قد ورث خصائصه فى شعره وورثها لمدرسته بعده كعب والحطيئة وغيرهما ممن تتلمذ له على مر العصور.

النقد فى صدر الإسلام :

النقد فى صدر الإسلام استمرار للنقد الجاهلى فهو نقد فطرى كان عصر البعثة حافلا بالشعر فياضا به فما كانت المعركة بين الرسول والمشركين معركة سنان فحسب. وإنما هى أيضا معركة أسلحتها البيان فشعراء المشركين كانوا يهجون النبى وأصحابه فكان شعراء النبى وأنصاره يناقضون هجاءهم وكان النبى عليه صلوات الله وسلامه يسمع لشعر شعرائه ويعجب به وينزلهم أعز مكانة ويدعو لهم. فعبد الله بن رواحة يقول له النبى معجبا بشعره: كيف تقول الشعر إذ قلت؟ ثم صلوات الله عليه يقول: عليك بالمشركين. فلما يندفع ابن رواحة فى الإنشاد ويجئ البيت.

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصرا كالذى نصره

---

[1] الطبقات ص٣١

[2] ص٢٣

[3] ص١٣

[4] ص٣٦

[5] ص٣٦

ويقبل الرسول على عبد الله بوجهه مبتسما ثم يقول: وإياك فثبت الله[1] ولقد كسا النبى كعب بن مالك بردته حين لجأ اليه مؤمنا تائبا ومدحه بالقصيدة:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم أثرها لم يشف مكبول[2]

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك: أترى الله نسى قولك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليغلبن مغالب الغلاب[3]

وكانت قريش تجزع الجزع كله لشعر حسان لما فيه من لذع ولما فيه من صفات يسندها اليهم فتحط من مروءتهم كعرب يتمدحون بالشرف والمروءة. ولعله مما يبين عن قدر لذع حسان فى هجائه لقريش قول ابن سلام فى كلامه عن حسان (وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لما تعاضهت قريش وأستيت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به).

وهكذا نرى حسانا ينفرد بين شعراء النبى ويمتاز عليهم ترى فيه قريش عدوها الخصيم ويرى فيه المسلمون حامى أعراضهم وبطلهم المنافح عنهم بقصيده، وهو إذن باعتراف المسلمين والمشركين أعظم شعراء مكة والمدينة فى السنوات العشر التى أقامها النبى فى المدينة. ثم إن القرآن الكريم تحدى العرب ببلاغة نظمه وكان عجز المشركين عن الإتيان بمثله فضلا عن الطعن عليه ونقده إقرارا بأن هناك كلاما أبلغ من كلامهم وإن يكن من جنس هذا الكلام. فنرى مثلا لبيد يقول:" قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران "[4] هذا يصور نظرة العربى إلى إعجاز القرآن وحيرته أمام سامى بلاغته. ويظل النقدفى عهد الخلفاء الراشدين حتى أواخر القرن الأول يظل فطريا لا يعدو مآخذ وملحوظات يفطن إليها وأن يكن النقد قد جنح شيئا الى الدقة فحاول تحديد بعض خصائص الصياغة والمعانى. فيروى أن عمر ابن الخطاب قال.

أى شعرائكم يقول:

---

[1] الطبقات ص ٥٤، ٥٥

[2] ص٢٠

[3] الطبقات ص٥٤

[4] الطبقات ص٣٠

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

قالوا النابغة. قال: هو أشعرهم[1] فهذا النقد صورة من النقد فى طفولته فالنابغة أشعر الشعراء وما عناصر الجودة فى البيت أو ما وجوه الجمال الفنى فيه؟ هذا ما لا ينطلق به نقد هذا العصر. وإنْ كنا من بعد نرى صورة أخرى لنقد يعلل شيئا. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لى عمر. أنشدنى لأشعر شعرائكم. قلت من هو يا أمير المؤمنين. قال زهير، كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح لرجل الا بما فيه[2] . فهذا نقد يختلف عن سابقه فالأول فطرى والثانى نضج بعض الشئ ثم بعد الحكم واحد ففى هذا دلالة على أن العربى حين ينقد إنما ينقد لاحساسه الوقتى بجمال الشعر. النقد الثانى لعمر رضى الله عنه، فقد بلغ على كل حال من الاتقان حظا ما فزهير أشعر الشعراء لخصائص فى الصياغة فى المعنى ففى الصياغة لا تعقيد فى اللفظ ولا غريب حوشى وفى المعنى لا إحالة ولا مبالغة، نقد ما يزال ساذجا ولكنه أدق شيئا من ذى قبل. صورة أخرى من نقد هذا العصر، ذم الحطيئة الزبرقان فاستعدى عليه الزبرقان عمر فأقدمه فقال للزبرقان: ما قال فقال:

قال لى: دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر لحسان: ما تقول، أهجاه؟- وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ولكنه أراد الحجة على حطيئة. قال: ذرق عليه[3] . فلفظة حسان (ذرق) حكم بما فى قول الحطيئة من لذع ومرارة الكلمة (ذرق) الحكم بها لقدر البيت قاسية هى أيضا قسوته. ثم كان نوع بعينه من الشعر مفضلا فى هذا العصر وهو الشعر الأخلاقى خاصة ونحن فى عهد رجال الدين الإسلامى الأوائل وهم ما هم ورعا وتقوى وفضلا. فعبد بنى الحسحاس حين ينشد عمر بن الخطاب:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

---

[1] ص١٧

[2] الطبقات ص١٨

[3] الطبقات ص٢٥

يقول: لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه، فلما قال:

فبتنا وسادانا إلى علجانة ... وحقف تهاداه الرياح تهاديا

وهبت شمالا آخر الليل مرة ... ولا ثوب إلا درعها وردائيا

فما زال بردى طيبا من ثيابها ... إلى الحول حتى أنهج البرد باليا

فقال له عمر: ويلك انك مقتول[1]

النقد منذ أواخر القرن الأول إلى الثالث، نقد الأدباء:

فريقان من نقدة الأدب العربي عاشوا جنبا إلى جنب منذ أواخر القرن الأول الهجرى. الأدباء واللغويين، فأما الأدباء فهم الشعراء والرؤساء والخلفاء ويتميز نقدهم بأنه فطرى قائم على الطبع والسليقة لا على التحليل العميق والتعليل المنطقى، فهم آخر مراحل النقد الفطرى الذى لا يتأثر بروح العلم غير أن هذا النقد يتميز عن سابقه بأن عباراته قد دقت وأن الناقد يحس إحساسا متميزا جليا بما للشعر من صفات ويعلل ما استطاع تعليلا واضحا لا غموض فيه وما زال الكلام فى الصياغة قليل فى هذا العصر لأن صياغة الشعر فى جملتها لا تزال سليقة وفطرة ولكن الذى كان على شئ من الكثرة فهو الكلام فى المعانى والخطأ الذى يجئ من قبلها. فهناك نقد يستحسن أبياتا فى معنى خاص مثل قول الأسيدى من بنى سلامة: بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح ونسيب وهجاء وفى كلها غلب جرير فى قوله الفخر قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا

وفى المديح قوله:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وفى النسيب قوله:

إن العيون التى فى طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا[2]

---

[1] طبقات الشعراء ص٤٣.

[2] طبقات الشعراء ص٨٧.

ومثل عبيدة بن هلال - من الخوارج - الذى احتكم اليه رجلان تنازعا فى عسكر المهلب فى جرير والفرزدق فقال: من يقول؟:

وطوى القياد مع الطراد طي التجار يحضر موت برودا

قالا: جرير. قال: أشعرها[1]. صورة أخرى من نقد هذا العصر يرسمها ابن سلام. دخل كثير على عبد الملك فأنشده مدحته وفيها.

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها

فقال له عبد الملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معدى كرب.

وإذا تجئ كتيبة ملمومـة شهباء يخشى الذائدون نهالها

كـنت المقدم غير لابس جنة بالسيـف تضرب معلما أبطالها

فقال يا أمير المؤمنين وصفه بالحذق ووصفك بالحزم[2]. فهنا نقد موازنات يعنى بالمعنى وصحته.

صورة ثالثة من هذا النقد هى التنبيه على تبريز شاعر من الشعراء فى موضوع بعينه أو فى موضوعات بعينها. سئل الأخطل عن جرير بالكوفة فقال: دعوا جريرا أخزاه الله فإنه كان بلاء على من صب عليه وذكر من قوله:

ما فـاد من عرب الى جوادهم إلا تركت جوادهم محسورا

أبقت مراقضه الرهان مجريا عند المواطن يرق التيسيرا[3]

فهذا حكم للأخطل بجبروت جرير الهجاء وقسوته فى هجائه. وأنشد رجل للفرزدق بيتين من قصيدة قالها جرير فى عمر بن لجأ التيمى:

لئن عمرت يتم زمانا بغـرة لقد حدبت حـداء عصبصبا

فـلا يضغمن الليث عكلا بغرة وعكل يشمون الفريس المنيبا

---

(1) طبقات الشعراء ص٨٨.

(2) ص١٢٣.

(3) ص٨٦.

ثم كان لهؤلاء الأدباء نقد فى الشعراء الجاهلين وشعرهم، سأل سائل الفرزدق: من أشعر الناس يا أبا فراس قال: ذو القروح. يعنى امرأ القيس قال حين يقول ماذا؟ قال حين يقول:

وقاهم جدهم ببنى أبيهم   وبالأشقين ما كان العقاب[1]

وجرير يقول: شاعر الجاهلية زهير[2]. ويقول الفرزدق عن النابغة بنى جعده: مثله مثل صاحب الخلقان يرى عنده ثوب عصب وثوب خز إلى جنبه سمل - كساء[3] فهو يريد ليدل على اختلاف شعره واضطرابه. ثم هناك صورة أخرى هى نقد الشعور عن وجد وعن شعور حقيقى ومن ثم لا نجد فى نقد هذا العصر إلا تفرقة بين ما قوى منها وما ضعف أما التصنع الذى ينبعث عن غير قرارة فى النفس فلا يوجد فى هذا العصر. يقول الفرزدق عن نفسه وعن جرير: إنى وإياه لنغترف من بحر واحد وتضطرب دلاؤه عند طول النهر[4] فهو هنا ينبه إلى النفس الشعرى واختلاف قدرة كل منهما على طوله وقصره. وجرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر[5] والأخطل يقول فى شعر كثير وقد سأله رأيه عبد الملك: أرى شعرا حجازيا مقرورا لو ضغطه برد الشام لاضمحل[6]. فهذه انتباهه إلى برود فى العاطفة تكشف عنها الصياغة والمعنى. بل وأبلغ من هذا كله فى ترقى النقد أن من الشعراء من كان يعرف ما يتميز به فكر وخيال شاعر آخر فضلا عن أسلوبه ولا مراء أن التغلغل إلى روح الشاعر والحياة مع أفكاره وأساليبه دقة فى النقد وعمق.

قال جرير بالكوفة:

لقد قادنى من حب هاوية الهوى   وما كنت ألقى للحبيبة أقودا

أحب ثرى نجد وبالنور حاجة   فغار الهوى يا عبد قيس وأنجدا

---

[1] طبقات الشعراء ص٨٦.

[2] ص١٨.

[3] ص٢٦.

[4] ص ٨٧

[5] ص١٠٧، ص١١٠

[6] ص١٢٣

أقـول له يا عبد قيس صبابـة بأى ثرى مسـتوقد النار أوقـدا

فقال أراها أرثت بوقودهـا بحيث استفاض الجزع شيحا وفردا

فأعجبت الناس وتناشدوها فقال جرير: أعجبتكم هذه الأبيات. قالوا نعـم. قـال وكأنكم باللعين قال:

أعيـد نظرا يا عبد قيس فإنما أضـاء لك النار الحجاز المقيدا

فلم يلبثوا أن جاءهم في قول الفرزدق هذا البيت وبعده:

جمارا بمروت السخامة قاربت وظيفيه حول البيت حتى تـرددا

كلبية لم يجعل الله وجهها كريما ولم يسنح بها الطير أسعدا

فتناشدها الناس فقال الفرزدق وكأنكم بابن المراغة قد قال:

ومـا عبـث من نـار ذليلة وأشهدت من سوآت جعثن مشهدا[1]

وحين رفد جرير هشاما أبياتا في هجاء ذى الرمة لميلـه على جرير مع الفرزدق فلما بلغت الأبيات ذا الرمة قال: والله ما هذا بكلام هشام ولكنه كـلام ابن الأتـان وفـى رواية (هو والله شعر حنظلى عذرى)[2] فمثل هذا النقـد فطنة إلى صور الأسـاليب عنـد شاعر معين وفطنة أيضا إلى روحه وما يضطرب فيهـا مـن أهـواء وميـول وافكـار. وكـان للشعراء كذلك نصيب كبير من عناية النقاد إذ وقفوا وقوفا حسنا على كثير مـن خصـائص كبار الشعراء الإسلاميين وفنونهم ومذاهبهم الأدبية وكان لذلك الوقوف أثره فى معرفتهـم الأغراض الشعرية التى يجيد فيهـا الشـاعر ويجلى فضـلا عـن وقوفهـم على خصـائص فـى الصياغة والمعاني. فلقد أسلفنا الإشارة إلى شـهادة الأخطـل والفـرزدق بـاقتدار جريـر فـى الهجاء. وجرير يقول: الفرزدق نبغة الشعر والأخطل يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر ويقول عن نفسه أنه نحر الشعر نحرا[3] . وكان ابن أبـى حفصـة يعجبـه مذهـب كثـير فـى

---

[1] ص٩٣، ص٩٤ من طبقات الشعراء

[2] طبقات الشعراء ص١٢٧.

[3] ص١٨.

المديح جدا ويقول كان يستقصى المديح[1] . وإذ عرف النقاد خصائص الشعراء وازنوا بين شاعرين من مذهب واحد أو يجمعهما فن شعرى واحد أو عدة فنون. ووازنوا بين نوعين متميزين من القول هما الرجز والقصيد. يقول ابن سلام: سألت بشارا العقيلى عن الثلاثة (يقصد جريرا والفرزدق والأخطل وثلاثتهم هجاءون) فقال: لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه. فقلت: فجرير والفرزدق: قال: كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق وفضل جريرا عليه[2] . والنقاد بعد يرون أن الرجز دون القصيد له؟ لأن الرجز فى الجاهلية كان أبياتا قليلة يقولها العربى فى الأغراض اليسيرة ولما يجئ الأغلب العجلى - من مخضرمى الجاهلية والإسلام - يجعل الرجز كالقصيدة بدأً وطولاً وأغراضاً ولكن يبقى مع ذلك لا يقال إلا فى الخطرات الخفيفة فلهذا ثم لقصوره عن القيام بحاجات المجتمع آنئذ من فخر وهجاء ولسأم الناس من ناظم لا يتجاوز فى قوله أعاريض معين بعينها هذا كله جعل الرجاز يظنون أنهم أدنى من الشعراء مكانة ومن ثم رأى الشعراء أنهم ليسوا أندادًا للرجاز وأنهم أرقى مكانة فهشام المرئى يهاجى ذا الرمة والأول رجاز والثانى مقصد - ولكن ذا الرمة يستعليه ويقول جرير لهشام المرئى وقد لقيه: غلبك العبد - يعنى ذا الرمة - قال: فما أصنع يا أبا حزرة وأنا راجز وهو يقصد والرجز لا يقوم للقصيد فى الهجاء فلو رفدتنى[3] .

وهناك نوع آخر من الكلام على الشعراء لا يتصدى لأشعارهم أو أغراضهم أو لطرازهم فى القول بل لمنازلهم وأقدارهم وأكثر هذا النحو كان فى جرير والفرزدق والأخطل اذا حس الناس بهم دون غيرهم من الشعراء لانهم أكثر الشعراء شعرا وأصبرهم وأجلدهم على خصوبة ثم أفصحهم عن روح العصر فأحس النقاد بفطرتهم أن الثلاثة طبقة لايدانيهم غيرهم أما أيهم المفضل فقد اختلفوا فيه ثم لم يتجاوزوا هذه الطبقة إلى طبقات إسلامية أو جاهلية أخرى وإنما هذا شئ آخر نهض به اللغويون وأكمله ابن سلام بعد.

---

[1] ص١٢٣.

[2] ص٨٦.

[3] طبقات الشعراء ص١٢٧.

ومهما يكن من شئ فقد كان نقد النقاد آنئذ غير بعيد عن الهوى أو منحرف عن الميل فقد كان للعصبية أثرها فى توجيه النقاد فربيعة تتعصب للأخطل[1] وذو الرمة والراعى والبعيث جماعة مع الفرزدق على جرير ثم أن خوف الناس من لسان جرير أو الفرزدق كان يصرفهم عن التصريح بتفضيل واحد منها على الآخر. كانوا يرون أن الحكم على أحدهما مشئوما يجر الى السخط. فالأخطل وهو ما هو مكانة شعر يقول وقد أغراه بشر بن مروان بالحكم للفرزدق دون جرير قال:(هذا حكم مشئوم)[2] لذا فقد كان من الشعراء من إذا سئل عن أحدهما جاء بكلام غير محدود وأثنى عليهما كنيهما. مثل مروان بن أبى حفصه يقول مثنيا على المثلث جرير والفرزدق والأخطل:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما ... حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا فأمض أخطل تغلب ... وحوى اللهى بمديحه المشهور

كل الثلاثة قد أجاد فمدحه ... وهجاؤه قد سار كل مسير[3]

ثم نجد بعد أن النقاد غير مجمعين على واحد من ثلاثة لا لعصبية أو خوفا من سخط ولكن للأدلة القائمة التى يوردها أنصار كل واحد. يقول يونس بن حبيب: ما شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق وأجمع أهل المجلس على أحدهما[4] .

النقد منذ أواخر القرن الأول إلى أوائل القرن الثالث: نقد اللغويين:

كان اللغويون كالذين من قبلهم يستحسنون أبياتا فى معنى خاص يقول ابن سلام: سمعت يونس يتمثل بهذا البيت لعلقمة الفحل:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور

---

[1] ص٨٦.

[2] طبقات الشعراء ص١٠٩.

[3] ص٧٨.

[4] ص٧٥.

فقال: لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه أو مثل هذه[1]. وفى هذا العصر نرى النقاد اللغويين تعمقوا فى فهم الشعر وتذوقه وفى معرفة مميزات وخصائص وبخاصة فى الصياغة والأعاريض والشعور والمعانى ثم وقفوا على ما لكل شاعر من خصائص وبخاصة كبار الشعراء فتنبهوا إلى مكانته الشعرية وما يوفق إليه من قول وما يطرق من أغراض وما ينظم فيه من أعاريض وما يجنح إليه من رقة أو جزالة أو حوشية ثم عرفوا أهمية الإيجاز فى البيت الواحد وفى المعانى الجزلة وأدركوا ما لطول النفس الشعرى من أثر فى غزارة المعانى. فجرير أشعر عامة والفرزدق أشعر خاصة[2] . والبعيث شاعر فاخر حر اللفظ[3] والقطامى شاعر فحل رقيق الحواشى حلو الشعر والأخطل أبعد منه ذكرا أو أمتن شعرا[4] . وابن أبى اسحاق يقول: كثير أشعر أهل الإسلام [5] وكان أهل الحجاز يقدمونه على طبقته أى مقدم على البعيث والقطامى وذى الرمة. ويقول ابن سلام عن كثير هو شاعر فحل ولكنه منقوص حظه بالعراق وكان لكثير فى التشبيب نصيب وافر وجميل مقدم عليه فيه النسيب وله فى فنون الشعر ما ليس لجميل وكان جميل صادق الصبابة وكان كثير يقول ولم يكن عاشقا وكان راوية جميل[6]. وذو الرمة رواية راعى الإبل لم يكن له حظ فى الهجاء وكان مغنيا يقول فيه أبو عمرو بن العلاء : إنما شعره فقط عروس يضمحل عن قليل وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ثم تعود الى أرواح البعر[7] ثم هو فى رأى ابن سلام أحسن طبقة للإسلاميين تشبيها[8] وعمر بن أحمد صحيح الكلام كثير الغريب[9] .

---

[1] طبقات الشعراء ص٣٢.

[2] ص ٧٥ .

[3] ص ١٢١

[4] ص ١٢١ .

[5] ص ١٢٣

[6] ص ١٢٤ .

[7] ص ١٢٥ .

[8] ص ١٧ .

[9] ص ١٢٩ من الطبقات .

وعبد الله ابن الزبعرى كان غزلا وأغزل من شعره شعر عمر بن أبي ربيعة وكان عمر يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح وكان عبد الله لا يشبب ولا يصرح و لم يكن معقود له شعر وغزل كغزل عمر[1] وأبو عبيدة يقول:

إن مزاحم بن الحارث العقيلي كان رجلا غزلا وكان شجاعا وكان شديد أسر الشعر حلوه وكان مع رقة شعره وصافا[2] . ويقول أبو الغراف عن يزيد ابن الطثرية كان صاحب غزل ومحادثة للنساء[3] . وحسان بن ثابت كثير الشعر جيده[4] وأمية بن أبي الصلت كان أشعر شعراء الطائف كثير العجائب يذكر في شعره خلق السموات والأرض يذكر الملائكة ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء وكان قد سأم أهل الكتاب[5] ذلك نقد مما قيل في بعض الشعراء الإسلاميين والمخضرمين وهذا نقد في الجاهليين: كان علماء البصرة يقدمون إمرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى وأهل الحجاز والبادية يقدمون زهيرا والنابغة[6] وما لهذا التقويم من سر إلا لأنهم يرون في شعر هؤلاء الشعراء صورا من نفوسهم وحيواتهم وكذلك نرى أن يونس والمفضل كانا يقدمان من الشعراء الإسلاميين الفرزدق ذلك لأن مماطلته الكلام تعجبهما وتلذ لهما[7] . ولنا عود إلى هذا بعد.
وأحتج لامرئ القيس من يقدمه أنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقافه صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ وشبه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعصيان والعصى وقيد الأوابد وأحاد في التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى وكان أحسن طبقته تشبيها[8] وقال من إحتج للنابغة كان

---

(1) ... ١٣٧ .
(2) ... ١٥٠ .
(3) ص ١٥١ .
(4) ص ٥٢ .
(5) ص ٦٦ .
(6) ص ١٦ .
(7) ١٦.
(8) ص ٧٥ .

أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا كان شعره كلام ليس فيه تكلف[1]. وقال أهل النظر. كان زهير أحكم شعراء طبقته شعرا أو أبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق وأشدهم مبالغة فى المدح[2] ويقول أصحاب الأعشى هو أكثرهم عروضا وأذهبهم فى فنون الشعر وأكثرهم مدحا وهجاء ونظرا وصفة كل ذلك عنده[3]. وكان أبو الخطاب الأخفش مستهترا بالأعشى يقدمه[4] وكان أبو عمرو بن العلاء يقول مثله مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره[5] وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: نظير الأعشى فى الإسلام جرير ونظير النابغة الأخطل ونظير زهير الفرزدق[6] والحطيئة متين الشعر شرود القافية[7]. ويقول يونس: النابغة الجعدى أوصف الناس لفرس[8] ولبيد عذب المنطق رقيق حواشى الكلام[9] والشماخ شديد متون الشعر ويقول ابن سلام: الشماخ أشد أسر كلام من لبيد وفيه كزازة ولبيد أسهل منه منطقا[10] وعبيد ابن الأبرص شعره مضطرب[11] وأبو عمرو بن العلاء يقول: خداش بن زهير أشعر فى قريحة الشعر من لبيد وأبى الناس إلا تقدمة لبيد[12].

ذلك النقد قام به أناس تقاربوا نشأة واتحدوا جنسا وان اختلفوا ميولاً وأمزجة وثقافات ولكنهم بعد يتفقون فى أن نقدهم فى جملته ذاتى بل والنقد العربى كله منذ نشأته

---

(1) ص ١٨ من الطبقات.

(2) ص١٨.

(3) ص١٨.

(4) ص١٨.

(5) ص١٩

(6) ص١٩.

(7) ص٢١.

(8) ص٢٧.

(9) ص٢٩.

(10) ص٢٩.

(11) ص٣١.

(12) ص٣٢.

حتى أوائل القرن الثالث الهجرى يتسم بأنه ذاتي في جملتـه، فـأهل الحجـاز يقدمـون كثيراً ولكنه منقوص الحظ بالعراق ويونس والمفضل يقدمان الفرزدق لأنه يرضى هواهما وحبهما للغريب والكوفة تقدم الأعشى لأنها ترى فى شعره ما يرضى حاجتها إلى اللهو ومـا يوافـق مزاجها العابث المترف. والحجاز والبادية تقدم زهيرا والنابغة لأنهما ينفـردان بميزة الإيجاز والعربى يعجب بالكم البليغ الموجز وعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس لإعجـابهم وطربهـم لمعانيه. كل إذن يعجب بالشعر الذى يرى نفسه مصـورة فيـه ويتحمـس لـه ويدافـع عنـه. كانت الخصومة فى الشعر تدعم بالدليل وتعزز بالحجج ومن هنا عمق البحث فى خصائص الشعراء وكان للغويين الفضل كله فى جمع حجج أنصار كل شـاعر فـى تفضيلـه ومـن ثـم صـار للنقـد أسـس قائمـة. تعصـب اللغويـين هـذا واحتجـاجهم فـي النقـد إنمـا جـاء مـن الاضطراب. ففى الأدب عناصر جيدة فى المعانى والصياغـة والأعـاريض والنغـم والشـعور تقبلها كل النفوس وترضاها كل الأمزجة والأذواق ولكنهـا لا تؤثرهـا وهكـذا يوجـد ذوق أدبى عام ويرتضى النقاد على إجماع على وضع شاعر الذوق الأدبـى العـام تقـوم مقـاييس الأدب فيعتصم به من الاضطراب وينجو من الشذوذ. وهذا الذوق الأدبى العام يتراءى فـى أمور كثيرة منها حب العرب للإيجاز وهو أن يؤدى المعنى من أقرب طريق غير خاضع كـل الخضوع لما حوله ولا مناقضا للتسلسل الفكرى ولا طـول النفـس الشعرى فزهـير والنابغة كثرت لهما الأبيات السائرة لما يطبع شعرهما من طابع الايجاز. يقول ابن سلام فى الكـلام عن الفرزدق: أكثرهم بيتا مقلدا – والمقلد – البيت المستغنى بنفسه المشهور الـذى يضـرب به المثل[1]. فالأبيات السائرة إذن مفلتات عنـد ابـن سـلام وهـو يمضـى حـين الكـلام عـن الأخطل وجرير فى إحصاء مقلداتها. فهذا الميل للإيجـاز خصيصـة مـن خصـائص البـدوى الأصيل فهو يكتفى بالجزئيات دون الكليات وخياله محدود وليس مجنحا.

ثم كل الذوق العربى العام يؤثر سهولة الألفاظ فجرير أشعر عامة والفرزدق أشعر خاصة. فلفظ جرير لسهولته ورقته جعل شعره ينتشر على أفواه النـاس ولقـد كـانت هـذه

---

[1] ص٨٤ من الطبقات.

الخاصية مما جعل هجاءه لمهجويه ممضا لاذعا مرا وأما الأخطل والفرزدق فجزلة ألفاظها وضخامتها كانت مما ترضي ذوق العلماء دون العامة. وكان الذوق الأدبي العام يفضل أغراضا أربعة على سائر الأعراض وهي النسيب والفخر والمديح والهجاء كان الذوق الأدبي العام يفضل هذة الاغراض لالتحامها بحياة الشعوب والاجتماع فالنسيب مفضل لشيوع الغناء ثم لإرضائه حاجة النفس في تصويره ما يكابد المحب من جوى وهوى وأما الفخر والمديح والهجاء فلأنها صور للحياة الاجتماعية عند العرب بما يدور عليه من عصبية ونضال واكتساب معايش. يقول أعرابي من بني سلامه : بيوت الشعر أربعة فخر ومديح ونسيب وهجاء وفي كلها غلب جرير ثم يورد الأبيات ويعقب على ذلك ابن سلام قائلا. وإلى هذا يذهب أهل البادية[1] فكان الشعر اذن تصوير لحياة الاجتماع .

هذا الذوق الأدبي العام جعل النقاد يرتضون في إجماع إن جريرا والفرزدق والأخطل أشعر شعراء عصرهم وإن الثلاثة قد شغلوا أهل عصرهم وصوروا جميع نزعاته ولما جاء ابن سلام ليضيف رابعا الى الثلاثة وهو "الراعي" لم يسع قوله وبقى الثلاثة وحدهم طبقةثم أقبل اللغويون في تمحيص شعر هؤلاء وتبين الخصائص والمزايا التي برزت لصاحبها أن يكون في الطبقة الاولى من الشعراء الإسلاميين. عرف اللغويون الطبقة الأولى في الجاهليين فدرسوا الجاهليين على طريقتهم التحليلة، عاشوا مع شعراء الجاهلية وأحبوا شعرهم و لم يدعوا شاعرا من مشهوري الجاهلية الا رأوا فية رأيا وسجلوا له نقدا، عرفوا إذاً من الشعراء الجاهليين من له منزلة ضخمة تداني ما لشعراء الطبقة الأولى الإسلاميين من مكانة فأخذوا يقارنون بينهم في بعض النواحي الأدبية فجرير كالأعشى والفرزدق كزهير والأخطل كالنابغة في الصياغة وفي الأغراض وفي الطبع . كما يقول عمرو بن العلاء[2] على أي أسس كان آمرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى أشعر الجاهليين كما أن جرير والفرزدق والأخطل أشعر الإسلاميين؟ على أساسين اثنين بلغة المتفلسفة: الكم والكيف.

---

[1] ص ٨٧ – الطبقات .

[2] ص١٩ – الطبقات .

فالأساس الأول كثرة نتاج الشاعر وغزارة شعره أما لأنه كثير بحور شعر أو لأنه متنوع الأغراض غزير الينابيع فجرير يقول: أنى نحرت الشعر نحرا[1]. والأعشى: أكثر طبقته عروضا واذهبهم فى فنون الشعر[2]. وأما لطول النفس الشعرى وان قلت الأغراض كما هو الحال فى شعر الأخطل. والأساس الثانى وهو الطبيعى جودة الشعر من حيث عناصره ومن حيث الخصائص التى تجمع الأذواق على استجادتها فى الصياغة وفى المعانى. على هذا الأساس أقام ابن سلام فى توسع كتابه الذى ندرس - طبقات الشعر - يقول ابن سلام فى كلامه عن الطبقة الرابعة من الجاهليين: وهم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة: طرفة بن العبد. وعبيد ابن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد[3]، ويقول ابن سلام فى الأسود بن يعفر من رجال الطبقة الخامسة الجاهليين: وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته وهى:

نام الحلى فما أحس رفادى   والهم محتضر لدى وسادى

وله شعر كثر جيد ولا كهذه[4]. ويقول ابن سلام فى كلامه عن الطبقة السابعة من الجاهليين: أربعة رهط محكمون فى أشعارهم قلة فذاك الذى أخرهم ومنهم سلامة بن جندل وحصين بن الحمام المرى والمتلمس والمسيب[5] وحسان أشعر شعراء المدينة وهو كثير الشعر جيده[6]. ولعل دقة هذا المقياس واطراده تبين أكثر ما تبين فى مقارنة اللغويين شعراء الطبقة الأولى الاسلاميين فجرير كالاعشى والفرزدق كزهير والأخطل كالنابغة - كما رأينا -.

---

[1] ص١٨.

[2] ص١٨.

[3] ص٣٠.

[4] ص٣٢ - الطبقات.

[5] ص٣٦.

[6] ص٥٢.

طبقات الشعراء :

وجد في هذا العصر نوع من النقد يقوم على الفكر والمنطق ولا على الذوق، فقد يتصل بالشعر من حيث صلته بقائله أو بيئته وما يعمل في الأدب من عوامل مختلفة تؤثر فيه وتنوع صوره فلقد كان اللغويون يدونون اللغة والأدب يريدون ليخلطوا للأجيال المقبلة تراث السلف وكانوا يحسون أن مهمتهم تاريخية لذا فكان عليهم أن ينخلوا ويغربلوا ما يصادفونه من شعر وأدب ولغة فيدرسون البيئات العربية ويعرفون فصيحها من أفصحها وما يشوب بعضها مما يفسد اللغة والأدب. وقد انتهوا من هذه الدراسة إلى تعليل كثير من الظواهر في الشعر العربي وإلى أن يدلوا على العربي الصافي الطبع أو العربي الذي تكدر طبعه وفسد فعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ويراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه[1] فهذا إحساس بأثر البيئة في الشعر ولكن النقد موجه أيضا إلى شكل الشعر. إلى صورته لا إلى طبيعته والحق أنه ما دعا إلى هذا النقد إلا حاجة اللغويين في أن يعتمدوا عليه في تصحيح معنى أو تصريف مادة. ولكن على كل حال فهذا نقد موضوعي لا يتعرض الشعر من حيث الجمال الفني أو عدمه وإنما هي الصلة بين الشعر وصاحبه تلحظ في رفق وفي يسر ثم تعلل بعد.

وهذه صورة أخرى من النقد الموضوعي ولكنها لا تتناول اتصال الأدب بالبيئة وإنما تتناول اتصال الأدب بالحياة الاجتماعية. يقول ابن سلام: وبالطائف شعراء وليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة و لم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف[2] . فتلك ظاهرة يعللها ابن سلام دون أن يحكم ذوقه فما يريد ليدل عليه هو عدم الدافع الذي يهيج شاعرية الشعراء وما دام الشعر مرآة المجتمع فهو إذن يقرر قلة الشعر في وقت السلم عنه وقت الحروب والثأرات.

---

[1] ص٣١.

[2] ص٦٥،٦٦.

ونقد آخر شغل جانبا كبيرا من اهتمام اللغويين وهو ما يطلق عليه الآن " التحقيق العلمي " فأخذوا ينقدون الشعر من ناحية التاريخ الأدبي وصحة نسبته لقائله أو بطلانها. فقد شاع الانتحال في الشعر شيوعه في الحديث. فخلف الأحمر يرد من الأشعار ما أنه مصنوع لاخير فيه[1] ، يعينه على ذلك ثقافته ومدرسته الكثيرة وذلك لأن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما تثقفه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره كما يقول ابن سلام[2] . وهذا العلم وهذه الثقافة جعلت خلفا (أفرس الناس ببيت الشعر)[3] . ابن سلام هنا يفرض نفسه علينا فرضا فهو أول من نظم البحث في فكرة الانتحال وهو أول من عرضها فأحسن العرض وأجاد في الدعوة لفكرة الشك لتقوم عليها أسس ركينة من اليقين. يقول ابن سلام: (وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء محمد بن إسحاق وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود)[4] . ويريد ابن سلام لينقي هذا الشعر فينقه بأدلة أربعة:

(أ) أولها : نصوص من التنزيل الحكيم فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ وقال في عاد ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ فمن حمل إذن هذا الشعر ومن أداه من ألوف السنين؟

(ب) ثم يمضي ابن سلام في مناقشة الفكرة بأدلة علمية فإسماعيل بن إبراهيم -كما يقول- أول من تكلم العربية وإسماعيل كان بعد عاد ثم أن معد - الجد الذي قبل

---

[1] ص ٣ .

[2] ص ٣ .

[3] ص ٩ .

[4] ص ٤ .

الأخير من أجداد العرب في شجرة أنسابها وكان بإزاء موسى بن عمران عليه السلام أو قبله قليلا وموسى قد جاء بعد عاد وثمود[1] .

(جـ) ثم إن عاد من اليمن. يقول أبو عمرو بن العلاء (العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم) ويقول أيضا (ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[2] ويقول ابن سلام إن العربية هنا هي اللسان الذى نزل به القرآن.

(د) ثم يرجع ابن سلام بنا إلى تاريخ القصيدة العربية فيقول:(ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة عبد مناف وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وتبع وحمير)[3] ويقول (وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل)[4] .

وأخيرا يقول في موضع ثالث : (كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل خاله وطرفه وعبيد وعمر بن قميئة والمتلمس في عصر واحد هى[5] وإذن فما قيل من شعر قبل هؤلاء فمرفوض وباطل ولكن ما أسباب هذا الوضع في الشعر. يورد ابن سلام أمرين دعيا الى هذا الوضع:

أ- العصبية في العصر الإسلامي فقد حرصت قبائل كثيرة على الإكثار من أشعارها لتضيف لإسلامها ضروبا من المكانة والمجد: فما انتهى الينا مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءنا وافرا لجاءنا علم وشعر كثير. كما يقول أبو العلاء[6] . وذلك لأن الشعر -كما يقول عمر رضى الله عنه : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بأمصار راجعوا، وأية الشعر فلم يزاولوا إلى

---

(1) ص ٤، ص ٥ .

(2) ص ٥ .

(3) ص١١.

(4) ص١٢.

(5) ص١٤.

(6) ص١٠.

ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره)[١] ويستمر ابن سلام في مناقشة الفكرة فيقول:(فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع فقالوا على ألسن شعرائهم)[٢].

ب- والسبب الثاني كما يذكره ابن سلام دون تعليل هو الرواة الذين زادوا في الأشعار وأخطرهم حماد الرواية - فقد (كان غير موثوق به، وكان ينحل شعرا لرجل غيره ويزيد في الاشعار)[٣].

ويمضي ابن سلام في سوق البراهين على ذلك الوضع في ثنايا كتابه وسنتبعه في جولته العلمية: يحكي ابن سلام مثلا لافتعال حماد الشعر فيقول: أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال. قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة فقال: أما أطرفتني شيئا. فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى فقال: ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به وأنا أروى للحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس)[٤] ويقول ابن سلام : (أخبرني أبو عبيدة أن داوود بن متمم بن نويره قدم البصره في بعض ما يقدم له لبدوى في الجلب والميرة فنزل تاتحيت فأتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا وإذا كلام متمم والوقائع التي شهدها فلما توالى ذلك منه علمنا أنه يفتعله)[٥].

ويقول ابن سلام (ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد والذى صح لهما قصائد بقدر عشر وأن كان ما يروى من الغناء

---

[١] ص١٠،ص١١.

[٢] ص١٤،ص١٥..

[٣] ص١٥.

[٤] ص١٥.

[٥] ص١٥

لهما قصائد بقدر عشر وأن لم يكن لهما غيرهن فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير غير أن الذى نالهما من ذلك فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير)[1] ويناقش ابن سلام فى موضع مسألة غربلة الشعر الموضوع يقول:(وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع للمولودون وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال)[2]. ويستمر ابن سلام فى إيراد البراهين: فعبيد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا يعرف له ابن سلام إلا قوله:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

ولا يدرى ما بعد ذلك[3] ومدح النابغة الجعدى مروان بن الحكم بأبيات قال ابن سلام فيها: وأنا منها فى شك ثم أورد أبياتا صحت عنده[4]. وعلىّ بن زيد حمل عليه شئ كثير وتنخيصه شديد واضطرب فيه خنف[5]. ويقول ابن سلام عن الأسود بن يعفر: ذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول له ثلاثون ومائة قصيدة ونحن لا نعرف ذلك ولا قريبا منه وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ويجوزون فى ذلك أكثر من تجوزنا[6]. وحسان ابن ثابت كثير الشعر جيده وقد حمل عليه أشعارا كثيرة لا تليق به[7]. ويقول ابن سلام (وكان أبو طالب بن عبد المطلب شاعرا جيد الكلام وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم وهى:

وأبيض يستقى الغمام به ربيع اليتامى عصمة للأرامل

---

(1) ص١٠.

(2) ص١٢.

(3) ص٣١.

(4) ص٢٨.

(5) ص٣١،ص٣٢.

(6) ص٣٤.

(7) ص٥٢.

وقد زيد فيها وطولت. رأيت فى كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة وقد علمت أن قد زاد الناس فيها فلا أدرى أين منتهاها وسألنى الأصمعى عنها فقلت صحيحة قال: أتدرى: أين منتهاها قلت لا أدرى وأشعار قريش أشعار فيها لين يشكل بعض الأشكال[1]. وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب والحاصلى من شعره قليل فما صح عنه قوله:

ولولا الحبش لم تلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا[2]

ثم يقول ابن سلام ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل ولسنا نعد ما يروى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم[3] ويقول ابن سلام بعد: ويروى الناس لابن سفيان الحارث قولا يقوله لحسان:

أبوك أبو سوء وخلك مثله ولست بخير من أبيك وخالك

وأن أحق الناس أن لا تلومه على اللـــوم من ألقى أبا كذلك

ويمضى ابن سلام فيقول: اخبرونى أهل العلم من أهل المدينة أن قدامة بن موسى الجمحى قالها ونحلها أبا سفيان وقريش تزيد فى أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان[4]. قريب من هذا النقد ومتصل به أبيات تروى لشاعر ومن لآخر فيجتهد ناقد كابن سلام أن يحق الحق فيرد الشعر لصاحبه فان لم يهتد للقائل ذكر من يتنازعون البيت دون أن يفصل بينهم بحكم فبنو قيس تدعى بعض شعر امرئ القيس لعمرو بن قميئة فيقول ابن سلام: وليس ذاك بشئ[5]. والبيت:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

---

[1] ص٦٠،ص٦١.

[2] ص٦١.

[3] ص١٦.

[4] ص٦٢.

[5] ص٣٧.

يقول يونس أنه للجعدى وأبو عبيدة يقول هـي لأميـة وخلـف الأحمر يقـول هـي للنابغة وقد يقال لأمية[1]. والنابغة الجعدى ينشد الحسن البيت:

الحمد لله لا شريك له　　　　من لم يقلها فنفسه ظلما

فيقول له : يا أبا ليلى. ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت. قال يا بن رسول الله والله أني لأول للناس قالها وأن السروق من سرق أمية شعره[2]. ويقـول ابن سلام (اخبرني شعيب بن صخر قال سمعت عيسى بن عمر ينشد عامر بـن عبـد الملك لزهير أو النابغة فقال: يا أبا عبد الله هذا و لله لقول الاعشى:

لسنا نقاتل بالعصي　　　　ولا نرامي بالحجارة

الإعلالة أو بداهة فأرح نهد الجزارة[3]

وكذلك كان أهل البادية يروون بيتا للزبرقان وهو للنابغة وإنمـا استزاده الزبرقـان في شعره كالمثل حين جاء موضعه ولا مجتلبـا لـه -كمـا يقـول يونـس[4] -وتروى للنابغـة الجعدى أبيات في الفخر والرد على القشيرى والرواة يجمعون على أن أبـا الصلـت بـن أبـى ربيعة قالها[5] والفرزدق يغتصب ذا الرمـة أبياته ويقـول لـه: لا تعـود فيهـا وأنـا أحق بهـا منك[6]. وقراد بن حنش من شعراء غطفان كانت شعراء غطفان تغير على شـعره فتـأخذه وتدعيه من ذلك أبيـات أدعاهـا زهـير ابـن أبـى سـلمى وأثبتهـا ابـن سـلام فـى كتابـه[7]. وقصيدة الأغلب في الخزرج[8].

قد لقيت سجاح من بعد العمى　　　　تح لها بعدك حنزاب وزى

---

(1) ص٢٧.

(2) ص٢٧.

(3) ص١٦.

(4) ص١٧.

(5) ص١٧.

(6) ص١٢٦.

(7) ص١٤٧.

(8) ١٤٩.

يقول الأصمعي إن هذه القصيدة كانت تقال في الجاهلية لجشم ابن الخزرج[1].

نقد كهذا يميز زائف الشعر من صحيحه ويبطل نسبته لشاعر أو يدعي نسبته لآخر إنما يتطلب مرانا ودراسة فسيحة للشعر والشعراء ودراسة الأحوال التى قيل فيها الشعر والحياة مع الشاعر وشعره وبيئته وعصره والتغلغل الى روحه وفكره وخياله ثم يعتمد بعد على دراسة الرواة ومبلغ الثقة أو الشك فيهم.

---

[1] طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى طبع أوربا: وهو مرجع المشار اليها فى الحواشى.

القسم الرابع

الجاحظ ناقداً

المناخ النقدي كما رصده الجاحظ

مقدمة:

من أين نبدأ مع أديب العربية الأكبر الجاحظ؟ من أدبه نلمح ظلال حياته... أم من حياته نتوضح جوانب من أدبه... أم من بيئته نتهدى إلى عوامل ثقافته ومكونات فكره؟ الحق أن كل أولئك من ألزم ما يلزم لدرس الجاحظ والتعرف على أدبه ولعله يندر أن يصدق على أديب ما يصدق على الجاحظ من أنك تلمح في أدبه مظاهر من بيئته، وتتراءى لك في بيئته صورا حية تعايشك من أدبه على أنه يبق بعد ذلك سؤال ملح، فما قيمة الجاحظ التي يتساهل بها الدرس سواء في عصره ذلك منذ أحد عشر قرنا أم في عصرنا نحن الدارسين؟ أما الأقدمون فقد لقنهم الجاحظ بشخصيته العملاقة في الأدب وفي العلم ورأوا فيه علماء من أعلام مدرسة الفكر الإسلامي الحر الذى أنبتته المعتزلة، كان له رأى في الأدب لم يلتفت إليه. لا أصحاب الفن القولى شعراء أم أدباء بعامة، ولا تنبه إليه مؤرخو الأدب لهواء أو شغل بقضية لفظ دون معنى أو اهتمام بمعنى دون لفظ فادى بأن الأدب هو الإمام من كل شيء بطرف كما يصور في تعبيره عن فكرة عامة شاملة في المعرفة الإنسانية، في النظرة العلمية إلى العالم ككل ويوجه همه إلى المضمون والملاءمة بينه وبين الشكل في تنغيم جمالى ملتزم وقيمته في عصرنا أنه من أصحاب الرسالات الأدبية، أو بتعبير العصر أنه أديب ملتزم وهادف لا يخرج أبدا عن هذا التخطيط الأدبى منذ نضج أدبيا إلى أن غاب عن الوجود...

ثم قيمة أخرى... إن جوانب الدرس في هذه الشخصية لا تنتهى فهو موسوعى للمعرفة يمثل بيئته عقلية ذات خطر في الفكر الإسلامي، البصرة منها نبت الاعتزال، ونشأ النحو أبتكر العروض، وتجدد الأدب... بلى وهو يمثل أجيالا ثلاثة في تاريخ العقلية العربية وآدابها واجتماعها، منه نؤرخ للبلاغة والنقد، وعنه نخطط بداية درسنا الأدبى، وإليه نرجع في الإلمام بمسائل الكلام والاعتزال، ومن كتبه نرى صورا من المباحث اللغوية وألوانا من مناهج التفسير القرآنى ومواقف من تسريح متون الأحاديث ونقد سلسلة رواتها... الخ.

ولا تعدد ما للرحل من قيمة فما أردنا إلا اللفت إلى أننا بإزاء قمة شامخة فى أدبنا العربى نتطلب منا جهدا فى درسها وعمقا فى فهمها، وإدراكا لما استهدفته هذه الشخصية من أهداف عملية يحققها الأدب فى الحياة فليس الأدب ترف المجتمعات وإنما هو ضرورة تحتاجها. إذ جمع إلى فنية التعبير علمانية المحتوى. ومحاولتنا هنا أن نتخير موضوعين له قد يتباعدان موضعا ولكنهما يلتحمان فكرا. حدث فى أولهما عن الكتابة وفضلها وهى فى ثانيتهما فضل ما بين العداوة والحسد[1]. ولا يتبادر إلى ذهننا أن الموضوعين بهذه البساطة التى قد تعطيها ظواهر الألفاظ ولكن تحتها أعماق من الفكر الإنسانى الأصيل الذى قد يبلى صاحبه ويفنى زمانه ويبيد ناسه لكن الفكر فى ذاته حى أبدا جديد دوما يفرض نفسه على أجيال الإنسانية. ومع الموضوع الأول فى المقابلة بين الإنسان وبين الكتاب ركز الجاحظ على نقاط يعلو فيها قدر الكتاب على الإنسان.

فالكتاب طيع ليل نهار، فى سفر أو فى إقامة، لا يغلبه النعاس ولا يضعفه سهر. ثم هو معلم ليس من سماته خصائص البشر وما فيها من نقص:(لا ينقض عهده أن احتجت إليه ولا يمنعك فائدته أن قطعت عنه مادتك ولا يعصيك أن ذهبت دولتك وأن تألب عليك الأعداء لم يصر معهم وأدنى صلة لك به تجعل منه مغنيا عن غيره، ومؤنسا لوحدتك). ثم يرى للكتاب فضلا يفرده بالتنبيه: فهو يمنع المرء من الجلوس على بابه يتعرض للمارة ينظر ويقول مخالطا أو شاب الناس مشاركا إياهم ألفاظهم الساقطة ومتأثرا بخلقهم الدنىء فهو يعرض بالنقد لطائفة من فراغ الناس فى مجتمع عصره تعرف أمثلتهم فى مجتمع عصرنا تزدحم بهم المقاهى ويسوئون الناس بفاحش نظراتهم وخبيث ما ينشرونه من دعاواهم ومقالتهم.

ويبدو أن الكتاب يعطى فوائده لمستحقيها ويضن بها على غير أهلها فلقد يتلهى الفراغ والفكهين بالكتاب نهارا أو ليلا غير أنه لا يؤثر فيهم لا خبرة بالحياة ولا نموا عقليا أو رقيا خلقيا. ولم؟ أللجو الذى يحيطون به الكتاب؟ أم للعقلية التى يتناولون بها هذا الكتاب؟ للأمرين معا ونحس هنا أن الجاحظ يحيط الكتاب بجو قدسى. ومن هذه الصورة المقارنة بين

---

[1] الحيوان جـ١ ص ٧٢-٧٧ ومن رسائل الجاحظ جـ١ هارون ١٩٦٥م ص ٣٣٧/٣٣٨.

دنيا الناس ودنيا الكتاب ينتقل الجاحظ إلى إقامة حوار بين العلم والفن يبدأه الجاحظ بالحديث عن تخليد كل من العرب والعجم لمآثرها. كانت وسيلة التخليد فى الجاهلية هى الشعر به يتميز فضل القائل وفضل المقول فيه. وهنا تبدأ محاورة صاحب العلم أو الحكمة إذ يقول أن كتب الحكمة وفنون الآداب والعلوم أبقى ذكرا وأحسن نفعا، وفى مجال بقاء الذكر يعقد مقارنة بين خلود الكتاب وخلود البنيان ذلك أن البنيان يستطيع كل ملك أن يعث فيه بآثار من قبله فيمحوها بالهدم والطمس.

ثم إذ فرغ المحاور من هذه المقارنة بين البنيان والكتاب يلتفت إلى صاحب الشعر ليعقد مقارنة بين فنون الكتاب وهذا الفن الشعرى الشفاهى، فيرى أن حيث الميلاد وأن أصحابه قريبو العهد بالإسلام بما لا يبعد عن مائتى عام بينما كتب الحكماء قبل بدء الشعر بالدهور والأزمان وأن فضيلة الشعر مقصورة على العرب وأن حسنه يضيع بترجمته وليس كذلك الكلام المنثور، وأن الحاجة إلى فنون العلم والصناعة أشد وأعم منها إلى الشعر، ثم يعمد إلى فن الترجمة فيرى أن صنوف الكتب لأمم ذات حضارات كالهند، وحكم اليونان، وآداب الفرس قد ترجمت فزادت الترجمة بعضها حسنا. وترجمات ما انتقضت من معانيها شيئا. أما شعر العرب فلو ترجم لضاع من حسنه الوزن الذى به يفتخرون فالمعنى ليس فيه جديد لم تذكره العجم وهذه القضية خلافية بغير شك. وينهى حجاجه بأن الكتب قد انتقل نفعها من أمة إلى أمة حتى كنا آخر من ورثها.

ويرد صاحب الشعر فيثير قضايا منبها صاحب الحكمة إلى أن المترجم لا يكون دقيقا فى نقل ما أراده صاحب التأليف... لأنه لن ينقل المعنى وفق ما أريد به إلا من كان كصاحبه أو كانه هو وحين نعرض هذه القضية بما هو حادث الآن من ترجمات علمية وأدبية حقا فيها الكثير الغث ولكننا لا نعدم ذا القيمة. وينظر صاحب الشعر فيما ينبغى أن يتاح للمترجم بأن يجمع إلى البيان فى الترجمة المتخصص فى المادة وهذا سديد فلا يترجم قصاص مثلا كتابا فى الطب: وأن يكون علمه باللغة المنقول إليها سواء، وينظر فى حال من يلم بلغة أو أكثر فيرى ذلك يضعف من قوة ترجمته وحدد مجال عدا القول كله بخلود كتب الهندسة والرياضة والموسيقى.

والحصيلة من المضمون الاجتماعى لحديث الجاحظ عن الكتاب أنه وسيلة حضارية خالصة فى عصره لا يكدرها ما يكدر أدوات الثقافة الأخرى، وهو فى عصر امتزجت فيه الفلسفة بالدين يرى فى الكتاب منفعة دنيا وثواب آخرة. والجاحظ يلح فى أن العلم كقيمة حضارية كبرى تفوق ما أخذت به الأعاجم من تشييد البنيان إقامة الصروح، قلنا ولا نفتأ نردد أن الجاحظ أديب ملتزم يهدف بكل ما يخطه إلى ما له شأن فى الحياة. ويصور الحياة الجاحظ تلك الحركة الناشطة فى الترجمة وما بدا من أساليب ومعارف تحويها الترجمات ويقاومها أصحاب الشعر والصنعة اللفظية حين يرون فيها شكلا ومضمونا بما لا يتفق وموروثهم الأدبى أو الحكمى. وتطوى حديث الجاحظ عن الكتاب لنقلب صفحات خطها عن فصل ما بين العداوة والحسد وهى رسالة ألفها الجاحظ بإشادة من أبى الحسن عبيد الله بن يحى بن خاقان وزير المتوكل ثم المعتمد وقد كان أبو الحسن يرعى الجاحظ زمن كبره وكانت له ميوله الأدبية يستحث الجاحظ كى يؤلف له الرسائل ويكتب الكتب الأدبية وللجاحظ رسالة أخرى فى موضوع مماثل لهذا هى (رسالة الحاسد والمحسود) على هامش الكامل للمبرد والواقع أن الجاحظ بشفافيته النفسية يعرض لهذا الموضوع عرض خبير ممارس قد نالت منه السنون بلى الناس فيها وأدرك مطويات صدورهم وتنور رسالته حول توكيد فكرة هى أن العداوة أشرف فى نظره من الحسد. فهو يعرض عرضا تاريخيا شاملا لحالة العلماء يقابل فيه بين صنفين. عالم ومدع للعلم أما الأولون فلهم حال من العلم وأهله دراسة للكتب ومعاناة للموافق والمخالف ونقد وتثبت ... وهؤلاء الصادقون فى علمهم تلمح فيهم صورة للمعتزلة ألموا بالمعارف ونخلوها ناقدين شاكين ثم أثبتوا ما يحق له الإثبات وبذلك أحاطوا بميادين العلوم وعرفوا حدودها وكأن لمثل هذا المنهج أثره فى خلق علماء نقدة .... أذكياء أحاطوا بالعلم والفن فكانوا فخرا لأهل أمتهم ولأهل عصرهم يعرف ذلك لهم امتن بفضلهم ولكن ذا الشأن دوما مبتلى بالحساد وهؤلاء يعرض لهم الجاحظ محللا لسماتهم ويصف الجاحظ حركة الحساد النفسية فيرى أنهم أدعوا لأنفسهم صفة العلم باطلا وفى هذا السبيل موهوا على الناس وخدعوهم باللبس بالطريقة الظاهرية فى السلوك فى اللفظة والنظرة فى الحركة والإشارة وهم فى ذلك يعنون بالمظهر يغطون به قبح المخبر.

واذن وقع فى شراكهم العامة وجهلاء الملوك وذووا السلطان فى الأغلب يعاودون أهل العلم حقا ومن هذا اتخذوا لهم عدة فى حربهم للعلماء المحقين يخادعون بذلك العامة فى رعايتهم للعلماء المزورين وعداوتهم للمحققين وهدف من ذلك أدعياء العلم إلى الرياسة والسلطان على العامة وشجعهم فى ذلك ميل السلطان إليهم وإصغاء العامة لهم ومن ثم تجرأوا فقالوا هذرا يكشف عن جهلهم وغبائهم ناسين حكمة أن الصمت ستر للجاهل وهكذا اختلط الأمر على العامة فلم يميزوا بين الجاهل والعالم. ومثل هذه الطبقة لم يخل منها زمان وبها هلكت الأمم السالفة فلا صلاح لأمة يسوس أمورها جهالها.

وعلى هذا النحو نجد الجاحظ قد رسم لنا خطين متقابلين علماء حق وعلماء أدعياء من الحاسد فيهما ومن المحسود؟ وما الباعث على الحسد: حب الرياسة فالعلم سيادة وقيادة وحين فقد الحاسد ما به يسود ويقود ويتوصل إلى طرق أخرى غير العلم يحقق بها غايته فى حب الرياسة وساعدته فى ذلك ظروف مواتية وهدف الجاحظ من كل هذا بغير شك هو تنقية للجو العلمى من شوائب تمنع تقدمه وتعرقل تحضره فيا لسوء حظ أمة يختلط الأمر فيها على الحكام والمحكومين فلا يعودون يفرقون بين عالم ومدع للعلم. ويرسم الجاحظ صورة لأولئك المحيطين بالسلطان يعرضون عليه أدب الأدباء فيبدى منذ أول الأمر خشيته منهم لطول تمرسه بنفسياتهم – فهم يحسدون ومن حولهم يتافقون فيدعون لهم أن صاحب الأدب المعروف حاسد وبذلك يوقدون نار الحسد في قلب من ينافقونه واذا ترى ذلك الحاسد يعرض أدب الأديب بوسيلة تضع منه ولا ترفع فيخفى المزايا ولا يعطى قراءة النص حقها فتلتوى المعانى بالتواء التلاوة (وهذا موقف تحريف النص).

ثم موقف آخر يتخذه (هو الحياء النفسى) بقول أو إشارة توهم فساد المعنى وتشير إلى سقوط الألفاظ من غير أن يبدى عداوة أوحسدا لمؤلفها أو يسجل عليه قول فى معاداة النص أو صاحبه وهذه الطريقة مؤثرة وناجحة فى الإصابة والطعن واذا سلك الحاسد مسلك التحريف ثم الإيحاء يخلو له الجو، وقد ملك الميدان وأثر على الحضور ويقص الجاحظ من واقع عصره ما حدث لكتاب بشر المريسى حين عرض على المأمون وينهى هذه القصة الواقعية بقوله للمأمون ولعله يريد من وزيره ابن خاقان أن يتخذ مبدأ عاما فى نقد ما يقدم

له من إنتاج علمي أو أدبي (أن الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجج لها، فما ينبغي أن يقضي على كتاب إلا إذا كان له مدافع عنه، وخصم يبين عما فيه، فإن أبناء النعم وأولاد الأسد محسدون (ويتمثل بالشواهد الأدبية على أن ذا النعمة محسود).

ثم يقيم ميزانا يضع كل كفة الحسد والعداوة - وكلاهما رذيلة - لكن تفضل إحدى الرذيلتين أختها (فالعداوة لها عقل يسوسها يطلقها فى وقتها المناسب أما الحسد لئيم لأنه يتناول القريب والأقرب بينما العداوة أقل من الحسد لأنها قد تحول العدو صديقا والصديق عدو) والحاسد لا يرجع عن حسده إلا بزوال نعمة المحسود أما العداوة فهى لسبب أن زال زالت معه، النعمة إذا شاركوا فيها زالت عداوتهم بينما حساد النعمة إن أعطوا منها ازدادوا غيظا العداوة قد تزول وتقدم بينما الحسد أبدا جديد لا يبيد والحسد أشد إيلاما وأحقر منزلة من العداوة التى ميدانها أفعال العباد بينما الحسد فمجاله أفعال "الله". فلا يعادى الواحد الآخر لأنه جميل المحاسن، فصيح اللسان، حسن البيان والحاسد يفعل ذلك والحسد أخو الكذب بينما العداوة جمر يوقده الغضب ويطفئه الرضا) وينتهى من هذه المقابلات بقول بعضهم: الحسد أنثى لأنه ذليل والعداوة ذكر فحل لأنها عزيزة.

ويشير الجاحظ إلى أن الحسد داء ابتلى به العلماء وهو يحكى فى هذا السبيل قصصا واقعية معاصرة ثم يدلف الجاحظ إلى فنون المعرفة التى ألف فيها: بإحكام واتقان وفى براعة ونصاعة ويتلقى الحساد كتبه بالطعن - ويزداد طعنهم أن قدم للملك يمنح ويمنع زهم بين أمرين أما الطعن فى الكتاب وإلا فسرقته وتقديمه للملك آخر موسوما باسمهم وإزاء هذا خاض الجاحظ تجربة ظريفة هى أن يؤلف كتبا أقل اتقانا وينحلها غيره من المتقدمين زمنا فتروج الكتب عند الحساد الطاعنين. وقد يخرج الكتاب من تحت يده كأنه قطعة منحوتة فيضن به الجاحظ أن ينسبه لغيره وإن نسبه حسده الحاسدون فيتركه غفلا.

طرائق الطاعنين الحاسدين وحيلهم:

ثم يحلل الجاحظ فى براعة نفسيات أولئك الحاسدين ويفسر ما وراء سلوكهم وتصرفاتهم. فالحاسد الجاهل أهون ضررا من العارف لأنه يهجم بحسده دفعة واحدة لا يستتر ولا يمكر فى التأليف من أوله إلى آخره، سذاجة سلوك وسذاجة نقد وهم بهذا

يكشفون أنفسهم ويسقطون فى أعين الناس. وحاسد عارف يحتال ويمكر يتثب ليوهم أنه يقرأ ويتأنى ليخيل أنه يفكر ويتدبر وهو بهذا يوقع الجميع فى حباله أن تهمله ليكون حكمه على بصيرة ونقده يعد رؤية. وهؤلاء أخطر الفئات عند السادة الرؤساء ذلك أنهم يعرفون من أين يهدمون العالم العامل ويخدعون لسيد الحاكم خاصة إذا كانوا من أهل منادمته يكررون عليه ويقتنصون الفرص. لا دواء لهذا الداء إلا الإعراض عن مثل هؤلاء الحاسدين وحبسهم عن منادمة السيد الرئيس ونقد تفشل لطائف الحاسد العارف فيتراجع لينقض ثانية. يعترف أنه أخطأ سهوا و لم يستقص فيما قال متحينا فرصة تقديم كتاب آخر لينهال عليه طعنا وقد ضمن عند الناس أنه يقول الحق ولو على نفسه وقد تراجع من قبل عن خطئه وأقربه على نفسه.

ينطق المضمون الاجتماعى وراء هذا بزيف الحياة الأدبية فهى تعتمد إلى حد كبير على زعامة الحاكم وحسن إدراكه. والرأى فى موقف الجاحظ هذا من عبثه بنسبة كتبه إلى غيره أنه قد يكون تجربة أدبية مثيرة ولكنه أوقع التاريخ الأدبى فى حيرة بالنسبة لإنتاجه فكثير منه مجهول وما قد ظهر بعضه مشكوك فى نسبته اليه مثل كتابى (التاج) و(المحاسن والأضداد) أما المخطوط فهو محرف و لم يسلم لنا حتى الآن غير كتاب الحيوان والبيان والتبيين وبعض الوسائل وكتاب البخلاء. ويرتبط بزيف الحياة الأدبية زيف الحياة النقدية فهى موصولة بكلمة يشى بها عال إلى الحاكم فيضع بها ويرفع، هى تصور أن النقد إنما كانت بيئته القصور وساح الملوك وهكذا نجد ان الأدب ارتبط بالقصر لأسس اقتصاد الامة كلها تركز فى يد الملك أو السلطان، أما الرأى العام فإنا نفتقد فى هذا التصور للحياة الأدبية وفى مثل تلك الظروف تعمل الأهواء عملها فى نقد الأعمال الأدبية والعلمية وتختل موازين النقد، ولهذا يرجو الجاحظ ابن خاقان (فان قدح - جعلنى الله فداك - بالحسد قادح فيما أؤلفه من كتابى لك، وسبق إلى وهمك شك فيه، أعلمتنى النكتة التى قدح فيها، ثم قابله بجوابى، فإنى أرجو ألا تحتاج إلى حاكم عند تجافى القولين بين يدك، لعلو الحق على الباطل، ودموعه إياه). فالجاحظ لا يرجو إلا أن يعلل الناقد لنقده وأن يتاح للمنقود أن يدفع عن نفسه وهو على ثقة من انتصار الحق. قال الجاحظ بأن العلم قيمة حضارية

ليست حكرا على أمة. للترجمة دور في إذاعته بين الناس وعلى ذلك الحال أبد تنهر وجاهر بزيف الحياة النقدية في زمنه وما أصدق قالته على عصرنا حينما اختلفت نظم الحكم وتباينت المجتمعات فيه فالهوى في النقد إله معبود. وهكذا نجد الجاحظ يتخطى حدود مكانه وزمانه ويتألق نجما ساطعا في سماء الإنسانية المفكرة.

الجاحظ والقيم النقدية :

إن الجاحظ قد وضع مفهوما للأدب والأديب فجعل رسالة الأديب هي نقل التراث الحضاري وتحويل المعرفة إلى نتاج فني وطبق هذا المفهوم على نفسه والتزم به طيلة حياته وأدبه، شاهد هذا.

وهو ينبه إلى مرحلتين خطيرتين في عملية النقد:

١-الفهم. وبقدر ما يعطى الإنسان من جو القداسة والتركيز والتأمل في الكتب بقدر ما تحصل على لكتات من فائدة.

٢- الذوق، أو التلقي والنقد.

ويكشف الجاحظ أن جمهرة النقاد في عصره كانوا حاشية السلطان وهم يتناولون النقد من زاوية ميولهم الشخصية التي نبه عليها. ووضح الجاحظ أن حياة النقد. حياة زائلة مبنية على الحسد والغيرة وأنه كشفها عمليا بتجربة أن ينحل رسائل من وضعه لأعلام الأدب (سابقين أو معاصرين) فيجد الرسائل المنحوتة تسرق وتنهب. ويرفع من شأن صاحبها بينما رسائله الممتازة الرائعة يحط من شأنها ولقد أراد الجاحظ أن يجمع بين الناقد والأديب في مجلس واحد فبهذا وحده يتقدم حركة النقد.

الجاحظ ناقدا:

أ- نقف في هذا المبحث عند علم أدبي شامخ هو الجاحظ الذى مثل عصره تمثيلا يندر أن يكون له شبيه في تاريخ الأدب فقد اهتم الرجل بتسجيل كل ما ثار في الأجواء الأدبية عربية أو أجنبية من مسائل الفكر والفن زكم كان بودى أن نتوقف كذلك عند منهجه في تذوق النص الأدبي، ولكن هذا وحده له حقه من البحث المفرد. فحينما قلبنا النظر فيما أورده الجاحظ في كتبه من مسائل الأدب وقضايا البلاغة نجده يدور حول محاور أربع هي:

الإبداع والتلقي وفنون الأدب وصور التعبير. وإذن فمحاولتي هنا هي رصد آرائه في تلك القضايا ملتقطا لها من تراثه الأدبي المتاح لي إلى اليوم.

أولا في الإبداع :

ب- ومن أخطر الروايات ما يذكره الجاحظ من أن البلاغة كانت تعلم نظريا وأن أكثر هذا التعليم فيما يبدو كان للاتجاه إلى الاتقان الخطابي وأنه كان هناك دارسون نظريون في البلاغة العربية من مثل بشر بن المعتمر الذى يدفع صحيفة من تحريره يجمل فيها عملية الإبداع الفنى من التهيؤ النفسى للإبداع ثم من عرض لثلاث منازل، فى أحدها يسمح الطبع بتلقائية تلوح على اللفظ والمعنى وفى الثانية قد يستعصى البيان على الأديب فيتحين فرصة أخرى مجددة لنشاطه فان واتاه الفن فهو الأديب المطبوع والا فليتحرك إلى منزلة ثالثة يعالج فيها فنا آخر غير ذاك الذى استعصى عليه فى المنزلة الثانية.

كلام بشر بن المعتمر:

حين مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة. فوقف بشر فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، واطووا عنه كسحا. ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها اياك، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن فى الأسماع، وأحلى فى الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه. وإياك والتوعر فان التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك. ومن أراغ (أراد) معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما: فان حق المعنة الشريف: اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله ال أن تكون أسوأ حالا منك أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

وكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث: أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة أن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة. وكذلك ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة. وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللفظ العامى والخاصى. فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك ولطف مداخلك. واقتدارك على نفسك، أن تفهم العامة معانى الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء. ولا تجفو عن الأكفاء. فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك، ولا تعتريك ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، و لم تصل إلى قرارها. وإلى حقها من أماكنها المنسوبة لها، والقافية لم تحل فى مركزها، وفى نصابها، و لم تتصل بشكلها، وكانت قلقة فى مكانها، ونافرة من موضعها، فلا تكرها على اغتصاب الأماكن، والنزول فى غير أوطانها. فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون و لم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. وإن أنت تكلفتا و لم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك، فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، و لم تسمح لك الطباع فى أول وهلة، وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو قربت من الصناعة على عرق. فان تمنع عليك بعد ذلك من غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة إن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك. فإنك لم تشتهه و لم تنازع إليه إلا وبينكما نسب. والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله. وأم كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات. لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا. قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لى: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان[1].

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص١٤٩،١٥٠،١٥١.

جـ- ويَرى الجاحظ في الشعر شقيقا لغيره من الفنون فهو ضرب من النسج وجنس من التصوير وأن الأديب يعلم وحده من الطبع فلا يجوزه:

القول في المعنى واللفظ:

وذهب الشيخ (أي أبو عمرو الشيباني) إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحه في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. وإنما الشأن في إقامة الوزن. وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك. فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير. وقد قيل للخليل بن أحمد: مالك لا تقول الشعر؟ قال: أجدني أجد ما لا تشتهي وأشتهي ما لا أجد.

شعر ابن المقفع:

وقيل لابن المقفع: مالك لا تجوز البيت والبيتين والثلاثة قال أن جزتها عرفوا صاحبها فقال له السائل: وما عليك أن تعرف بالطوال الجياد!؟ فعلم أنه لم يفهم عنه.

الفرق بين المولد والاعرابي:

ونقول: إن الفرق بين المولد والأعرابي: إن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه[1] .

د- وينظر الجاحظ نظرة عضوية إلى النظم فيقول بصريح اللفظ:(... والاسم بلا معنى لغو، كالظرف الخالي. والأسماء في معنى الأبد إن، والمعاني في معنى الأرواح. اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح. ولو أعطاه (في معرض عرضه قول له " وعلم آدم الأسماء كلها ") الاسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا لا حركة له، وشيئا لا حس فيه، وشيئا لا منفعة عنده ولا يكون اللفظ اسما لا وهو مضمن بمعنى وقد يكون المعنى ولا اسم له، أو لا يكون اسم إلا وله معنى[2] .

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ١ ص١٣١،١٣٢.

[2] رسالة في الجد والهزل ص٢٦٣ (جـ١ من رسائل الجاحظ) وفي مجموعة رسائل الجاحظ جـ١. ساسي ص١٥٩:(شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقا لذلك وشغفا بذلك الاسم، حتى صار يجر إليه المعنى جرا). وعرض هذه المسألة عبد القاهر الجرجاني وطبقها بنجاح الزمخشري في الكشاف.

هـ- ونظر الأدباء نظرة كلية إلى النص الأدبي فوصف الشعراء كلامهم المستجاد بالنسيج المزخرف:

وباب آخر:

ووصفوا كلامهم فى أشعارهم فجعلوه كبرود القصب (ثياب جيدة محكمة النسج كانت تصنع باليمن) وكالحلل والمعاطف، والديباج والوشى وأشباه ذلك. وأنشدنى أبو الجماهر جندب ابن مدرك الهلالى:

لا يشترى الحمد أمنية ولا يشترى لحمد بالقصر

ولكنما يشــترى غاليا فمن يعــط قيمتــه يشتر

ومن يقتطعه على مئزر فنعم الرداء على المئــزر

وأنشدنى لابن ميادة:

نعــم إننى مهد ثناء ومدحة كبرد يمــان يربح البيع تاجره

وأنشدنى:

فإن أهلك فقد أبقيت بعدى توافــى تعجــب المتمثلينا

لذيذات المقاطع محكمــات لو أن الشعر يلبس لارتدينا

وقال أبو قردودة يرثى ابن عمار قتيل النعمان، ووصف كلامه، وقد كان نهاه عن منادمته:

إني نهيت ابن عمار وقلــت لـه لا تأمنن أحمر العينين والشعره

إن الملوك متى تنــزل بساحتهم تطر بنارك من نيرانهم شــرره

يا جفنة كازاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبره

وقال الشاعر (هو الجاحظ نفسه) فى مديح أحمد بن أبى داود:

وعويــص من الامــور بهيــم غامــض الشخص مظلم مســتور

قد تسنمت ما توعر منه بلسان يزينه التحبير

مثــل وشــى البرود هلهله النس ج وعنــد لحجــاج در نثــير

حســـن الصمت والمقاطع اما   أنصـت القوم والحديث يدور

ثم من بعد لحظة تورث اليس   ر وعــرض مهـذب موفـــور[1]

و- وإذ أن لكل مقام مقال فإن الجاحظ يرى أن تكون المادة اللغوية من بيئة المخطبين.

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام:

وأنا أقول في هذا قولا وأرجو أن يكون مرضيا. و لم أقل "أرجو" لأنـي أعلم فيه خلافا. ولكنني أخذت بآداب وجوه لص دعوتي وملتي ولغتي وجيرتي وهم العرب. وذلك أنه قيل لصحار العبدى: الرجل يقول لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه: أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغا مرضيا. وهو يعلـم أنه قد وفاه حقه الواجب، وتفضل عليه بما لا يجب، قال صحار: كانوا يستحبون أن يدعو للقول متنفسا، وإن يتركوا فيه فضلا، وإن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يمنعوا منه فلذلك أقلت (أرجو) فافهم فهمك الله تعالى. فإن رأيي في هـذا الضرب من اللفـظ، أن أكون ما دامت في المعاني التي هي عبارتها. والعادة فيها أن ألفظ بالشـيء العتيد الوجود، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلـة. وأرى أن ألفظ المتكلمين ما دامت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهـم عنـي، وأخف لمؤنتهم علي.

ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بضاعتهم إلا بعد أن كـانت مشـاكلا بينهـا وبين تلك الصناعـة. وقبيح بـالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة، أو رسالة، أو في مخاطبة العوام والتجار، أو مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر. وكذلك فانه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل. ولكن مقام، ولكن صناعة شكل[2].

ز- يتحدث الجاحظ عما ينبغي للفظ وهنا يعرض لمراتب الكـلام مستنتجا من اللغة تلك المراتب وصنوفها: وكما ينبغى ان يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغـي أن

---

[1] البيان للجاحظ ص٢٢٧،٢٢٨

[2] الحيوان للجاحظ جـ٢ ص٣٦٧-٣٦٩.

يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا. فإن الوحشى فى الكلام، يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى وكلام الناس فى طبقات. فمن الكلام: الجزل، والسخيف المليح، والحسن، والقبيح، والسمج والخفيف، والثقيل وكله عربى. وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل، ولا بينهم فى ذلك تفاوت فلم ذكروا: العيى. والبكئ، والحصر، والمفحم، والخطل، والمسهب، والمسهب، والمتشدق. والمتفيهق. والمهماز، والثرثار، والمكثار، والهماز، و لم يذكروا الهجر والهذر، والهذيان. والتخليط؟ وقالوا: رجل تلقاعة (كثير الكلام) وتلهاعه (متشدق) وفلان يتلهيع فى خطبته. وقالوا: فلان يخطئ فى جوابه، ويحيل فى كلامه، ويناقض فى خبره. ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض، لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء[1].

ح- يورد الجاحظ نظرة دينية إلى فن التأليف الأدبى محذرا من فتنة القول الذى تذهب باستحسان الكلام إلى ما فوق قدره ووصية الجاحظ هنا:

(أ) تجنب وحشى اللفظ أو منقحه الشديد.

(ب) تجنب غريب المعنى.

قال بعض الربانيين من الأدباء، وأهل المعرفة من البلغاء، ممن يكره الإغراق، فى القول والتكلف والاجتلاب، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه، وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع، والذى يورث الاقتدار من التحكم والتسلط والذى يمكن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعانى الخلابة وحسن المنطق قال فى بعض مواعظه:

أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقا، صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملأ. والمعانى إذ كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت فى العيون عن مقادير صورها. وأربت على حقائق أقدارها. بقدر ما زينت، وعلى حسب ما زخرفت.

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص١٥٧،١٥٨.

فقد صارت الألفاظ فى معنى المعارض (للمعارض الملابس الحسنة تعرض فيها الجوارى الحسان) وصارت للمعانى فى معنى الجوارى. والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى. ومدخل خدع الشيطان خفى.

فاذكر هذا الباب ولا تنسه، وتأمله ولا تفرط فيه، فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف - بعد أن احتسبه حولا مجرما (كلاما) ليستكثر منه، وليبالغ فى تصفح حالة والتنقير عن شأنه -: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم، وقد خفت ان تكون منهم - إن لما راعه من حسن منطقه، ومال إليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفة!؟ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان من البيان لسحرا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا خلابة " (ولا خداع) فالقصد من ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى ولا تجعل عمك فى تهذيب الألفاظ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى. وفى الاقتصار بلاغ، وفى التوسط مجانبة للوعورة والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه. وقد قال الشاعر:

عليك بأواسط الأمور فإنها نجاة و تركب ذلولا ولا صعبا

وقال الآخر:

لا تذهبن فى الأمور فرطا لا تسألن إن سألت شططا

وكن من الناس جميعا وسطا

وليكن كلامك بين القصر والعالى، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء، ومن فتنة الشيطان[1].

ط- يناقش الجاحظ موضوع الإفهام والتفهيم فيرى أن حسن الإفهام ينتج عنه حسن التفهم ويرى الفضل هنا للمبدع على المتلقى متمثلا بنصوص:

ثم قال الله تبارك وتعالى فى باب آخر من صفة قريش والعرب: (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) وقال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال (انظر كيف ضربوا لك الأمثال)

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٥٣،٢٥٤.

وقال:(وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) وعنى هذا المذهب قال:(وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم).

وقال الشاعر في نظر الأعداء بعضهم إلى بعض:

يتعارضون اذا التقوا في موقف   نظرا يزيل مواطئ الاقدام

وقال الله تبارك وتعالى:(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) لان مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم. وكلما كان اللسان ابين كان أحمد. والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان فى الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم. هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا فى الخاص الذى لا يذكر، والقليل الذى لا يشهر. وضرب الله عز وجل مثلا نعى اللسان ورداءة البيان، حين شبه أهله بالنساء والولدان، فقال تعالى : ﴿أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين﴾ ولذلك قال النمر بن تولب:

وكل خليل عليه الرعات   والحبلات، ضعيف الملق

الرعات: القرطة، والحبلات: كل ما تزينت به المرأة من حسن الحلى، والواحدة حبلة[1] .

ى- يشرح الجاحظ تعريف العتابى للبلاغة مركز على أن المدار فى البلاغة ليس الفهم لأن الفهم يمكن الوصول إليه بغير البلاغة وإنما عنى العتابى الأفهام على مجرى كلام العرب والفصحاء:

قال أبو عثمان: والعتابى كلثوم بن عمرو، حين زعم أن كان من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام المحلول. ولمعسوله عن جهته والمصروف من حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان: فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة، واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء، وكله بيانا وكيف يكون ذلك كله بيانا، ولولا طول مخالطة السامع للعجم، وسماعه

---

[1] البيان والتبيين جـ١ ص١١/١٢.

لمفاسدِ من الكلام، لما عرفه؟ ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذى فينا. وأهل هذه اللغة. وأرباب هذا البيان، لا يستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومى والصقلى، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم، فنحن قد نفهم من جمجمة الفرس كثيرا من حاجاته، ونفهم بضغاء السنور كثيرا من إرادته. وكذلك الكلب والحمار، والصبى الرضيع؟ وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء، وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا " مكره أخاك لا بطل " و"اذا عز أخاك فهن "[1].

ك- من سمات تلوين البلاغة باللون المنطقى هذا الحديث عن أن من البيان بيان الحال وذلك مفارق للبيان الفنى:

وسائل البيان :

وجعل البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد، وإشارة. وجعل بيان الدليل الذى لا يستدل تمكينه من نفسه. واقتياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان وحشى من الدلالة. وأودع من عجيب الحكمة. فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة. على أن الذى فيها من التدبير والحكمة خبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه، كما خبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال. وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال[2].

وفى تعريف البلاغة يذكر الجاحظ تعريف الحكيم أى رجل الفلسفة وما يعقبه من تعريف سهل نجده يمثل باستحسانه البيانى تعليلا منطقيا ودلالة هذا أن صيغ البلاغة هنا فلسفى: وقيل لرجل من الحكماء: ما جماع البلاغة؟ قال: ما مغرمة السليم من المعتل، وفصل ما بين المضمن والمطلق، وفرق ما بين المشترك والمفرد، وما يحتمل التأويل من المنصوص المقيد. وقال سهل بن هارون فى كتاب له: واجب على ذى مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها، كما بدأ بالنعمة قبل استحقاقها[3].

---

[1] البيان للجاحظ جـ1 ١٧٣،١٧٤.

[2] البيان للجاحظ جـ2 ص٣٣-٣٥.

[3] الحيوان للجاحظ جـ2 ص١٠٣-١٠٥.

م- يروى الجاحظ روايات عن مناهج فى الإبداع الأدبى ويتوقف عند خطيب عربى بدأ موهوبا ناضجا بينما العادة أن يبدأ الموهوب متعثرا ينضج مع الزمان. وقال شبيب ابن شيبه. الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ويمدح صاحبه. وأنا موكل بتفضيل جودة القطع ويمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وان كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت. ثم قال شبيب. فإن ابتليت بمقام لابد لك فيه من الإطالة، فقدم أحكام البلوغ فى طلب السلامة من لحن قبل التقدم فى أحكام البلوغ فى شرف التجويد. وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا، فإن قليلا كافيا خير من كثير غير شاف. ويقال إنهم لم يروا قط خطيبا بلديا إلا وهو فى أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيام رياضته كلها، إلى أن يتوقح. وتستجيب له المعانى. ويتمكن من الألفاظ لا شبيب بن شيبه فإنه ابتدأ بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة، ولم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثير[1] .

ن- وحكم المعانى والألفاظ عند الجاحظ تجمعها صفات حسن تندرج كلها تحت حسن البيان.

باب البيان:

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى أذهانهم، والمتخلجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية. وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه لا بغيره وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها وهذه الخصال هى التى تقربهم من الفهم. وتجليها للعقل، وتجعل الخفى منها ظاهرا، والغائب شاهد، والبعيد قريبا. وهى تخلص الملتبس، وتحل المتعقد، وتجعل المهمل مقيدا. والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشى مألوفا. والغفل موسوما، والموسوم معلوما. وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الاشارة، وحسن الاختصار ودقة

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص١٢٥.

المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وافصح، وكانت الاشارة ابين وانور، كان انفع وانجح. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى، هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو اليه، ويحث عليه. وبذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب. وتفاضلت أصناف الأعجام.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير. حتى يفضى السامع إلى حقيقته. ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن اى جنس كان ذلك الدليل. لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، البيان. ومن أى جنس كان ذلك الدليل. لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام. فبأى شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع. ثم اعلم حفظك الله أن حكم خلاف حكم الألفاظ، ولأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية. وأسماء المعانى متصورة معدودة ومحصلة محدودة. وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ ومن غير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد ثم الخط، ثم الحال، تسمى " النصبة " والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات[1] ولكل واحد من هذه الخمسة صور بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهى التى تكشف لك أعيان المعانى فى الجملة، ثم عن حقائقها فى التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها فى السار و الضار. وعما يكون منها لغوا برجا وساقطا مطرحا [2] .

ورد الجاحظ نصوصا من البيان الحسن الذى يندرج تحت حسن التخلص من معنى إلى آخر:

لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح فى موضع الإفصاح،

---

[1] تبع قدامه الجاحظ فى هذا .

[2] البيان للجاحظ جـ١ ص ٩٠، ٩١.

والكتابة في موضع الكتابة، والاسترسال في موضع الاسترسال، واذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الأعراب، انقلب عن جهته وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة والجزالة، صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكر بها ويأخذ بأكظامها[1].

ع- ويحلل الجاحظ تحليلا نفسيا ما يجرى في عملية الإبداع الفني محذرا من فتنة الأديب بأدبه وموصيا بأن ينقد الأديب نفسه قبل أن يتعرض لنقد المتلقين: وينبغى لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء. وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له ثم لا يرضى بالرأى الفطير لابتداء الكتاب فتنة وعجبا فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فيتوقف عند فصوله توقف يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ويتفهم قول الشاعر:

إن الحديث يغر القوم خلابة حتى يلج بهم عى واكثار

ويقف عند قولهم في المثل: كل مجر في الخلاء يسر، فيخاف أن يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته. وليعلم أن صاحب العلم يعتريه ما يعترى المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة. لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأى في الإكثار، وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

واعلم أن العاقل وإن لم يكن بالمتتبع، فكثيرا ما يعتريه من ولده، أن يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب نسبا منه من ابنه، وحركته أمس به رحما من ولده، لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وإنما المولد كالمخطة يتمخطها، والخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من جزئك لم

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ٣٩.

يكن منك، وإظهارك حركة لم تكت حتى كانت منك، ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنة كلامه وكتبه، دون فتنته بجميع نعمته[1]. ويبدى الجاحظ عناية شديدة بالتآلف النغمى فالتلاؤم يكون في التعبير كما يكون فى بنية الكلمة ذاتها.

قال: نوفل بن سالم لرؤبة بن العجاج، يا أبا الجحاف، مت متى شئت!! قال: وكيف ذلك؟ قال: رأيت عقبة بن رؤبة ينشر رجزا أعجبنى. قال أنه يقول لو كان لقوله قران. وقال الشاعر:

قهاربة مناجية قران　　　مناديبة كأنهم الاسود

وأنشد ابن الأعرابى:

ونات يدرس شعرا لاقران له　　　قد كان ثقفه حولا فما زادا

وقال بشار:

فهذا بديه لا كتحبير قائل　　　إذا ما أراد القول زوره شهرا

فهذا فى اقتران الألفاظ. فأما اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء، ولا السين، ولا الصاد، ولا الذال بتقديم ولا تأخير. وهذا باب كثير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل على الغاية التى إليها يجرى[2].

ظ– من هذا الباب أيضا العناية بالتآلف النغمى ذكر عيون النطق وعيوب الخطباء: ذكر الحروف التى تدخلها الثقة وما يحضرنى منها[3] عيوب الخطباء (اللجلاج، التمام....)[4].

ق– وفى باب النظم من زاوية النطق نلتقى بحديث الجاحظ الفنى عن تآلف الحروف وتنافرها ودوران هذا التنافر أو التآلف مع الطبع والتكلف وهذا الحديث الموسيقى

---

(1) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ٨٨، ٨٩.

(2) البيان للجاحظ جـ١ ص٨٣، ٨٤.

(3) البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص٥٠،٥٥.

(4) المرجع السابق جـ١ ص٢٩،٣٢.

ينسجم مع حديثه التشكيلى من أنه يفسر هنا شواهده الأدبية. ثم قال (أى محمد بن يسير):

لم يضــرها والحمـد لله شئ　　　　وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض.

وأنشد الاحمر فى هذا المعنى:

وبعض قريض القوم أولاد علة　　　　بكـد لســان الناطــق المتحفظ

وأنشد فى ذلك أبو البيداء الرياحى:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه　　　　لســان دعى فى القريض دخيل

أما قول خلف " وبعض قريض القوم أولاد عله " فانه يقول:

إذا كـان الشعر مســتكرهــا　　　　وكانت ألفاظ البيت من الشـعر

لا يقع بعضه مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤنة وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج. فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا. وسبك سبكا واحدا. فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان. وأما قوله " كبعر الكبش " فإنما ذهب إلى بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة ملساء ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة متنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية، سلسلة النظام خفيفة على اللسان حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد[1].

ر- ويشير الجاحظ إلى صعوبة الممارسة الأدبية وما ينبغى فى سياسة البلاغة من تدبر وإنضاج للأدب متمهل: وكان سهل بن هارون يقول سياسة البلاغة أشد من البلاغة، كما أن المتوفى على الدواء أشدا من الدواء وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت، وبالتحرر

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٨١،٨٢.

من زلل الكلام، ومن زلل الرأى الدبرى والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأى الأول وفوات استدراكه[1].

ش– يصف الجاحظ ما يدعه من الرسائل: رسالة فصل بين العداوة والحسد. ولربما خرج الكتاب من تحت يدى محصفا كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة، وألفاظ شريفة فصيحة[2].

ت– ويتنبه الجاحظ إلى الطبيعة الفنية التي تجيد في الشكل القصير ولا تجيد في الطويل أو هي قد تجمع بينهما نادرا:

خير قصار القصائد:

وإن أحببت أن تروى من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله، فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق، فإنك لم تر شاعرا قط يجمع التجويد في الطوال والقصار غيره. وقد قيل للكميت: إن الناس يزعمون أنك لا تقدر على القصار: قال: من قال الطوال فهو على القصار أقدر. هذا الكلام يخرج من ظاهر الرأى والظن، و لم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال[3].

ث– وفي معرض حديث رائع عن الطبيعة الفنية يورد الجاحظ أولا ما يبين عن طبيعة سمحة تلقائية في تأليف الكلام بعضه مع بعض وأن بعض الأذواق كانت تنفر من الشعر المصنوع، وهذا الحديث عن الطبيعة الفنية يشمل المبدع والمتلقى كليهما ويشير الجاحظ إلى أن هذه الطبيعة الفنية قد تستعصى على الأديب المطبوع حينا وتواتيه حينا آخر وفي رأيي أن هذا حديث في عملية الإبداع الفنى بدأها بالمظهر الخارجي وهو الأدب وانتهى بها إلى المنبع الداخلى وهو الإحساس الوجدانى: وقال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبم ذاك؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه. وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدى فقال: مطرف بآلاف (المطرف: رداء من خز مربع

---

[1] رسائل الجاحظ جـ١ ص٢٠٤.

[2] الحيوان للجاحظ جـ١ ص٣٥١.

[3] الحيوان للجاحظ جـ٣ ص٩٨.

ذو أعلام) وحمًا بواف (لخمار. التصيف وهو الذى تغطى بـه المرأة رأسـها ووجهها والوافى الدرهم ومقداره درهم وأربعة دوانق) وكان الأصمعى بفضله من أجـل ذلـك، وكان يقول: الحطيئة عبد لشعره هاب شعره حين وجـده كلـه متخيرا منتخبـا مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه. وقالوا لو كان شعر صانع بن عبد القدوس وسابق البربرى - كان مغرما فى أشعار كثـيرة - لصـارت تلـك الأشـعار أرفـع مما هـى عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة فى الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر، و لم يكن لذلك النظام عنده موقع.

وقال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول فى كل ساعة قصيدة، وأنت تقرضها فى كـل شهر فلم ذلك؟ قال لأنى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك. قـالوا: وأنشـد عقبه بن رؤبة أباه رؤبة بن العجاج شعرا وقال لـه: كيـف تـراه؟ قـال لـه: يـا بنـى إن أبـاك ليعرض له مثل هذا يمينا وشمالا فما يلتفت إليه. وقد رووا ذلك فى زهير وابنه كعب. وقيل لعقيل بن علقه: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بـالعنق. وقيـل لأبـى المهوس: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثل النادر إلا بيتا واحدا، وقـال مسـلمه بـن عبـد الملك لنصيب: يا أبا محجن أما تحسن الهجاء!؟ قال: أما ترانى أحسـن مكـان عافـاك الله: لا عافاك الله...؟! ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة فقال: أنـا علـى القصـار أقـدر. وقيـل للعجاج: مالك لا تحسن الهجاء؟ قال: هل الأرض صانع إلا هو علـى الإفسـاد أقـدر؟ وقـال رؤبه: الهدم أسرع من البناء. وهذه الحجج التى ذكروها عـن نصيـب والكميـت والعجـاج ورؤبه، إنما ذكروها على وجه الاجتمـاع لهـم وهـذا منهـم جهـل، إن كـانت هـذه الأخبـار صادقة وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس لـه طبيعـة فـى الفلاحـة ، ويكـون لـه طبيعة فى الحداء، أو التعبير (لتغيير ترديد الصوت بالقراءة وبعـض الأناشـيد. سمـوا بـالمعنى لأنهم بقراءتهم وتهليلهم وأناشيدهم يرغبون النـاس فـى الغـابرة وهـى الباقيـة وهـذا مقامهـا اللائق بها) أو فى القراءة بالألحان وان كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تـأليف اللحـون. ويكون له طبيعة فى الناى ولا يكون له طبيعة السـرناى، ويكـون لـه طبيعـة قصبـة الراعـى، وليس له طبيعة فى القصبتين المضمومتين، ويكون له طبع صناعة اللحون، ولا يكون له طبـع فى غيرها، فى تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع فى قرض بيت شـعر.

. ومثل هذا كثير جدا. وكان عبد الحميد الأكبر (هو عبد الحميد بن يحيى) وابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله، وقيل لابن المقفع فى ذلك. فقال: الذى أرضاه لا يجيئنى، والذى يجيئنى لا أرضاه. وهذا الفرزدق - كان مستهترا بالنساء زير غوان - وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور. ومع حسده لجرير - وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط - وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا.

وفى الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز. ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد. ومنهم من يجمعهما: كجرير. وعمر بن لجأ، وأبى النجم، وحميد الأرقط، والعمانى. وليس الفرزدق فى طواله بأشعر منه فى قصاره وفى الشعراء من يخطب، ومنهم لا يستطيع الخطابة. وكذلك حال الخطباء. وكذلك حال الخطباء فى قرض الشعر. وشاعر نفسه قد تختلف حالاته. وقال الفرزدق أنا عند الناس أشعر الناس، وربما مرت عنى ساعة ونزع ضرسى أهون على من أن أقول بيتا واحدا. وقال العجاج: لقد قلت أرجوزتى التى أولها:

بكيت والمحنون للبكى   وإنما يأتى الصبا الصبى

أطربا وأنت قنسرى   والدهر بالإنسان دورى

وأنا بالرمل فانثالت على قوافيها انثيالا، وإنى لا أريد اليوم دونها فى الأيام الكثيرة فما أقدر عليه. وقال لى أبو يعقوب الخريمى خرجت من منزلى أريد الشماسية فابتدأت القول فى مرثية لأبى التختاخ فرجعت وا لله وما أمكننى بيت واحد. وقال الشاعر:

وقد يقرض الشعر البكى لسانه   وتعيى القوافى المرء وهو خطيب[1]

فى التلقى :

(أ) اختلاف الأذواق بين الطبع والصنعة :

وفى مجال الذوق نرى التخالف بين محبى الأدب التلقائى والأدب المصنوع فالأول

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٢١٢،٢١٣،٢١٦.

عند البعض دليل على الطبع والثانى دليل على التكلف ولكن الجاحظ يفصل دواعى الصنعة وكأنه يرى أن ليس فى التجويد والتصنيف ما ينافى الطبع: ولا الحاجة بنا مع هذه الفقرة إلى الزيادة فى الدليل على ما قلنا. ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولى المحكك (الذى مضى عليه الحول تهذيبا وتنقيحا). وكان الأصمعى يقول: زهير بن أبى سلمى، والحطيئة، وأشباههما: عبيد الشعر. وكذلك كل من يجود فى جميع شعره. ويقف عند كل بيته قال وأعاد فيه النظر، حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة. وكان يقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم، واستفرغ مجهودهم، حتى أدخلهم فى باب التكلف، وأصحاب الصنعة، ومن يتلمس قصر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهوا ورهوا، وتنثال عليهم انثيالا.

وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى، ورؤبة ولذلك قالوا فى شعره: مطرف بآلاف وحمار بواف. وكان يخالف فى جميع ذلك الرواة والشعراء. وكان أبو عبيدة يقول - ويحكى ذلك عن يونس: زمن تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة فى قصائد السماطين، وبالطوال التى تنشد يوم الحفل. لم يجد بد من صنيع زهير، والحطيئة وأشباههما. وإذا قالوا فى غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود. ولم نرهم مع ذلك سيتعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد، وفى صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور، بيتوه فى صدورهم، وقيدوه على أنفسهم فإذا قومه. الثقاف، وأدخل الكير وقام على الخلاص، أبرزه محككا منقحا، ومصفى من الادناس مهذبا[1] .

(ب) قياس جودة الكلام:

وفى صفة الأثر النفسى للأدب يستخرج تعبيرات النقاد مقاييس الجودة الأدبية وهذا منهج لغوى يعالج به الجاحظ قضايا البلاغة: وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعانى، ويقولون: أصاب الهدف. إذا أصاب الحق فى

[1] البيان الجاحظ جـ٢ ص١٢،١٣.

الجملة. ويقولون: قطس فلان، وأصاب القرطاس. إذا أجود إصابة من الأول. فإذا قالوا رمى فأصاب القرة، وأصاب عين القرطاس فهو الذى ليس فوقه أحد. ومن ذلك قولهم: فلان يفل المحز. ويصيب المفصل، ويضع الهناء مواضع النقب[1].

(جـ) اختلاف الأذواق فى استعمال الألفاظ :

يعرض الجاحظ للذوق واختلافه فى التخير اللفظى مبينا أن لكل بيئة ألفاظها ومتوقفا عند ذوق العامة الذى قد يشيع فيهم ما هو أقل جودة وهذا من غرائب الأذواق الفنية: وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة منهم من العرب ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر. وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حالة القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر. لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة، لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر: الأبصار لم يقل: الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات. لم يقل: الأرضين، ألا تراه لا يجمع الارض أرضين، ولا السمع أسماعا؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك. لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أن لم يجد ذكر لفظ النكاح لا فى موضع التزويج. والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالا، وتدع ما هو أظهر وأكثر. ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار، ولم يسر ما هو أجود منه. وكذلك المثل السائر. وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية فى الشهرة. ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه[2].

(د) المعانى:

وفى الذوق الأدبى للأمة يرى الجاحظ أن معان بأعيانها يقبلها ذوق أمة فى تعبير ما ولا يقبلها فى تعبير آخر من أمة أخرى وذلك أن لكل بليغ بل ولكل أمة قاموسها الأثير بها:

---

(1) البيان للجاحظ جـ١ ص١٦٠،١٦١.

(2) البيان والتبيين جـ١ ص٣٦،٣٨.

ما تستنكره العامة من القول:

وتقول العرب: الشمس أرحم بنا فإذا سمع السامع منهم أن جالينوس قال: عليكم بالبقة الرحيمة - يريد السلق - استشنعه السامع، وإذا سمع قول العرب: الشمس أرحم بنا. وقول أمية:" ما أرحم الارض الا أننا كفر " لم يستشنعه وهما سواء، فاذا سمع أهل الكتاب يقولون: ان عيسى بن مريم أخذ فى يده اليمنى غرفة، وفى اليسرى كسرة خبز، ثم قال: هذا أبى للماء، وهذه أمى لكسرة الخبز استشنعه، فاذا سمع قول أمية:

والأرض نوفها الإله طروقة   للماء حتى كل زند مسفدز

لم يستشنعه. والأصل فى ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ فى كتبهم، وأصحاب تهويل، لأنهم حين قدموا المعانى و لم يكن عندهم فيها. طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيرا.

حظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس :

ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم. وكذلك كل بليغ فى الأرض وصاحب كلام موزون. فلابد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها، ليديرها فى كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعانى، كثير اللفظ. فصار حظ الزنادقة من الالفاظ التى سبقت إلى قلوبهم، واتصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم، التناكح، والتناتج، والمزاج والنور والظلمة، والدفاع والمناع والساتر والغامر، والمنحل، والبطلان، والوجدان، والأثير، والصديق، وعمود السبح. وأشكالا من هذا الكلام. فصار وإن كان غريبا مقروضا مهجورا عند أهل ملتنا ودعوتنا. وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا تجرى على معانى ألفها المخاطبون:

ومن الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معانى أهله، وإلى قصد صاحبه، كقول الله تبارك وتعالى:﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ وقال ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ وسئل عن قوله:﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقال: ليس فيها بكرة ولا عشى. وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ قالوا لم يشك. ولم يسل[1] .

---

[1] البيان والتبيين جـ٢ ص٢٨١.-

وفي جانب التأثير النفسي للنص الأدبي يرى الجاحظ أن ما خرج مـن القلـب يقـع في القلب مهما اختلفت مراتب المخاطبين هذا شأن الكـلام البليـغ وللكـلام السـاقط معنى ولفظا تأثيره النفسي أيضا وهذا من طريف الجمع بين المتناقضات في طبائع الأذواق الأدبية.

ر- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كل إنسان ما يحسن. فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة، لوجدناها كافية شافية، ومجزية مغنية بل لوجدناها فاضلـة على الكفاية، وغير مقصرة على الغاية. وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كـان المعنـى شـريفا واللفـظ بليغـا. وكـان صحيح الطبع بعيدا لاستكراه، ومنزها عن الاختلال. مصونـا عـن التكلـف، صنـع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة. ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريعة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهم عقول الجهلة. وقد قال عـامر بـن عبـد القيس: الكلمة إذا خرجت من القلب، وقعت في القلب. وإذا خرجت من اللسـان، لم تجاوز الآذان. قال الحسن رضي الله تعالى عنه - وسمع متكلما يعظ فلـم تقـع موعظتـه بموضع من قلبه و لم يرق عندها -: يا هذا إن بقلبك لشرا أو بقلبي!

ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط، يعشش في القلب، ثـم يبيـض، ثم يفرخ. فإذا ضرب بجرانه، ومكن لعروقه، استفحل الفساد وبزل (استحكامات قوته)، وتمكن الجهل ومرح (بلغ أشده) فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنـع دواؤه، ولأن اللفـظ الهجـين الرديء، والمستكره العيي، أعلق باللسان، وآلف للسمع، وأشد التحامـا بـالقلب، مـن اللفـظ النبيه الشريف، والمعنى الرفيع الكريم. ولو جالست الجهـال والنوكـى والسـخفاء والحمقـى شهرا فقط، لم تنق من أوضار كلامهم. وخبال معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهـرا. لأن الفساد أسرع الناس، وأشـد التحامـا بالطبـائع. والإنسـان بـالتعلم والتكلـف، وبطـول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء، يجود لفظه، ويحسن أدبه.

- (من الآية ٦٤ من يونس. وقراءة " فسل " هي قراءة ابن كثير والنسائي وخلف وقرأ الجمهور " فاسأل " اتحاف فضلاء البشر ٢٥٤)

وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التخير. وقال محمد بن علي بن عبد الله عباس: كفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثن وكان الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفى من سوء فهم السامع. قال أبو عثمان: وأما أنا فأستحسن هذا القول جدا[1].

ز– مدى استجابة الناس للإنتاج الفنى دليل جودته! ومن معايير الجودة انضاحه على مهل.

وصية الأديب:

فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتنسب إلى هذا الأدب، فقرضت أو حبرت خطبة، أو ألفت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، ويدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدعيه، ولكن أعرضه على العلماء في عرض الرسائل أو أشعار أو خطب. فإن رأيت الأسماع تصغى له والعيون تحدج اليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه، فانتحله. فإن كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تكلفك، فلم تر له طالبا ولا مستحسنا، فلعله أن يكون – ما دام – بغيا قضيبا (لم يتم كماله) تعنيسا (فات وقته) أن يحل عندهم محل المتروك، فإن عاودت أمثال ذلك مرارا فوجدت الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية فخذ في غيره هذه الصناعة، واجعل رائدك الذى لا يكذبك، حرصهم عليه، أو زهدهم فيه. وقال الشاعر:

إن الحديث تغر القوم خلوته   حتى يلج بهم عى واكثار

وفى المثل المضروب " كل مجر فى الخلا مسر " (هذا مثل يضرب لمن يعث خيله في الصحراء على غير مشهد من الناس فيحسبها اذ أرسلت في ميادين السباق سبقت وفازت فيسره هذا الوهم فتكون العاقبة على غير ما يسره). ولم يقولوا مسرور. وكل صواب. فلا تثق في كلامك برأى نفسك. فانى ربما رأيت الرجل متماسكا وفوق المتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره. وفي كلامه، وفي ابنه، رأيته متهافتا وفوق المتهافت. وكان زهير بن أبى سلمى وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده (الحوليات) وقال الحطيئة: خير الشعر الحولى المنقح، وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٩٧،٩٨،١٠٠،١٠١.

الناس: إنى وا لله ما أرسل الكلام قضيبا خشيبا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك[1].

ح- يتحدث الجاحظ عن الذوق الأدبى العربى يستحسن تلازم بين اللفظ والمعنى ويجرى على التوسع فى التعبير الأدبى: وقال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: و لم؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه. وتقول البيت وابن عمه، وعاب رؤبه شعر ابنه عقبه فقال ليس له قران، وجعل البيت أخا البيت اذا أشبهه وكان حقه أن يوضع فى جنبه. وعلى ذلك التأويل قال الأعشى:

أبا سمع أقصر فان قصيدة　　　متى تأتكم تلحق بها أخواتها

قال الله عز وجل ﴿وما نريهم من آية الا هى أكبرر من أختها﴾.

وقال عمرو بن معد يكرب:

وكـل أخ مفارقـه أخوه　　　لعمـر أبيـك الا الفرقدان

وقالوا فيما هو أبعد معنى، وأقل لفظا، قال الهذلى:

أعامر لا آلوك الا مهنـدا　　　وجدد أبى عجل وثيق القبائل

وقالوا ما هو أبعد من هذا، قال ابن عسلة الشيبانى، واسمه عبد المسيح.

وسـماع مدجنـه تعللنا　　　حتـى ننـام تنـاوم العجم

فصحوت والنمرى يحسبها　　　رغم السـماك وخانـة النجم

وقال أبو النجم فيما هو أبعد من هذا ووصف العير والمعيور الموضع الذى يكون فيه الأعيار:" وظل يوفى الاكم ابن خالها "

شهدت بأن التمر بالزبد طيب　　　وأن الحبارى خالة الكروان

فهذا مما يدل على توسعهم فى الكلام، وحمل بعضه على بعض، واشتقاق بعضه من بعض. وقال النبى صلى الله عليه وسلم" نعمت العمة لكم النخلة " كان بينها وبين

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٢١٠، ٢١١.

الإنسان تشابه وتشاكل من وجوه وقد ذكرنا في " كتاب الزرع والنخل " وفى مثل ذلك قال بعض الفصحاء: لان الحبارى، وان كانت أعظم بدنا من الكروان. فان اللون وعمود الصورة واحد، فلذلك جعلها خالته،ورأى أن ذلك قرابة تستحق بها هذا القول[1].

ثالثا: في الفنون الأدبية :

أ- والجاحظ واع تماما وهو يسجل الآراء الفنية فى الإبداع أو التلقى لوظيفة الفنون الأدبية فى عصره وقد صرح لنا من تلك الفنون الأدبية التى عنى بها النص القرآنى فى المقام الأول فالحديث النبوى والخطابة والشعر والرسائل.

ب- لا يدرج الجاحظ القرآن كنص أدبي تحت أى فن من الفنون ولكنه يراه قرآنا فحسب: ولابد من أن نذكر فيه (أى فى الجزء الثانى من البيان والتبيين) أقسام تأليف جميع الكلام. وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع. وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج[2].

ج- يحلل الجاحظ من فنون كلام الرسول ما قلت حروفه وكثرت معانيه مع جريانه والصدق:

فنون من الكلام :

وأنا على ذكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم وهو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه. وجل، عن الصنعة. ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد " وما أنا من المتكلفين فكيف وقد عاب التشديق " وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق! وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام،

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٣٣، ٢٣٤.

[2] البيان للجاحظ جـ١ ص٣٥٩.

ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب. بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب، ولا يحصر.

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا. ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتطرف والمتكلف للغناء ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في الموضع التي يذمونها[1].

د- يمثل الجاحظ لتعابير الرسول التي صارت مثلا ثم يقوم بيانيا كلام الرسول موازنا بينه وبين الشعر وخالصا في النهاية إلى اتصاف الرسول بالإيجاز والصدق في بيانه.

وسنذكر من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، مما لم يسبقه إليه عربي، لا شاركه فيه أعجمي، ولم يدع لاحد ولا ادعاء أحد، مما صار مستعملا ومثلا سائرا. فمن ذلك قوله:" يا خيل اركبي " وقوله:" مات حتف انفه "، وقوله:" الآن حمي الوطيس "... ومن ذلك قوله " لا يلسع المؤمن من جحر مرتين ". ألا ترى أن الحارث بن حدان، حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب، قال:" أيها الناس اتقوا الفتنة، فإنها تقبل بشبهة، وتدبر ببيان، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين " فضرب بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل.

وقال ابن الأشعث لأصحابه. وهو على المنبر:(قد علمنا إن كنا نعلم. وفهمنا أن كنا نفهم، أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين، وقد والله لسعت بكم من جحر ثلاث مرات، وأنا أستغفر الله من كل ما خالف الايمان، وأعتصم به من كل ما قارب الكفر).

وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذى قل عدد

---

[1] البيان للجاحظ جـ٢ ص١٦، ١٧.

حروفه وكثرت معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكليف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: (وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب (كالتقعير وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه)، واستعمل - المبسوط في موضع البسط، والمصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي، رغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة، رشيد بالتأييد. ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول. وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم. ولا بارت له حجة. ولم يقم له خصم. ولا أفحمه خطيب، بل يبز الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج الا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة. ولا يهمز ولا يلمز (الهمز: العيب في الغيبة، واللمز: العيب في الحضرة)، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم.

قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: " ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

هـ-وقد جمعت لك في هذا الباب جملا التقتناها من أفواه أصحاب الأخبار. ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره. كلا والذى حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، ما يظن هذا إلا من ضل سعيه!

فمن كلامه صلى الله عليه وسلم حين ذكر الأنصار فقال: أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع، وقال: " الناس كلهم سواء كأسنان المشط" و"المرء كثير بأخيه " و " لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له " وقال الشاعر:[1]

---

[1] الشاعر كثير عزة.

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لدى شيبة منهم على ناشيء فضلا

وقال آخر:

شـبابهم وشـيبهم سـواء فهم في اللوم أسـنان الحمـار

وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين. وقال صلى الله عليه وسلم: " المسلمون تتكافأ دمائهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم " فتفهم رحمك الله، قلة حروفه، وكثرة معانيه. والذى يدلك على أن الله عز وجل قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ، مع كثرة المعاني، قوله صلى الله عليه وسلم: " نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم" ومما رووا عنه صلى الله عليه وسلم من استعماله الأخلاق الجميلة، والافعال الشريفة وكثرة الأمر بها، والنهى عما خالف عنها، قوله: " من لم يقبل من متنصل عذرا صادقا كان أوكاذبا لم يرد على الحوض " وقال في آخر وصيته: (اتقوا الله في الضعيفين)[1].

و- وهنا نص ثرى يشير فى بدايته الجاحظ إلى السمة الدينية للخطب والتى إن خلت من العنصر الدينى سميت شوهاء وبتراء ثم يبين أن من الخطب طوال وقصار ولكل مقامه وان كان يميل إلى القصار تبعا للذوق العربى ومن هنا عنايته بايراد النصوص الأدبية الموجزة لبلاغتها فى الدلالة ويعرض لمشاكله للفظ للمعنى وما يتركه اللفظ بخصائصه من اثر فى النفس ويشير الجاحظ بعدئذ إلى سيرة الفنان لدى جمهوره وأثرها فى الاستجابة الفنية ثم ينهى نصه بثلاثة العناصر اللفظ والمعنى والطبع بين السلف والمولدين:

وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، مازالوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ويستفتح كلامه بالتمجيد: " البتراء " ويسمون التى لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم " الشوهاء ". ثم أعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر، والوبر، والبدو، والحضر، على ضربين:

---

[1] البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٥/١٦، ص ١٦-١٩، ٢٨. والضعيفان هما النساء والاطفال.

منها الطوال ومنها القصار. ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومشاكلا في استواء الصنعة. ومنها ذات الفقر الحسان، والنتف الجياد، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حظها التخليد في بطون الصحف. ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع وقد أعطينا كل شكل من ذلك قسطه من الاختيار ووفينا حقه من التمييز، ونرجو أن لا نكون قصرنا في ذلك والله الموفق. هذا سوى ما رسمنا في كتابنا هذا من مقطعات كلام العربّ الفصحاء، وجمل كلام الأعراب الخلص وأهل اللسن من رجالات قريش والعرب أهل الخطابة من أهل الحجاز، ونتف من كلام النساك ومواعظ من كلام الزهاد، مع قلة كلامهم وشدة توقيهم، ورب قليل يغني عن كثير، كما أن رب كثير لا يتعلق به صاحب القليل. بل رب كلمة تغني عن خطبة، وتنوب عن رسالة. بل رب كناية تربي على إفصاح، ولحظ يدل على ضمير وإن كان ذلك بعيد الغاية على النهاية.

ومتى شاكل- أبقاك الله- ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا، ولذلك القدر لفقا وخرج عن سماجة لاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع. وبانتفاع المستمع، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العايبين، ولا تزال القلوب به معمورة: والصدور مأهولة. ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخيرا في جنسه وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الريض.

فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة، ومصلحة حال الخاصة، وكان ممن يعم ولا يخص ، وينصح ولا يغش، وكان مشغوفا بأهل الجماعة شنفا (المبغض المنكره) لأهل الاختلاف والفرقة، جمعت له الحظوظ من أقطارها، وسيقت إليه القلوب بأزمتها. وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجبلت على تصويب إرادته. ومن أعاره الله من معرفته نصيبا، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا، حسنت إليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ.

وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف، وأراح القارئ الكتاب من علاج التفهم. ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح، ألفاظ مسحوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعا رديا ولا قولا مستكرها. وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين. ومن أهل الصنعة المتأدبين. وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التخير والتفكر.

ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمنا طويلا، يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه فيجعل لعقله زماما على رأيه ورأيه عيارا على شعره، اشفاقا على أدبه وإحرازا لما خوله الله من نعمة، وكانوا يسمون تلك القصائد: "الحوليات" و"المقلدات" و"المنقحات" و"المحكمات" ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعر مفلقا. وفي بيوت الشعر الأمثال والأوابد" ومنها الشواهد، ومنها الشوارد والشعراء عندهم أربع طبقات: فأولهم الفحل الخنذيد. والخنذيد هو التام. قال الأصمعي: قال رؤبة: هم الفحولة الرواة. ودون الفحل الخنذيد: لشاعر المفلق ودون ذلك: الشاعر فقط. والرابع الشعرور[1].

ز- في باب الخطابة بالذات يعيب الجاحظ مظاهر التكلف مستنصرا بحديث الرسول يحلله ويفسره:

وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: " إياى والتشادق " وقال: " أبغضكم إلى الثرثارون والمتفيهقون " وقال: " من بدا جفا ". وعاب الفدادين والمتزيدين، في جهارة الصوت وانتحال سمة الإشداق، ورحب الفلاصم وهدل الشفاه، وأعلمنا أن ذلك في أهل الوبر أكثر، وفي أهل المدر أقل- فإذا عاب المدرى بأكثر مما عاب به الوبرى فما ظنك بالمولد القروى والمتكلف البلدى. فالمحصر المتكلف والغبى المتزيد ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده. وهو أعذر لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى. فمن أسوء حالا- ابقاك الله- ممن يكون ألوم من المتشدقين، ومن الثرثارين المتفيهقين، وممن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصا، وجعل النهي من مذهبه مفسرا، وذكر مقته له وبغضه إياه[2].

---

[1] البيان للجاحظ جـ ٢ ص ٤-٩.

[2] البيان والتبين جـ ١ ص ١٣-١٤.

ح- يسوق الجاحظ رواية عن أبي عبيدة تبين منزلة الفنون الأدبية فى العصور المختلفة وبخاصة فنى الشعر والخطابة:

مقامات الشعراء فى الجاهلية والإسلام :

كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج، لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء، وكثر الشعر، صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر. والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه، وهاجم قوم فردوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعض من هجاهم مخافة التعرض لهم، وسكتوا عمن هجاهم مخافة التعرض رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم. وهم فى الإسلام: جرير والفرزدق والأخطل. وفى الجاهلية: زهير وطرفه، والأعشى، والنابغة. هذا قول أبي عبيدة[1] .

ط- حديث تاريخى لأبى عمرو بن العلاء عن دوران منزلة الشاعر والخطيب مع ظروف الزمان: وقال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب، بفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبه، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس – صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذلك فى الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة[2] . قال : ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى، ولو كان فى الدهر الاول ما ازده ذلك الا رفعة.

ى- بنظرة ناقدة لا تتحيز للقديم لقدمه يرى الجاحظ أن طرديات أبى نواس من أرفع فنون شعره لجريانها مع الطبع: وأنا كتبت لك رجزه من هذا الباب، لأنه كان عالما راوية، كان قد لعب بالكلاب مستقصاه فى أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضلته. لا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٣٧٢.

[2] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٤٤.

أنْ أهل البدو، أبدا أشعر. وأن المولدين لا يقاربونهم في شئ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل، ما دمت مغلوبا[1] .

ك– ويتمثل الجاحظ من فن الشعر ما امتزج فيه أكثر من فن كالفخر والمديح والهجاء: يضاف إلى باب الخطب. وإلى القول في تخليص المعاني والخروج من الأمر المشبه بغيره، قول حسان بن ثابت:

إن خالى خطيب جابية الجو ... لأن عند النعمان حين يقوم

وهو الصقر عند باب ابن سلمى ... يوم نعمان في الكبول مقيم

وسطت نسبتي الذوائب منهم ... كل دار فيها أب لى عظيم

وأبي في سميحة القائل الفا صل يوم التفت عليه الخصور

يفصل القول بالبيان ذو الرأ ... ى من القوم طالع مكموم

تلك أفعاله وفعل الزبعرى ... خامل في صديقه مذموم

رب حلم أضاعه عدم المال وجهل غطى عليه النعيم

ولى الناس منكم أبيتم ... أسرة من بنى قصئ صميم

وقريش يحول منا لو إذا ... أن يقيموا وخف منها الحلوم

لم يطق حمله العوالق منهم انما يحمل اللواء النجوم[2]

ل– ولشعراء العرب نظرة فنية للشعر والخطابة وتخليص المعاني فيها ومقاماتها ودلالتها الفنية على أصحابها من طبع وتكلف: قال أخبرني محمد بن عياد بن كاسب كاتب زهير، ومولى بجيلة من سبي وأبق - وكان شاعرا راوية، وطأ به للعلم علامة - قال: سمعت أبا داؤد بن جرير يقول - وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه (ارتجاله وحذف فضوله) وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال:" تخليص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ٢ ص٢٧.

[2] البيان للجاحظ جـ٣ ص٣٤٩.

الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب " وسمعته يقول " رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة وجناحان رواية الكلام وحليها الإعراب (زينتها الإفصاح) وبهاؤها تخير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه، وأنشدني بيتا له في صفة خطباء إياد وهو قوله:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والموجز، والكتابة، والوحي باللحظ، ودلالة الإشارة[1] .

م- ويصور الجاحظ المادة الفنية للأدباء فيحدث عن قيمة الشعر بين الخطب والرسائل. وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون الخلفاء[2] . .

ن- وفي هذا الخبر دلالة على فرق ما بين منزلتي الكتاب والشاعر حتى لا يتهم كثير بالحماقة لأنه أراد منزلة الكتاب: ومن الحمقاء كثير عزة. ومن حمقه أنه دخل على عبد العزيز بن مروان فمدحه بمديح ستجاده، فقال له: سلني حوائجك، فقال: تجعلني في مكان ابن رقانه! قال: ويلك! ذلك رجل كاتب وأنت شاعر! الخ.

س- صعوبة الجمع بين بلاغة القول والشعر والكتابة كما يقول سهل ابن هارون: اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادون يجتمعان في واحد. وأعرض ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم[3] . ويرى الجاحظ أنه وجد من يجمع بين فنين من القول فإن كان ذلك قليل: وفي الخطباء من يكون شاعرا، ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا، وربما كان خطيبا فقط، وشاعرا فقط، وبين اللسان فقط. ومن الشعراء الخطباء الأبيناء الحكماء، قس بن ساعدة الإيادي والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الخطابة والشعر قليل[4] .

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٥٩، ٦٠.

[2] البيان للجاحظ جـ١ ص١٣١، ١٣٢.

[3] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٤٥.

[4] البيان للجاحظ جـ١ ص٦٠.

ف- يبدى الجاحظ وجهة نظره فى أن الكتاب هم لديه مثال البلاغة ويخلص من هذا إلى تحديد مفهوم البلاغة والبليغ ويرى أن هذه الصفة تتحقق بين المتكلمين ويريد بهم المعتزلة طبعا: قال أبو عثمان: أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا. وإذا سمعتمونى أذكر العوام، فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعنى الإكراد فى الجبال، وسكان الجزائر فى البحار، ولست أعنى من الأمم مثل البر والطيلسان.

ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأمثال الزنج وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، والفرس، والهند، والروم والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضا. وقال: ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات. فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. فان كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام، واصفا أو مجيبا أو سائلا: كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين، كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا فى ذلك مبلغا لكل خلف وقدوة لكل تابع.

ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وايس وليس. وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكروا: الهذية والهوية، والماهية، وأشباه ذلك. وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد، وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل والوافر وأشباه ذلك،

كما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف. وقد ذكرت العرب في أشعارها الإسناد. والإقواء والإكفاء، ولم أسمع الإيطاء. وقالوا في القصيد. والرجز. والسجع، والخطب، وذكروا حروف الروى والقوافى، وقالوا: هذا بيت، وهذا مصراع. وقد قال جندل الطهوى حين مدح شعره:" لم أقو فيهن ولم أساند " وقال ذو الرمة:

شعر قد أرقت له غريب　　　أجانبه، المساند والمحاملا

وقال أبو حزام العكلي:

بيوتــا نصبنا لتقويمها　　　جذول الربيئتين في المرباة

بيوتا على عللها لها سجعة　بغير الإسناد ولا المكفأة

وكما سمى النحويين فذكروا: الحال والظرف وما أشبه ذلك. لأنهم لو لم يضعوا هذه العلاقات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد احتلبوا أسماء وجعلوها علامات للتفاهم[1] .

رابعا: في صور التعبير :

وقد راح الجاحظ يركز بعناية شديدة على الصور التعبيرية التى هى مناط البراعة الأدبية وسنرى أن بعضا من المصطلحات التى تداولتها أوساط الأدب في عصر الجاحظ كانت ذات مفاهيم أخرى فيما بعده من عصور مثل مصطلح البديع والمثل.

أ- من أمثلة الجاحظ التى تنطوى تحت البديع ما هو تشبيه أو استعارة ويورد الجاحظ أمثلة أدبية من بينها أحاديث نبوية كما يعرض لاعلام البديع في الأدب العربى إلى عصره وهو يفضل بالبديع العرب صادرا في هذا عن روح تنافح الشعوبية: وقال الأشهب ابن رميلة:

وإن اللآلى حانت بفلج[2] دماؤهم　　　هم القوم كل القــوم يا أم خالد

هم ساعد الدهر الذى يتقى به　　　وما خير كف لاتنــوه بســاعد

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص١٥٢- ١٥٤.

[2] الفلج: طريق بحر القصب إلى اليمامة.

أسود شـرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الاساور

قوله:(هم ساعد الدهر) إنما هو مثل، وهذا الذى تسميه الرواة البديع وقد قال الراعى:

هم كاهل الدهر الذى يتقى به ومنكبــه ان كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث: (وموسى الله أحد وساعد الله أشد) والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان. والراعى كثير البديع فى شعره. وبشار حسن للبديع، والعتابى يذهب شعره فى البديع[1] .

ب- أمثلة من البديع فيها التمثيل التشبيهى والاستعارة وعلى هذا وقال الاشهب بن رميله:

وإن الإلى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خـالد

هم ساعد الدهر الذى يتقى به وما خير كــف لا تنوء بساعد

أسود شرى لاقت أسـود خفية تسـاقوا على حرد دماء تلاساور

العرب أهل البديع :

قوله: هم ساعد الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذى تسميه الرواة: البديع.

وقد قال الراعى:

هم كاهل الدر الذى يتقى به ومنكبــه إن كان الدهر منكب

وقد جاء فى الحديث: موسى الله أحد، وساعد الله أشد. والبديـع مقصـور على العرب، ومن أجله فاقت كل لغة، وأربت على كل لسان. والراعى كثير البديع فى شـعره، وبشار حسن البديع، والعتابى يذهب شعره فى البديع.

وقال كعب بن عدى:

شـدة العقاب على البرئ بمن جنى حتــى يكــون لغيره تنكيــلا

والجهل فى بعض الامور اذا اغتدى مســتخرج للجاهليـــن عقــولا

وقال زفر بن الحارث:

---

[1] البيان والتبيين جـ٤ ص٥٥-٥٦.

لئن عــدت وا لله الذى فــوق عرشه		منحتــك مسنون الغرارين أزرقا
فــإن دواء الجهل أن تضرب الطلى		وأن يغمــس العريض حتى يغرما

وقال مبذول العذرى:

وقــولى كضرس السوء يؤذيك مسه		ولابــد إن آذاك أنــك فاقــره
دوى الجوف ان ينزع بسؤك مكانه		وان يبق يصبح كل يوم تحــاذره
يســـر لك البغضــاء وهو مجامل		وما كان من يجنى عليك تساوره
وما كل من مـــددت ثوبــك دونه		لتســـتر مما قد أتي أنت ساتره

وقد قال الآخر:

أطــال ا لله كيــس بن رزيـــن		وحمعي ان شربت لهم بديني
أأكتــب ابلهم شــاء وفيـــهـا		بريــع فصالهـــا بنتــا لبون
فمـــا خلفــوا بكيســهم دهـاة		ولا ملجأ بعــد فيعجبونـــى

وقال آخر:

عفاريتـــا علي وأكـــل مـإلى		وعجـــزا عن أنـــاس أخرينا
فــلو كنتـــم لكيســة أكاست		وكيـــس الام أكيـــس للبنينا
فهـــلا غير عمكـــم ظـلمتم		اذا مــا كنتـــم متظــلميــنا

وقالت رقية بنت عبد المطلب بنت عبد المطلب فى النبى صلى ا لله عليه وسلم:

بنـــى انـــى رابنـــى حجر		يغــــدو بكفــك حيثما الغدو
وأخـــاف أن تلقـــى غويـم		أو أن يصيبك بعـــد من يعدو

ولما دخل مكة لقيه جواريها يقلن:

طـــلع البدر علينا		من ثنيــات الــوداع
وجب الشكر علينا		مـــا دعـــا لله داع[1]

---

[1] البيان للجاحظ جـ٣ ص٣٤٧،٣٤٨،٣٤٩.

جـ- يؤرخ الجاحظ للأدباء الذين تخصصوا فى أكثر من فن أدبى وبرعوا فى البديع: ومن الخطباء الشعراء لمن كان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد، والرسائل الفاخرة مع بالبيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابى، وكنيته أبو عمرو. وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع، يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو: منصور النمرى، ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما. وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة. والعتابى من ولد عمرو بن كلثوم[1].

د- يعد الجاحظ الكتابة ضربا من ضروب البديع ويمثل لها بالشعر:

قطع من البديع :

وقطعة من البديع قوله:

إذا إحداها صاحبى ورجعا   وصاح فى آثارها فأسمعا

يتبعن منهن جلالا أتلعا   أدمك فى ماء الهاوى منفعا

(عنى بكلامه الإبل. الجلال- العظيم. الاتع- الطويل العنق)

قال الراجز فى البديع المحمود:

وقد كنت إذ حبل حباك مدمش   وإذا أهاضيب الشباب تبغش

(مدمش- أراد مدمج أى بجادفتك، تبغش- تدفع ما بها من الماء. وقد كنى بقوله عن قوة الشباب ونعمته ورية. ومن هذا البديع المستحسن منه، قول حجر بن خالد بن مرثد:

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد   كفعل أبى قابوس حزما ونائلا

يساق الغمام الغر من كل بلدة   إليك فأضحى حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل واد حللته   وان كان قد خوى المرابيع سائلا

(خوى النجم- سقط ولم يمطر فى نوئة، وكان العرب يستدلون على المطر بالنجوم. المرابيع- النجوم التى يكون بها المطر فى أول الأنواء. يقول: يسير الخير فى ركابك، حتى لو نزلت فى مكان محروم من نعمة الغيث، أفضت عليه من الخير ما يقعمه.

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص٦٨.

فإن أنت تهلك يهلك الباع والندا وتضحي قلوص الحمد جربا حائلا

(الباع- الشرف والكرم. القلوص- الناقة الشابة الفتية. الحائل من النوق- التى حمل عليها فلم تلقح)

فلا سلك ما يبلغنك سعيه ولا سوقة ما يمدحنك باطلا[1]

هـ- ويسوق الجاحظ أمثلة كثيرة من كنايات العرب كصورة من صور تعبيرها: وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنت وتكسبت بالزنا، قالوا: فحبت أى سعلت، كناية وقال الشاعر:

" أن السعال هو القحاب " وقال:

أراد ما قبحت واحدة جاوب البعد منها فخضف

وكذلك كان كنايتهم فى انكشاف عورة الرجل، يقال كشف علينا متاعه وعورته وشواره. والشوار: المتاع. وكذلك الفرج وإنما يعنون الاير والحير والاست[2].

و- يناقش الجاحظ موقف الرسول من السجع بين التحليل والتحريم فيورد من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ما هو مسجوع ويعلل النهى عن السجع لقرب عهده من الجاهلية زمنا واتصاله بمظاهر الحياة الجاهلية دينية واجتماعية ولكن ثالث العلة وهى البعد عن الجاهلية فزال التحريم وأبيح السجع:

باب آخر من الأسجاع فى الكلام :

وفى الحديث المأثور، قال: يقول العبد مالى مالى، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت وأعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت. وقل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامى لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك، ولكنى أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت. وما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم

---

(1) الحيوان للجاحظ جـ١ ص٣٢٤.

(2) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص٥٧،٥٩.

يحفظ من المنثور عشره. ولا ضاع من الموزون عشره. قالوا: فقد قيل للذى قال: يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس مثل ذلك يطل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسجع كسجع الجاهلية. قال عبدالصمد، لو أن لهذا الوزن، لما كان عليه بأس ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق متشادق فى الكلام. وقال غير عبد الصمد: وجدنا الشعر: من القصيد والرجز، قد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم فاستحسنه وأمر به شعراءه. قليلا كان أم كثيرا. و سمعوا واستنشدوا. والسجع أو المزدوج دونه القصيد أو الرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أصغر؟

ويدخل على من طعن فى قوله (تبت يدا أبى لهب) وزعم أنه شعر لأنه فى تقدير مستفعلن مفاعلن، وطعن فى قوله فى الحديث عنه:(هل أنت إلا إصبع دميت، وفى سبيل الله ما لقيت) فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم، لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيرا، ومستفعلن كثيرا، ومستفعلن مفاعلن. وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشترى باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام فى وزن مستفعلن مفعولات. وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا. وهذا قريب والجواب فيه سهل والحمد لله، وكان الذى كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم.

وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل حازى[1] جهينة، ومثل شق وسطيح، وعزى سلمه وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع، كقوله:(والأرض والسماء، والعقاب الصقعاء[2]، وواقعة ببقعاء لقد نفر المجد بنى العشراء، للمجد والسناء) وهذا الباب كثير وألا نرى أن ضمرة بن ضمرة، وهرم بن قطبه، والأقرع ابن حابس. ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة ابن

---

[1] حازى= كاهن.

[2] الصقاع= التى فى وسط رأسها بياض.

حذار. قالوا: فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها في صدور كثير منهم فلما زالت العلة زال التحريم. وقد كانت عند الخلفاء الراشدين، فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلا ينهونهم. وكان الفضل بن عيسى الرقاشي[1] سجاعا في قصصه.

وكان عمرو بن عبيد، وهشام ابن حسن، وأبان بن أبي عياش يأتون مجلسه. وقال له داود بن أبي هند: لولا أنك تفسر القرآن برأيك لا تبناك في مجلسك. قال: فهل تراني أحرم حلالا، أو أحل حراما؟ وانما كان يتلو الآية التي فيها ذكر الجنة والنار، والموت والحشر وأشباه ذلك. وقد كان عبد الصمد ابن الفضل، وأبو العباس القاسم بن يحيى. وعامة قصاصي البصيرة، وهم أخطب من الخطباء، يجلس اليهم عامة الفقهاء[2].

ز- يورد باب أسجاع[3].

ح- وباب آخر من الأسجاع في الكلام[4].

ط- يمثل الجاحظ للكلام المزدوج: قال: الموت الفادح. وقال الآخر. لا أقل من الرجاء؟! فقال الآخر:بل اليأس المريح[5] الخ.

ى- أمثلة يسوقها الجاحظ من مزدوج الكلام. باب مزدوج الكلام: قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاوية بن أبي سفيان: اللهم لمه الكتاب والحساب وقه العذاب[6] الخ.

أ- التوسع في الكلام صورة التعبير الأدبي مما يقبله الذوق العربي: ومن الكلام كلام يذهب السامع فيه إلى معاني أهله، وإلى قصد صاحبه. كقول الله تبارك وتعالى:﴿وَتَرَى النَّاسَ

---

[1] الرقاشي- الواعظ البصري المعتزلي

[2] البيان والتبيين جـ١ ص٢٨٤،٢٨٧،٢٩١.

[3] البابن للجاحظ جـ١ ص٢٨٨.

[4] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٧٨.

[5] البيان للجاحظ جـ٢ ص١١٢.

[6] البيان للجاحظ جـ٢ ص١١٨.

سكارى وما هم بسكارى﴾ وقال: ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾ وسئل المفسر عن قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ فقال: ليس فيها بكرة ولاعشى! وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم " فإن كنت فى شك مما نزلنا اليه فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك " قال: لم يشك و لم يسأل[1].

ب- ويناقش الجاحظ تعبيرا مجازيا عن الحمام من يرون أنه من باب الحقيقة مستدلا بأمثلة تدور كلها حول معنى الشيطان: فان زعمتم أن النبى صلى الله عليه وسلم خطر إلى رجل يتبع حماما طيارا فقال: " شيطان يتبع شيطانا " فخبرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرمين والبصريين ومن بنى هاشم إلى من دونهم، أتزعمون أنهم شياطين على الحقيقة، وأنهم من نجل الشياطين، أو تزعمون أنهم كانوا إنسا فمسحوا بعد جنا، أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان. على مثل قوله:" شياطين الجن والإنس "، وعلى قول عمر لأنزهن شيطانه من نغرته - وعلى قول منظور بن رواحة:

فلما أتاني ما تقول ترقصت　　　　شياطين رأسي والتشين من الخمر

وقد قال مرة أبو الوجيه العلكي:" وكان ذلك حين ركبنى شيطانى " قيل له وأى الشياطين تعنى؟ قال الغضب.

والعرب تسمى كل حية شيطانا. وأنشد الأصمعى :

تلاعب مثنى حضرمى كأنه　　　　تعمج شيطان بذى خروع قفر

وقالت العرب: ما هو الا شيطان الحماطبة. ويقولون ما هو إلا شيطان يريدون الفطنة وشدة العارضة. وروى عن بعض فى وقعة كانت: والله ما قلنا إلا شيطان برصا، لأن الرجل الذى قاتلهم كان اسمه شيطان وكان به برص. وفى سعد بنو شيطان. قال طفيل الغنوى: وشيطان إذ يدعوهم ويثوب، وقال ابن ميادة:

---

[1] البيان للجاحظ جـ٢ ص٢٨٩.

فلما أتاني ما تقول محارب تغنت شياطني وجن جنونها

وقال الراجز:

وإني وان كنت حديث السن وكـــان في العيـن نبو عتي

فإن شيطاني كبير الجن

وقال أبو النجم:

إني وكـــل شاعر من البشر شـيطانه أنثى وشيطانيّ ذكر

وهذا كله منهم على وجه المثل[1].

جـ- وكما لمحنا من قبل فإن الجاحظ من اهتمامه تصنيف ألوان من المجاز وهنا مجاز الذوق:

باب آخر (في مجاز الذوق) :

وهو قول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبـده، ذق! و: كيـف ذقتـه؟ وكيـف وجـدت طعمه: وقال عز وجل:(ذق إنك أنت العزيز الحكيم) وأما قولهم: ما ذقت اليوم ذواقا فإنـه يعني: ما أكلت اليوم طعاما، ولا شربت شرابا وإنما أراد القليل، والكثير، وأنه لم يذقه فضلا عن غير ذلك. قال ويقول الرجل لوكيله: ايت فلانا فذق ما عنده. وقال شماخ بن ضرار:

فذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ولها أن يغرق لسهم حاجز

وقال ابن مقبل:

أو كـــاهتزاز رديني تذواقه أيــدى التجار فزاد وامته لينا

وقال نهشل بن حرى:

وعهد الغانيات كعهد قين ولـــت عنه الجعائـــل مستذاق

الجعائل: من الجعل. وتجاوزوا ذلك إلى أن قال يزيد بن الصعق، لبنـي سـليم حين صنعوا بسيدهم العباس ما صنعوا، وقد كانوا توجوه وملكوه، خالفهم في بعض الأمر وثبـوا عليه، وكان سبب ذلك قلة رهطه.

وقال يزيد بن الصعق:

وان ا لله ذاق حلوه تيس فلمـــا ذاق حفنها قلاها

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ١ ص٢٩٩، ٣٠١.

رآها لا نطيع لها أميرا فخلاها تردد في خلاها

فزعم أن الله عز وجل ينوق، وعند ذلك قال عباس الرعلى يخبر عن كثرتهم، فقال:

وأمكم تزجى التؤام لبعلها وأم أخيكم كزة الرحم عاقر

وجعل عباس أمه عاقرا اذ كانت نزورا، وقد قال الغنوى:

وتحدثوا هلا لتصبح أمنا عــذراء لا كهل ولا مولود

جعلها إذ قل ولدها كالعذراء التي لم تلد قط. لما كانت كالعذراء جعلها عذراء. وللعرب أقدام على الكلام. ثقة بفهم أصحابهم عنهم. وهذه أيضا فضيلة أخرى. وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عض، وأكل وانما أفنى، وأكل وإنما إحاله، وأكل وإنما أبطل عينه - جوزوا أيضا أن يقولوا: ذقت ما ليس بطعم، ثم قالوا طعمت لغير طعام. وقال العرجى:

وإن شئت حرت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم تفاحا ولا بردا

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يريد لم يذق طعمه. وقال علقمة بن عبدة:

وقد أصاحب فتيانا طعامهم حمر الزاد ولحم فيه تنشيم

يقول: هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية، وفي الصيف الذى يغير الطعام والشراب.... وعلى المعنى الاول قول الشاعر:

فأنت ألا فطعم عميرا تمرا وكـــان كهـــرة وربـــره[1]

د- والجاحظ قد يفرد ألوانا من المجازات مثل " مجاز الاكل " باب آخر (في المجاز والتشبيه بالأكل).

وهو قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ وقوله تعالى عن اسمه ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وقد يقال لهم ذلك وأن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل،

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ٥ ص٢٨، ٣٤.

وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكـل. وقـد قـال الله عـز وجـل ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. وقال الشاعر في أخذ السنين من أجزاء الخمر:

أكل لدهر ما تجسم منها   ونبقي قصاصها المكنونا

وقال الشاعر:

مرت بنا نختال في أربع   يأكل منها بعضها بعضا

وهل قوله:

وقـد أكلـت أظافره الصخر

إلا كقوله:

كضب الكدى أفنى براثنه الحر

وإذا قـالوا: أكله الأسـد، فانما يذهبـون إلى الأكـل المعـروف. وإذا قـالوا: أكلـه الأسود، فإنما يعنون النهش واللدغ والعض فقط. وقد قال الله عز وجل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ ويقولون في باب آخر: فلان يأكل الناس وإن لم يأكل مـن طعـامهم شيئا.

وأما قول أوس بن حجر:

وذو شطبات قده ابن مجدع   لـه رونق ذريه يتآكل

فهذا على خلاف الأول. وكذلك قول دهمان النهري:

سـألتني من أناس أكلوا   شرب الدهر عليهم وأكل

فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز[1].

هـ- ويتحدث الجاحظ عن قيمة المثل والمجاز كضروب تعبير للمبدع وكأدوات فهم للمتلقي أو للمفسر: والناس يقولون في الإبل أقاويل عجيبة فمنهم من يزعم أن فيها عرما مـن صفاد الجن، وذهبوا إلى الحديث: أنهـم إنما كرهـوا الصـلاة فـي أعطـان الإبـل لأنهـا خلقت من أعنان الشياطين فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته، وقال ابن ميادة:

---

[1] البيان والتبيين جـ٥ ص٢٥-٢٨.

فلما أتاني ما تقبل محارب ... تغنت شـياطيني وجن جنونـها

قال الأصمعي: المأثور من السيف الذى يقال، إن الجن عملته وهم يسمون الكبر والخنزوانة والفقرة التي تضاف إلى أنف المتكبر شيطانا، قال عمر: حتى أنزع شيطانه، كما قال: حتى أنزع النعرة التي في أنفها، ويسمون الحية إذا كانت داهية منها شيطان، وهو قولهم شيطان الحماطة. قال الشاعر:

تعـالج مثني حضرميّ كـأنه ... تعمـج شـيطان بذى خروع قفر

شبه الزمام بالحية، وعنى مثل ذلك قول الشاعر:

شـفاحية فيها شفاح كأنها ... حباب بكف الشان من أسطح حشر

والحباب: الحية الذكر. وكذلك الايم، وقد نهى عن الصلاة عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع قرص إلى أن يتام ذلك. وفي الحديث: " إنها تطلع بين قرني شيطان ". فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ولتلك الألفاظ موضع آخر، ولها حينئذ دلالات أخر. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك[1].

و- من صور التعبير الأدبي تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوها وكذلك التوسع في التعبير يألفه الذوق العربي: وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس والغيث والبحر، وبالأسد والسيف ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان. وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير وهو القرد والحمار وهو الثور والتيس، وهو الذئب والعقرب، وهو الجمل والقرنبى ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء.. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" نعمت العمة لكم النخلة خلقت من فضلة طينة آدم " وهذا الكلام صحيح المعنى لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام[2].

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ١ ص١٥٢-١٥٤.

[2] الحيوان للجاحظ جـ١ ص٢١١-٢١٢.

وقال مرداس بن أدية:

وأدت الأرض مني مثل ما أكلت وقربوا لحسابي التسط أعمالي

وأكل الأرض لما صار في بطنها، أحالتها له إلى جوهرها[1].

ح- ويورد أمثلة للمثل والتشبيه بالجن: من المثل والتشبيه[2].

ط- يناقش الجاحظ مازجا بين الكلام والأدب الطاعنين في تشبيه شجر جهنم برءوس الشياطين:

رءوس الشياطين:

وقد قال الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن، لها منظر كريه. والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عنى الا رءوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم، من فسقة الجن ومردتهم. فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق. ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها. وعلى أنه لم كان شيء أبلغ من الزجر من ذلك لذكر. فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوره لهم واصف صدوق اللسان، بليغ في الوصف. ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق. وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين. ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطانا قط، ولا صور رءوسها لنا صادق بيده. ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا:" لهو أقبح من الشيطان " والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا. على جهة التطير له، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صماء، وقرناء، وخنساء، وجرباء، وأشباه ذلك. على جهة لتطير له.

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ٥ ص٢٣،٢٥.

[2] الحيوان للجاحظ جـ٦ ص١٨٥.

ففى إجماع المسلمين والعرب وكل ما لقيناه، على ضرب المثل بقبح الشيطان، دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح. والكتاب إنما تنزل على هؤلاء الذين قد ثبت فى طبائعهم بغاية التثبيت. وكما يقولون:" لهو أقبح من السحر ". وكذلك يقولون كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسن الكلام فى طلب حاجته: " ما فلان الا شيطان " على معنى الشهامة والنفاذ وأشباه ذلك[1].

ى- ومرة أخرى فى باب المزج بين الأدب والكلام يناقش تشبيه القرآن للمكذب بالكلب اللاهث: وسنذكر مسألة كلامية[2]، وإنما نذكرها لكثرة من يتعرض فى هذا من ليس له علم بالكلام. وقد اعترض معترضون فى قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾. فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور فى صدر الكلام، لانه قال. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فما يشبه حال من أعطى شيئا فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذى إن حملت عليه وولى ذاهبا وإن تركته شد عليك ونبح - مع أن وحر شديد، ومن تعب. وأما النباح والصياح فمن شيء آخر.

قلنا له: أن قال ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقد يستقيم أن يكون المراد لا يسمى مكذبا، ولا يقال لهم كذبوا إلاّ وقد كان ذلك منهم مرارا، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذى أوتى الآيات والأعاجيب، والبرهانات والكرامات، فى بدء حرصه عليها وطلب لها بالكلب فى حرصه وطلبه، فإن الكل يعطى الجد والجهد من نفسه فى كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه، ورده لها، بعد الحرص عليها وفرط الرغبة

---

[1] الحيوان للجاحظ جـ٦ ص٢١١- ٢١٣.

[2] المباحث الفنية البلاغية فيما يتصل بالاعجاز القرآنى، هى مسائل كلامية، كما نرى هنا.

فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له. وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة فى وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا أتعب نفسه فى شدة النباح مقبلا اليك مدبرا عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش. وعلى أننا ما نرمى بأبصارنا إلى كلابنا وهى رابضة رادعة إلا وهى تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذى طبعت عليه من شأنها. إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين[1].

أ- أسباب نفسية من أجلها كرة العرب الإسهاب وصورا أخرى من التعبير. قال: وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة. والتحبير والبلاغة. والتخلص والرشاقة. فأنهم كانوا يكرهون السلاطة، والهذر، التكلف والإسهاب، والإكثار. لما فى ذلك يدعو إلى السلاطة، السلاطة تدعو إلى بذاء. وكل مر، فى الأرض فإنما هو من نتاج الفضول، ومن حصل كلامه وميزه، وحاسب نفسه وخاف الإثم والذم أشفق من الضراوة وسوء العادة. وخاف ثمرة العجب، وعجنة القبح، وما فى حب السمعة من الفتنة، وما الرياء من مجانبة الإخلاص[2].

ل- حد الإيجاز والإطناب عند الجاحظ: وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البغية. وإنما الألفاظ على أقدار المعانى، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريعها لشريعها، وسخيفا لسخيفها والمعانى المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج إليه المعانى المشتركة، والجهات الملتبسة، ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعانى بكلام وجيز يغنى عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرأس لما قدروا عليه[3].

جـ- مواضع الإطالة:

وجدنا الناس إذا خطبوا فى صلح بين العشائر أطالوا، واذا أنشدوا الشعر بين السماطين فى مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع

---

[1] البيان للجاحظ جـ١ ص١٥،١٧.

[2] الحيوان للجاحظ جـ١ ص١٩٩،٢٠٠.

[3] جـ٦ ص٨١٧.

وليس ذلك من عجز[1]. وليست الإطالة من ذوى الموهبة وفى المواقف الملائمة - بعيب.

د- عليك بتنمية قريحتك:

قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشكلانك فى بعض المشاكلة. ولا تهمل طبيعتك فيستولى الإهمال على قوة القريحة، ويستبد بها سوء العادة. وإن كنت ذا بيان وأحسست فى نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة، وبقوة يوم الحفل، فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة (= منزلة) وأرفعها فى البيان منزلة، ولا يقطعنك تهيب الجهلاء، والأحاديث المتناولة على أقبح مخارجها. فأما ما ذكرتم من الأسباب والتكلف، والخطل والتزيد، فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلف، وإلى الخطل المتزيد. فأما أرباب الكلام، والمحاسبة، والتوقى والشفقة والذين يتكلمون فى صلاح ذات البين. وفى إطفاء نائرة أو حمالة، أو على منبر جماعة، أو فى عقد أملاك بين مسلم ومسلمة، فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة والمراء، وإلى الهذر والبذاء، وإلى النفج (= ادعاء الإنسان ما ليس عنده من المزايا والفضائل) والرياء[2] ؟

هـ- الإسهاب المعيب وأثره النفسى:

قال أبو الحسن (هو أبو الحسن على بن محمد المدائنى. كان راوية أخباريا): قيل لا يأس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: فتسمعون صوابا أم خطأ؟ قالوا: بل صوابا؟ قال: فالزيادة من الخير خير. وليس كما قال للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية. وما فضل من مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال. فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخطل، وهو الاسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه[3].

و- مع أن الإيجار القيمة البلغية الأولى للعرب فإن التردد أو التكرار وهو جانب من جوانب الإطناب له قيمته أيضا ومواطنه التى تستدعيه: قال ابن الأعرابى، قيل لعبد الله ابن

---

[1] جـ١ ص٩٢-٩٣.

[2] البيان للجاحظ جـ١ ص٢٠٧، ٢٠٨.

[3] البيان للجاحظ جـ١ ص١١٢.

والوحى والحذف، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوط وزاد فى الكلام[1].

ح- أمثلة من الإيجاز القرآنى:

وقد ذكرنا أبياتا تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول، وإلى كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذى كتبته لك فى باب الإيجاز وترك الفضول. فمنها قول حين وصف خمر أهل الجنة: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ وهاتان الكلمتان قد جما جميع عيوب الخمر أهل الدنيا. وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى. وهذا كثير قد دللتك عليه، فإن أردته فموضعه مشهور[2].

ط- مفهوم الإيجاز عند الجاحظ ليس فى الفارق الشكلى من قلة عدد الحروف. والإيجاز ليس به قلة عدد الحروف واللفظ، قد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغى له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه. ولا يردد وهو يكتفى فى الإفهام بشعراء، فما فضل عن المقدار فهو الخطل[3].

ى- أمثلة من الإيجاز فى باب الحديث النبوى خاصة:

باب من الكلام المحذوف:

ثم نرجع بعد ذلك لك إلى الكلام الأول:

هشيم عن يونس، عن الحسن يرفعه، أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آورونا ونصرونا، وفعلوا بنا ذلك. قال النبى صلى الله عليه وسلم: أتعرفون

---

(1) الحيوان للجاحظ جـ١ ص٩٤.

(2) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص٨٦.

(3) الحيوان للجاحظ جـ١ / ٩١.

ذلك لهم؟ قالوا: نعم، قال: فإن ذلك.) ليس في هـذا الحديث غير هـذا. يريد: إن ذلكم شكر ومكافأة. عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن أبى هاشم القاسم بن كثير، عن كثير، عن قيس الخارفى أنه سمع عليا يقول:(سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وثلث عمر، وخطبنا فتنة فما شاء الله) ليس في الحديث أكثر من هذا[1] .

ك- ويمثل بنصوص من الكلام الموجز ومنه حديث الرسول:

باب من الكلام المحذوف:

عن الحسن ابصرى يرفعه. أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، إن الأنصار فضلونا بأنهم آووا ونصروا وفعلوا وفعلوا! قال النبى صلى الله عليه وسلم " أتعرفون ذاك لهم " قالوا نعم:" فأن ذاك ". ليس فى الحديث غير هذا، يريد: أن ذاك شكر ومكافأة[2] ...الخ.

ل- يورد الجاحظ روايات عن اللغويين والأعراب فى أن البلاغة في الإيجاز: قال المفضل بن محمد الضبى قلت لأعرابى منا: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز فى غير عجز. والإطناب فى غير خطل. قال ابن الأعرابي البعيد. قال ابن الأعرابى: قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات؟ فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا. فقال رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: نعوذ بالله من الإسهاب[3] . حتى ص٣١٩.

م- ومن أمثلة الإيجاز ما يضعه الجاحظ تحت عنوانه:

باب من القول:

فى القوافى الظاهر واللفظ الموجز من ملتقطات كلام النساك[4] .

ن- وأمثلة أخرى توضح اهتمام الجاحظ الكبير بالإيجاز كقيمة بلاغية: باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف القليل الفضول[5] .

---

[1] البيان والتبين جـ٢ ص٢٨٧، ٢٨٩... ويستمر الباب حتى ص ٣١٩.

[2] البيان للجاحظ جـ٢ ص٢٨٥.

[3] البيان للجاحظ جـ١ ص١١١.

[4] البيان والتبين للجاحظ جـ١ ص٢١٧.

[5] البيان والتبين للجاحظ جـ١ ص٢٧١.

س- طريف هذه النصوص الثرية التي يوردها الجاحظ لشاعر هو العتابي ومتكلم هو عمرو ابن عبيد وكاتب مترجم هو ابن المقفع وكلهم يرى البلاغة في الفنون الأدبية جميعا محورها الإيجاز وإلى هذه الروايات يورد كذلك أعلام الموجزين في الأدب. حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي كلثوم بن عمرو: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير عادة، ولا حبة ولا استعانة، فهو بليغ. فإذا أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب (لعل هنا سقطا مثل قوله (فهو اللسان الذى يقوم) أو ما في معنى ذلك وألا يكون جواب الشرط غير حاصل). بإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق. قال فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، وياهيه، واسمع مني، واستمع إلي، وافهم عني، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه هي وفساد. وعن عمر الشمرى قال: قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيك. قال السائل: ليس هذا أريد؟ قال: من لم يحسن أن يسكت، لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع. لم يحسن القول، قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" أنا معشر الأنبياء بكاء " (أى قليلوا الكلام) قال السائل: ليس هذا أريد، قال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الصمت. قال السائل: ليس هذا ما أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام؟ قال: نعم. قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان. رغبة في سرعة استجابتهم ولقى الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستخرجت على الله جزيل الثواب.

قلت لعبد الكريم: من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر؟ قال: قد سألت عن ذلك أبا حفص (يعني عمر الشمرى) فقال ومن يجترئ عليه هذه الجرأة الا حفص ابن سالم؟(هو حفص بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب). وقال عمر الشمرى: كان

عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، فإن تكلم لم يكد يطيل. وكان يقول: لا خير في التكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف. وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى تسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

وكان موسى بن عمران يقول: لم أر أنطق من أيوب بن جعفر، ويحيى بن خالد. وكان ثمامة: سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتابه: أن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا. وسمعت أبا العتاهية يقول: لو شئت ان يكون حديثي كله شعرا موزونا لكان. وقال اسحق بن حسان بن توهي الخريمي: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل ما البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء - ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون رسائل - فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البيت. فالإكثار في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته.

كأنه يقول: فرق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لاخير في كلام لا يدل على معناك، ولا يسير إلى مغزاك، وإلى العمود الذى إليه قصدت، والغرض الذى إليه نزعت. قال: فقيل له: فإن ملء المستمع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء وأما الجاهل فلست منه وليس منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله. وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا ينال[1].

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١.

ع- نقاش بين عربي هو "صحار" وبين معاوية في مفهوم الإيجاز: قال ابن الأعرابي قال معاوية ابن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي. ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا، فنقذفه على ألسنتنا، فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين هم باليسر والرطب أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل، والله لنعلم أن الريح لتنفخه، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصبغه. وأن الحر لينضجه. فقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال له صحار: أن تجيب فلا تبطئ وأن تقول فلا تخطئ. فقال له معاوية: أو كذلك تقول؟ قال: صحار: أقلني يا أمير المؤمنين. لا تبطئ ولا تخطئ[1] .

ف- أمثلة من الشعر الموجز:

من شعر الإيجاز:

وأبيات تضاف إلى الإيجاز وحذف الفضول[2] ....الخ.

ظ- يسوق الجاحظ نصوصا أدبية مختلفات في باب الإيجاز ويحصي بيانيا تلك النصوص:

يقول ومما قالوا في الإيجاز، وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة.. وقال الله عز وجل: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ والعذاب لا يكون نزلا ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه .

وقال الآخر:

فقلت أطعمني عميرا تمرا فكان تمري كهرة وزبرا

(الكهر: الانتهاز. الزبر: الزجر) والتمر لا يكون ولا زبرا، ولكنه على ذا. وقال الله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وليس في الجنة بكرة ولا عشى، ولكن على مقدار البكر والعشيات. وعلى هذا قول الله عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص١٠٩، ١١٠.

[2] الحيوان للجاحظ جـ٣ ص٧٢ وما بعدها.

والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به[1].

ق- وإذ أن الإيجاز لا يزال مدار اهتمام الجاحظ لقيمته الأدبية الكبرى فإنه يحشد النصوص والروايات المؤكدة: ومما قالوا في الإيجاز، وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة: قال ثابت ابن قطنة:

ما زلت بعدك في هم يجيش به صدري وفي نصب قد كان يبليني

إني تذكرت قتلي لو شهدتهم في غمرة الموت لم يصلوا بهادوني

لا أكثر القول لو شهدتهم من الكلام قليل منه يكفيني

وقال رجل من طيء ومدح كلام رجل فقال: هذل يكتفي بأولاده، ويشتفي بأخراه، وقال أبو وجزة يزيد بن عبيد السعدى، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل:

يكفي قليل كلامه وكثيره ثبت اذا طال النضال مصيب

ومن كلامهم الموجز في أشعارهم، قول أبي حزام العكلي في صفة قومي:

في كفه معطية متوع موثقة صابرة جزوع

وقال الآخر:

ووصف سهم وام أصاب حمارا، فقال:" حتى نجا من جوفه وما نجا ".

وقال الآخر وهو يصف ذئبا:

اطلس يخفي شعره غباره في شدته شفرته وناره

وقال أبو عمرو بن العلاء: اجتمع ثلاثة من الرواة، فقلل لهم قائل: أي نصف بيت شعر أحكم وأوجز؟ فقال أحدهم قول حميد بن نور الهلالي:

وحسبك داء أن نصح ونسلما

ولعل حميدا أخذه عن النمر بن توالب، قال النمر:

يحب الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل

[1] البيان والتبيين جـ١ ص١٥٣، ص١٤٩.

وقال أبو العتاهية:" أسرع فى نقص امرئ تمامه " ذهب إلى كلام الأول: كل ما أقام شخص، وكل ما ازداد نقص، ولو كان الناس يميتهم الداء وإذا لأعاشهم الدواء. وقال الثانى من الرواة الثلاثة:

بل قول أبى خراش الهذلى: توكل بالأدنى وإن جل ما يمضى

وقال الثالث: بل قول أبى ذؤيب الهذلى" وإذا ترد إلى قليل تقنع " فقال قتل: هذا من مفاخر هذيل أن يكون ثلاثة أنصاف اثنان منها لهذيل وحدها. فقيل لهذا القائل: إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مستغنيات بانفسها والنصف الذى لأبى ذؤيب لا يستغنى بنفسه ولا يفهم السامع معنى هذا النصف، حتى يكون موصولا بالنصف الأول. لأنك إذا أنشدت رجلا لم يسمع معنى هذا النصف، حتى يكون موصولا بالنصف الأول. لأنك إذا أنشدت رجلا لم يسمع بالنصف الأول وسمع " وإذا ترد إلى قليل تقنع " قال: ومن هذه التى ترد إلى قليل فتقنع؟ وليس المضمن كالمطلق. وليس هذا النصف مما رواه هذا العالم، وإنما الرواية قوله:" والدهر ليس بمعيب من يجزع ".

ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذى كالوحى والإشارة، قول أبى داؤد بن حرير حويرية بن الحجاج الإيادى:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

فمدح كما ترى الإطالة فى موضعها، والحذف فى موضعه[1].

ر- القيم الجمالية لا تحد فى بابى الإطناب والإيجاز ولكل أعلامه وثمت مصطلحات نقدية مستخدمة فى هذا الجانب يوردها الجاحظ: وقال عبد الله بن مسعود: حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك. قال وجعل ابن السماك يوما يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها كيف سمعت كلامى؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده! فقال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه، قد مله من فهمه. وعن قتادة قال: مكتوب

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص١٦٢، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨.

فى التوراة: لا يعاد الحديث مرتين. وعن الزهرى قال: إعادة الحديث أشد من نقل الصخر. وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤونة الاستماع منك. وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ولا يؤتى إلى وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين له ومن يحضره من العوام والخواص.

وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى، وهود، وهارون، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وعاد، وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة. لأنه خاطب جميع الأمم، من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبى غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب. وأما حديث القصص والرقة فإنى لم أر أحدا يعيب ذلك، وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيا، إلا ما كان من النخار بن أوس العذرى، فإنه كان إذا تكلم فى الحمالات، وفى الصفح والاحتمال، وصلاح ذات البين، وتخويف الفريقين من التفانى والبوار، كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف، وربما حمى فنخر.

قال ثمامة بن أشرس: كان جعفر بن يحى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة. وقال مرة: ما رأيت أحدا كان لا يتحبس، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح، ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه، أشد اقتدارا ولا أقل تكلفا من جعفر ابن يحى. وقال ثمامة: قلت لجعفر بن يحى ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلى عن مغزاك وتخرجه من الشركة، ولا نستعين عليه بالفكرة: والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف، بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقيد، غنيا عن التأويل. وهذا هو تأويل قول الأصمعى: البليغ من طبق المفصل، وأغناك من المفسر.

أخبرنى جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال: ذكرت لعمرو ابن مسعدة توقيعات جعفر بن يحى قال: لقد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها، فوجدتها جهد اختصار وأجمع للمعانى. قال: ووصف أعرابى أعرابيا بالإيجاز

والإصابة فقال: كان والله يضع الهناء مواضع النقب. يظنون أنه نقل قول دريد بن الصمة في الخنساء بنت عمرو الشريد إلى ذلك الموضع، وكان دريد قال فيها:

ما أن رأيت ولا سمعت به   في الناس طالي أينق جرب

متبـــذلا تبـــدو محاسنه   يضع الهناء مواضع النقب

ويقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: فلان يفل المحز. ويصيب المفصل. وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز. وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع سلامة التكلف، ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. قال بعض الكتاب. معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه[1].

أ- يحدد الجاحظ في المعية إلى وجود تناسب الألفاظ مع الأغراض:

باب آخر:

وقالوا في حسن البيان، وفي التخلص من الخصم بالحق والباطل. وفي تخليص الحق من الباطل، وفي الإقرار بالحق، وفي ترك الفخر بالباطل[2].

ب- يجعل الجاحظ صورا من التعابير الأدبية التي ألفها الذوق العربي من تعديل للوزن وإصابة للمقادير متمثلا بشعر يتضمن هذا المعنى كما يتابع التمثيل لمعنى حبهم الملاءمة والتوسع في التعبير:

وباب آخر:

ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضلون اصابة المقادير، ويذمون الخروج من التعديل. وقال طرفة في المقدار واصابته:

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٤.

(2) البيان والتبيين للجاحظ ص٢١٨.

فني ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه:(اللهم اسقنا سقيا نافعا) لأن المطر ربما جاء في غير أيام الزراعات، وربما كان في الكثرة يجاوز لمقدار الحاجة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم:" اللهم حوالينا ولا علينا". وقال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: و لم؟ قال لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه. وعاب رؤبة شعر ابنه فقال: ليس لشعره قران. وجعل البيت أخا البيت إذا اشبهه وكان حقه أن يوضع إلى جنبه. وعلى ذلك التأويل قال الأعشى:

أبا يسمع أقصر فان قصيدة   متى تأتكم تلحق بها أخوتها

وقال الله عز وجل:﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ وقال أبو النجم فيها هو أبعد من هذا ووصف العير والعيوراء، وهو الموضع الذى يكون فيه.

فهذا مما يدل على توسعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض، واشتقاق بعضه من بعض. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نعمت العمة لكم النخلة" حين كان بينها وبين الناس تشابه وتشاكل ونسب من وجوه. وقد ذكرنا ذلك فى كتاب " الزرع والنخل ". وفى مثل ذلك قال بعض الفصحاء:

شهدت بأن التمر بالزبد طيب   وأن الحبارى خالة الكروان

لأن الحبارى، وان كانت أعظم بدنا من الكروان، فان اللون وعمود الصورة واحد، فلذلك جعلها خالته، ورأى أن ذلك قرابة تستحق بها هذا القول[1]. وبعد، فأنت تلمس هذا الدفق الحى للدرس البلاغي عند الجاحظ. وذلك نابع من إحساس الجاحظ بضرورة ارتباط العمل الفنى بالواقع العملى فى الحياة ومن هنا صدر الحديث من مجال صدق فكان أن وجد سبيله الحق إلى القلب والفكر. لقد أدرك الجاحظ بعمق ضرورة الفهم لوظيفة الفن الأدبي ورسالته العملية فحدث عن أهداف الخطابة والشعر والرسالة، ومارس

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص٢٢٧- ٢٣٠.

الفنون، ومن ثم أفاد من تجاربه الأدبية الشخصية ومن تجـارب معاصريـه وأسـلافه عـرب أم غير عرب. ومن واقع الحيـاة أيضـا راح يراقـب راصـدا أثـر الأدب فـي القلـوب والعقـول. وأخذ يسجل نتائج تجربته وأفاد من هذا فى حديثه عـن التلقـى وصـور التعبير الأدبـى. إن سطحية وجفاف الدرس البلاغى المتأخر كان بسبب بسيط هو أن أصحابه بدأوا الحديث فيه من فراغ، ليـس عـن تجربة.. هـذا أولا، وثانيـا لأنهـم عنـوا فيـه بالشـكل دون المضمـون. وكانوا فى هذا معذورين لأنهم أصحاب أذواق سـقيمة عقيمـة، وعـودا علـى بـدء فليسـت المعاصرة بالزمان وحده بل بالفكر والوجدان وان تباعد هنا أصحابها بأميال.

القسم الخامس

ابن قتيبة الناقد

كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى(*)

فهرس الكتب

والأبواب لكتاب المعانى الكبير لابن قتيبة

المجلد الأول

(*) أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، المتوفى سنة ٢٧٦ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

المجلد الثانى

الفهارس

١- الشعراء
٢- أعلام الرجال والنساء والقبائل
٣- أسماء الأماكن والمياه والأيام
٤- الكتب
٥- القوافى
٦- الأمثال

فهرس الكتب

والأبواب لكتاب المعانى الكبير لابن قتيبة

المجلد الأول

صفحة

صفحة

صفحة

(قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى) :

أنشدني الرياشي عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء لأبي داود الأيادى هذه الأبيات إلا " ككنانة الزغرى" فإنه لم يحفظه.

لقدد ذُعِرتْ بَنَاتُ عـــ م المُرشقاتِ لها بصابِصُ[1]

بمجـــوَّفٍ بلقــا وأعـ لى لونـه ورد مُصامِصُ[2]

أراد أن يقول ذعرت البقر، فقال: بنات عم المرشقات- وهى الظباء، والمرشق الظبية التى تمد عنقها وتنظر فهى كذلك أحسن ما تكون، والظباء بنات عم البقر لأنها وحش تشبّه بها، والبقر لا تكون مرشقات لأنها وقُص قصار الأعناق، وبصابص حركات الأذناب، يقال بصبص إذا حرك ذنبه، ومثل للعرب بصبصن إذ حُدين[3] والمجوف الفرس الذى بلغ البلق بطنه وهو التجويف- يقال ما أحسن ما جُوف[4].

تدوين الشعر:

من العلماء من دوّن الشعر بصفة دواوين للقبائل كديوان أشعار هذيل، ومنهم من دوّنه بصفة دواوين لأفراد الشعراء كديوان الأعشى وديوان النابغة، ومنهم من اختار عددًا من القصائد كالأصمعيات والمفضليات، ومنهم من انتخب قطعًا رتبها على حسب معانيها كالحماسة لأبى تمام، ومنهم من جمع الأبيات الغريبة المعانى المتأبية على أفهام أكثر الناس، وهى "أبيات المعانى".

أبيات المعاني:

قال السيوطى فى المزهر (ج١ ص٢٧٥) فى فصل الالغاز «.... وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها وإنما قالتها فصادف أن تكون إلغازًا، وهى نوعان فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها وأكثر أبيات المعانى من هذا النوع. وقد ألف ابن قتيبة فى هذا النوع

---

(1) لسان العرب (٨/ ٣٦١).

(2) اللسان أيضًا وكتاب الخيل لأبى عبيدة ص١١٤- ى.

(3) أمثال الميدانى (١/ ٦٠).

(4) بالأصل "جوف" بفتح الجيم.

بجندًا حسنًا وكذلك ألف غيره وإنما سمّوا هـذا النـوع "أبيـات المعـانى" لأنهـا تحتـاج إلى أن يسأله عن معانيها..».

أقول ومن تدبر أبيات المعـانى بـان لـه أن خفـاء معانيهـا إنمـا يكـون غالبًـا لغرابـة الأسلوب وبعد المأخوذ وطرافة الاستعارة، فهى لذلـك مـن آيـات البلاغـة، ولم يكـن يكـاد يتعاطاها إلاّ فحول الشعراء كأنهم إنما يقصدون بها الدلالة على تفوّقهم فى الشعر وتمكنهم منه.

ومن فوائد هذا النوع أن قدماء العلماء باللغة والشعر قاموا بتفسيرها فعلّموا النـاس كيف يفهمون كلام العرب.

المؤلفون :

من المؤلفين فى هذا الفن أبو الحسن سعيد بـن مسـعدة الأخفـش الأوسـط المتوفـى سنة ٢١٠ وقيل بعد ذلك، وعبد الرحمن بن عبد الله هو ابـن أخـى الأصمعى، وأبـو نصـر أحمد ابن حاتم الباهلى المتوفى سنة ٢٣١، وأبو العميثل عبد الله بن خليد مـولى جعفـر ابـن سليمان المتوفى سنة ٢٤٠، وأبو عثمان سعيد بن هارون الاشناندانى، وأبـو محمـد عبـد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦، وأبو العباس أحمد بـن يحيى ثعلـب المتوفى سنة ٢٩١، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧، ولم يطبع من هذه الكتب غير كتاب الاشناداني.

وبين أيدينـا الآن أغـزر تلـك الكتـب مـادة وأحسـنها ترتيبًـا، وهـو الـذى خصـه السيوطى بالذكر: كتاب ابن قتيبة وهو "كتاب المعانى الكبير".

اختيار الشعر:

قال فى الشعر والشعراء : «وليـس كـل الشـعر يختـار ويحفـظ على جـودة اللفـظ والمعنى، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب، منها الإصابة فـى التشبيه.. ومنـه مـا يختـار ويحفظ لأن صاحبه لم يقل غيره... وقد يختار ويحفظ لأنه غريب فى معنـاه.... وقـد يحفـظ ويختار أيضًا لنبل قائله». وذكر لكل نوع من هذه أمثلة، وذكـر مـن أمثلـة الأول الأبيـات التى فيها:

ونُبلى وُفْقاها كـــــ عراقيب قطا طحل

ثم قال «وهذا الشعر مما اختاره الأصمعى لخفة رويه».

أقسام الشعر:

ثم قال فى الشعر والشعراء : «تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضـرب منـه حسن لفظه وجاء معناه كقول القائل :

فى كفّــه خَيــزرانٌ ريحُــه عَبِقٌ من كف أروع فى عَرْنينه شمَمُ

يُغضى حياءً ويُغضَى من مهـابته فـــلا يُكلَّــم إلا حين يبتســمُ

لم يقل أحد فى الهيبة أحسن منه...» ثم ذكر أمثلة ثم قال: «وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً، كقول القائل:

ولما قَضينـــا من منـــى كل حاجةٍ ومَسّحَ بالأركان مَن هُو مـاسـحُ

وشُدّت على حدب المهارى رحالُنا ولم ينظر الغادِى الذِى هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحـــاديث بيننا وسـالت بأعناق المطــىّ الأبــاطح

وهذه الألفاظ أحسن شـىء مطالع ومخارج ومقـاطع، فإذا نظـرت إلى مـا تحتهـا وجدته: ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضـاء ومضـى النـاس لا ينظـر من غدى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح[1]....» ثـم ذكـر أمثلـة، ثـم قال : «وضرب منه جادَ معناه وقصرت الألفاظ عنه؛ كقول لبيد:

ما عـــاتَبَ المرءَ الكريـمَ كنفســه والمرءُ يُصلحَه الجليسُ الصالحُ

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق...» ثم ذكـر أمثلـة، ثـم قال: «وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه كقول الأعشى:

وفـــوهُ كأقاحـــــى غـــداةُ دائم الـهَطْل

كما شيب بماء بـــا رد من عسل النحل

---

[1] راجع أسرار البلاغة لعبد القاهر، ص١٤ - ١٧.

ويحسن بمن يحب أن يتحقق معرفة ابن قتيبة بالشعر أن يتأمل ما قدمه فى كتابه "الشعر والشعراء" قبل التراجم، ثم ما اختاره فى التراجم، فإن هذه الكلمة لا تتسع لاستيفاء البحث.

مكانته فى علوم الأدب وغيرها:

قال الخطيب فى تاريخ بغداد «كان ثقة دينًا فاضلاً» وقال ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان «قال مسلمة بن قاسم: كان لغويًا كثير التأليف عالمًا بالتصنيف صدوقًا من أهل السنة... يقال كان يذهب فى قول إسحاق ابن راهويه وسمعت محمد بن زكريا بن عبد الأعلى يقول: كان ابن قتيبة يذهب مذهب مالك.

وقال نفطويه: كان إذا خلا فى بيته وعمل شيئًا جوّده، وما أعلمه حكى شيئًا فى اللغة إلا صدق فيه.

وقال ابن حزم: كان ثقة فى دينه وعلمه.

وقال النديم: كان صادقًا فيما يرويه عالمًا باللغة والنحو، وكتبه مرغوب فيها... وقال السفلى: كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة».

وقال ابن خلكان: «كان فاضلاً ثقة... وتصانيفه كلها مفيدة».

وقال الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى تفسير سورة الإخلاص (٨٦) «وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، قال فيه صاحب كتاب "التحديث بمناقب أهل الحديث": وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء وأجودهم تصنيفًا وأحسنهم ترصيفًا، له زهاء ثلثمائة مصنف... وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون: من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة، ويقولون: كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه»[1].

---

(1) حملت كتب ابن قتيبة إلى المغرب فى حياته أو بعده بقليل، فقد تقدم أن من الرواة عنه قاسم ابن اصبغ القرطبى، وفى بعض الكتب فى الرواة عنه أبو بكر المالكى ورأيت فى ترجمة ولد ابن قتيبة أحمد بن عبد الله بن مسلم من كتاب "رفع الاصر عن قضاة مصر" للحافظ ابن حجر نسخة المكتبة الآصفية بحيدر آباد الدكن ما لفظه: «قال ابن زولاق فى سيرة جوهر دخل أبو أحمد عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله بن قتيبة على جوهر... فأجابه...=

وقال أبو البركات ابن الأنبارى: «كان فاضلاً فى اللغة والنحو والشرع متفننًا فى العلوم وله المصنفات المذكورة والمؤلفات المشهورة» وفى لسان الميزان: «وقال [الخطيب] فى [كتاب] المتفق: شهرته ظاهرة فى العلم ومحله من الأدب لا يحقر» وفى "بغية الوعاة": «قال الخطيب: كان رأسًا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس».

أبيات معان فى المدح :

قال عبد الرحمن بن حسان[1] :

مــازال ينمــى جــدُه صاعــدًا　　　من لــدُ أن[2] فارقــه الحـالُ

الحال العجلة التى يدب عليها الصبى إذا بدأ يمشى، يريد منذ كان صغيرًا.

وقال الفرزدق[3]:

أرى المقسَّمَ[4] المختارَ عيلان كلها　　　إذا هــو لم يجتــز نُفيلا تحللا

يقول إذا أقسم أن فلانًا خير قيس فلم يقل إلا بنى نفيل تحلل من يمينه لأنه قد حنث حتى يستثنى بنى نفيل.

وقال أيضًا[5]:

لنا العزةُ القعســاءُ والعـددُ الذى　　　عليــه إذا عُدَّ الحصى يُتحلَّفُ

القعساء الممتنعة، يتحلف أى يحلف [ما] لأحد مثل عددنا.

وقال البعيث[6] :

=أى شىء يكون المصنف منك؟ قال جدى، قال كم كتبه؟ قال أحد وعشرون كتابًا، فقال جوهر أو أكثر بقليل. فقال جوهر كان أبو جعفر البغدادى كتب ابن قتيبة وكان يفتخر بها فورد على المهدى (العبيدى) الخبر أن ابن قتيبة ولى قضاء مصر فقال لأبى جعفر تهنتك قد ولى ابن أستاذك القضاء»...

[1] المخصص (١٣/ ١٥٣) واللسان (١٣/ ٣٠٠).

[2] فى المخصص واللسان "منذ لدن".

[3] ديوانه ٢١٣ ب٢١.

[4] بالأصل "المقسم" بفتح فسكون.

[5] النقائض ص٥٧١.

[6] يأتى البيت فى النصف الثانى للورقة ٩٧ى.

نعُزّ بنجدٍ كلّ من لقَط الحصى ونعلو[1] رؤوس الناس عند المواسمِ

أى نقول لنا يوم كذا ونلقط[2] حصاة ويوم كذا ونلقط حصاة.

وقال الأغلب[3]:

عهدى بقيس وهى من خيرِ الأمم لا يطأونَ قدمًا على قدمِ

أى هم رؤساء ليسوا أتباعًا يطأون أعقاب غيرهم.

وأنشد ابن الأعرابى[4]:

إن لقيس عادةً تعتادُها سلَّ السيوف وخُطا تزدادُها

وهذا مثل قول كعب [بن مالك][5]:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا

وقال الفرزدق[6]:

سيعلُم من سامى تميمًا إذا سمَتْ قوائمه في البحر من يتخلّف[7]

أى إذا غرق فى البحر فارتفعت قوائمه.

---

[1] بالأصل "يعز... تعلو".

[2] بالأصل، "يلقط" ك. أقول تقدم قبله "نقول" ويأتى بعده "ونلقط" والظاهر أن يكون الثلاثة الأفعال كلها بالياء لأن الكلام تفسير قوله فى البيت كل من لقط الحصى" فتدبر.

[3] فى الأضداد لابن الأنبارى ص٣٤٧ ولم يسم قائله

قد كان عهدى بنى قيس وهم لا يضعون قدمًا على قدم

ولا يحلون بالّ فى حرم

وفى معجم الأدباء (٣/ ٢١) ولم يسم قائله أيضًا وعنه فى الأشباه والنظائر النحوية (١/ ٢١٦).

قومى بنو مذحج من خير الأمم لا يضعون قدما على قدم

ووقع فى الاشباه "قومى بنى..." وهذا لا يكون للاغب وراجع اللسان (ق د م).

[4] الخزانة (٣/ ٢٤) والبيان والتبيين (٣/ ١٤).

[5] أمالى القالى (٢/ ٣١) وعجزه «قدما ونلحقها إذا لم تلحق».

[6] النقائض، ص٥٧٠.

[7] بالأصل "يتحلف" بالحيم.

وقال الأخطل[1]:

إن العرارةَ والنُبوح لدارمٍ   والمستخفُ أخوهم الأثقالا

العرارة النجدة والشدة، والنبوح العدد والجماعة، واحدها نبح.

وقال عمرو بن معدى كرب:

ألـــفُّ الخيـــلَ بالخيــلِ   وأغشـــى النَّبْـــحَ بالنبحِ

وقال العجاج[2]:

قـــومٌ لهم عـــرارةُ التدكل[3]   مـا فـتئـــوا من أولٍ وأولِ

على العدى وسُخرة الموقَّلِ

العرارة الشدة، والتدكُل مثل التدلل يقال: هم يتدكلون على السلطان أى يمتنعـون عليه، ما فتئوا: ما زالوا كذلك من أول زمن، والمؤفل الضعيف يقال قد أُفِّل.

وقال الكميت يمدح رجلاً بطوله:

إذا لبسَ الأبطالُ أثوابَ يومها   إلى الرَوعِ غالتْ[4] من سواهِ[5] وغالَها

يعنى الدرع، يقول هى تطول غيره وهو يطولها.

وقال عنترة يمدح بالطول[6]:

بطَلٌ كأن ثيابَه في سَرحةٍ

أى كأن ثيابه على شجرة. وقال آخر:

طويلٌ نِجادُ السيف ليس بحيدرٍ   إذا اهتزَّ واسترخَتْ عليه الحمائلُ

---

[1] ديوانه، ص٥١.

[2] ديوانه ٣١ ب١٤٧ و١٤٩ و١٤٨.

[3] بالأصل "التذكل" بالذال المعجمة وفى التفسير "التذكل مثل التذلل" وهذا غير معروف فى كتب اللغة- ك.

[4] بالأصل: "عالت".

[5] فى النقل "سواها" والسياق والتفسير يوضح أن الصواب "سواه"-ى.

[6] ديوانه ٢١ ب٦١ وعجزه «يحذى نعال السبت ليس بتوأم».

النجاد حمائل السيف، والحيدر القصير، واسترخت أى اتسعت، من قولهم "فى بال رخى"؛ أى واسع، والبال الحال، والهزة الخفة تأخذه للمعروف. وأنشد الأصمعى[1]:

بيـــضٌ جعـــادٌ كأنَّ أعينهم يكحُلُها فى الملاحـم السَدَفُ

أى لا تنقلب[2] فيظهر باطنها من الفزع، والسدف الظلمة.

وأنشد للأعشى[3]:

كذلك فافعل ما حييت إليهم وأقدِمْ إذا ما أعينُ القومِ تزرقُ[4].

إذا فزع الإنسان وبرق انقلبت حماليق عينيه فغاب السواد.

وأنشد[5] :

بيـــضٌ جعادٌ كـــأنَّ أعينـهم تُكحَّـل يـــوم الهياج بالعَلَقِ

العلق الدم، وصفهم بحمرة[6] الأعين لشدة الغضب فى الحرب، ولذلك شبهت عيون الكلاب بنوّار العضرس وهى بقلة حمراء الزهرة لأن أعينها تحمر إذا آسدتها من شدة الغضب. وقال ابن هرمة:

وله مكـــارم أرضها معلومة ذات الطوى وله نجوم سمائها

أرضها أصلها، أى هو معروف له معلوم، ذات الطوى أى فى ذات الطوى وهى السنة الجدباء التى تطوى الناس فيها ويجوعون، وله نجوم سماء تلك السنة يعنى بالنجوم أمطارها وخصبها[7] أى الذى يكون فيها من خصب وخير عنه، فكأنه قال له: نجومها مطرها.

---

(1) اللسان (١١/ ٤٧) ك. والبيت لعمرو بن امرئ القيس الخزرجى من قصيدة فى "جمهرة الأشعار" آخر المذهبات-ى.

(2) فى النقل "ينقلب"- ى.

(3) ديوانه ٣٣، ب ٦٢.

(4) بالأصل "ترزق" ورواية الديوان "تبرق"

(5) حماسة ابن الشجرى، ص١٦ فى شعر لضرار بن الخطاب الفهرى.

(6) فى النقل "بحمرة"-ى.

(7) فى النقل "وخصها"-ى.

وقال أبو وجزة[1]:

وأرى كريمكَ لا كريمةَ دونهِ وأرى بلادكَ منقعَ الأجواد

أى من أكرمته فليس تدخر عنه كريمة من مالك، ومنقع الأجواد مروى العطاش، يقال جِيدَ الرجل فهو مجود إذا عطش وبه جُواد، فكأنه من الجمع الذى جاء على غير واحدة[2] يعنى الأجواد[3].

وقال أبو المثلم الهذلى[4]:

حامى الحقيقة نسال الوديقة معـ ـتاق الوسيقة جلد غير ثُنيان

أى يحمى ما يحق عليه ويعدو فى شدة الحر حتى تدق الشمس وتدنو، معتاق الوسيقة إذا طرد طريدة أنجاها من أن تدرك، يقال أعتقه أى أنجاه، والثنيان دون السيد.

وقال ساعدة الايادى[4]:

ألا يا فتى ما عبد شمس بمثله يبلُّ على العادى وتؤبى المخاسِفُ

هو الطِرفُ لم يُحشَشْ مطى بمثلِهِ ولا أنَس مستوبدُ الدارِ خائفُ

أراد أى فتى هو عبد شمس، ثم استأنف فقال بمثله يغلب على العدو، والمخاسف من الخسف وهو النقصان، والطرف الكريم، لم يحشش لم يخم فى السير بمثله، والأنس الحى أى لم يقم بشأنهم مثله، مستوبد من الوبد وهو القشف وسوء الحال، ويروى: لم يخشش- من الخشاش أى لم يزمّ. وقال زهير[5]:

---

[1] اللسان (ك ر م) غير منسوب ى.

[2] فى النقل "واحدة".

[3] بالأصل "الأجود".

[4] أشعار هذيل، ١٥ ب٣.

[4] نسب صاحب اللسان (١٠/ ٤١٥) البيت الأول لساعدة بن جؤية الهذلى ونسب (٨/ ١٧٣) البيت الثانى للراعى، و لم أجد للراعى بيتًا آخر على هذا الروى، ولاشك أنه خطأ، والبيتان فى شعر ساعدة بن جؤية الهذلى وهما أول قطعة أحد عشر بيتًا- ديوانه ٥ ب١و ٢.

[5] ديوانه ٤ ب١٥.

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

تفرى تقطع[1] ما قدرت، وخالقة الأديم مُقدرته. وقال[2]:

وليس مانع ذى قربى ولا حسَب يومًا [و] لا معدمًا من خابطٍ ورَقا

يريد ولا معدمًا خابطًا ورقًا، والإعدام أن يمنع الإنسان ما يريد، فيقول قد عدمته، وأراد بقوله: من خابط- خابطًا كقولك: ما رأيت من أحد وما رأيت أحدًا. ويقال للرجل إن خابطه- خابطًا كقولك: ما رأيت من أحد وما رأيت أحدًا، ويقال للرجل إن خابطه ليجد ورقًا أى إن سائله ليجد عطاء، وسمى من طلب بغير يد ولا رحم خابطًا.

وقال أيضًا[3]:

رأيتُ ذوى الحاجاتِ حولَ بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنْبَتَ البقْلُ

هنالكَ إن يُستخبلوا المالَ يُخبلوا وإن يُسألوا يعطوا وإن ييسروا يُغلوا

القطين الحشم والأهل، يقول يلزمونهم حتى يسمنوا وجمع القطين قُطُن. وقال لبيد[4]:

فتكنَّسوا قطنًا تصِرّ خيامُها

وقال جرير يهجو بنى الفدَوكَس رهط الأخطل[5]:

هذا ابن عمي في دمشق خليفةٌ لو شئت ساقَكم إلى قطينا

فقيل: يا أبا حزرة أما وجدت فى تميم مفخرًا تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة لا والله ما صنعت شيئًا فى هجائهم. والقطين ها هنا العبيد، والقطين فى مكان آخر السكان، قال الأخطل[6]:

---

[1] فى النقل "يفرى يقطع"- ى

[2] ديوانه، ٩ ب ٢٩.

[3] ديوانه، ١٤ب ٣٣ و٣٤.

[4] معلقته، ب ١٢.

[5] ديوانه، (٢/ ١٥١).

[6] ديوانه، ص٩٨.

خَفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكَروا

والقُطّان للقيمون واحدهم قاطن، قال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف الاستخبال وأراه قال يستخولوا[1] والاستخوال أن يملكوهم إياه، وقال أبو عبيدة: أنشدنا أبو عمرو: يستخولوا المال يخولوا، وقال لم أسمع يستخبلوا، وقال يونس بلى قد سمعه ولكن نسى.

وقال غير الأصمعي: الاستخبال أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً فيشرب من ألبانها وينتفع بأوبارها فإذا أخصب ردها، ييسروا من الميسر، يغلوا في الميسر أى يأخذون سمان الأبل لا ينحرون الأغالية. وقال[2]:

هو الجوادُ الذى يُعطيك نائله عفـواً ويُظلم أحيانًا فيظلم

أى يُطلب إليه في غير موضع الطلب فيحمل[3] ذلك لهم، وأصل الظلم كله وضع الشىء في غير موضعه، منه "من أشبه أباه فما ظلم"

وقال:

وإن أتـــاهُ خليلٌ يوم مَسألةٍ يقولُ لا غائبٌ مالِى ولا حرمُ

الخليل الفقير والخَلة الفقر، والحرم المنع، يقول ليس لمالى منع عليه، أبو عبيدة: حرم إذا كان يحرم لا يعطى منه، وقال غيره حرم مقمور أى لا يعتل عليه بذلك. وقال[4]:

تَهامونَ نجديونَ كيدًا ونُجعةً لكل أناسٍ من وقائعهم سَجلُ

يقول يأتون تهامة ونجدًا لا يمنعهم بعد المكان من أن يغزوه وينتجعوه، سجل نصيب وأصل السجل الدلو مملوءة ماء.

وقال العجاج يمدح رجلاً[5]:

---

[1] بالأصل "يستحولوا" بالحاء المهملة وكذا فيما يأتى- ك. والبيت فى اللسان (خ و ل)-ى.

[2] ديوانه، ١٧ ب ١٣و ١٤.

[3] فى النقل "فيحمد" بالبناء للمفعول وعلى هامشه "بالأصل يحمل- باللام" وفى اللسان عن الجوهرى "أى احتمل الظلم"-ى.

[4] ديوانه، ١٤ ب ٢٠.

[5] ديوانه، ١١ ب ٨٥ و٨٦ و٨٨ و٨٩.

حلو المساهاةِ وإن عادى أمر مستحصِدُ[1] غارتُه إذا اتْرَزْ

المساهاة المياسرة، مستحصد شديد الفتل، غارته فتله يقال حبل مُغار، وأحصدت الحبل فتلته[2].

أمَّره يسْــرًا فإن أعيا اليسَر والْتاث إلا مِرّة الشَزْر شَـزر

أى فتله، واليسر مخفف فحركه ضرورة، وهو الفتل على اليمين سهل، والشزر فتل على اليسار وهو أعسر من الأول. والمعنى أنه يستعمل السهولة أولاً فإن لم يأته الأمر على ذلك استعمل الشدة وهو أعسر من الأول. وقال[3]:

يرتاح أن تبرد ريح الشمال

أى يُسرّ بأن يشتد الزمان ليصنع[4] المعروف.

وقال عمرو بن قميئة يصف الجدب[5]:

يثوب عليهم كل ضيف وجانب كما رَدّ دَهداة القِلاص نضيحها

الجانب الغريب، دَهداه صغار الإبل، والقلاص إناث الإبل، والنضيح الحوض، يقول: يعود الأضياف إليهم كما يعود هذا إلى النضيح. وقال الحارث بن حلزة[6]:

لا يرتجي للمال يُهلكه طلُق النجــوم إليه كالنَّحْس

لله- هنالك لا عليه إذا دَنِعت[7] أنوف القوم للتَعس

لا يرتجى لا يخاف لا هلاك للمال يقول لا ينفق المال فى نجم مبارك ليخلف عليه ولكنه ينفقه فى كل وقت، إليه أى عنده، يقول فالفضل له فى هذا الزمان لا عليه إذا دعى على القوم بالتعس، دنعت تدنع ودونوعًا دقت ولؤمت. وقال الحطيئة[8]:

---

[1] بالأصل "مستحصد" بفتح الصاد.

[2] بالأصل" قبلته".

[3] ديوانه، ٣١ ب٤٧.

[4] فى النقل " ليضيع"- ى.

[5] ديوانه، ص١٨.

[6] ديوانه، ٣ب ١٣- ١٤.

[7] بالأصل: "دنعت" بفتح النون وكذا فى التفسير، والمعروف بالكسر.

[8] ديوانه، ٨ ب ١٩.

هــم القـــوم الذيــن إذا ألمــت   من الأيــام مظـلمــة أضــاءوا

هــم القـــوم الذين علمتمــوهم   لدى الداعى إذا رُفــع اللـواء

وقال أوس بن حجر[1] :

تجرّد فى السربال أبيض حازم   مبين لعيـــن الناظـر المتوسّم

هذا مثل، أى هو متجرد للأمور كما للأمور كما تقول: والله لئن تجردت لك لأعلمنك[2]، أبيض نقى العرض من الدنس. ومثله[3]:

أمك بيضًا من قضاعة [فى البيت الذى تستظل فى ظنبه]

أى نقية الحسب. وقال أبو ذؤيب[4] :

المانحُ الأدمُ كالمروِ الصلابِ إذا   ما خارَدَ الخُورُ واحتُثَّ المجاليحُ

المخاردة إن لا تدر، والمجاليح التى تدر فى الشدة، ويقال الجيدة الأكل، احتثت استزيد فى درتها.

وقال أيضًا[5] :

وَصَرَّحَ الموتُ من غَلَبَ كأنهم   جُــربٌ يدافعها الساقى منازيحُ

صرّح كشف، غلب غلاظ الرقاب، منازيح طلبت الماء من مكان بعيد فهو أحرص لها.

وقال المتنخل[6] :

أجُزت بفتيةٍ بيض خفــافٍ   كـــأنهـــم تملُّهـــم سَــبــــاطُ[7]

---

[1] ديوانه، ٤٣ ب١٨.

[2] فى النقل "لا علمنك"- ى.

[3] اللسان ١٠/ ٣٩٣.

[4] ديوانه، ١٠ ب٤

[5] ديوانه، ١٠ ب ١٤.

[6] ديوانه، ٣ ب ٤٠.

[7] بالأصل "سباط" بالرفع وكذا فى التفسير وإنما القصيدة مجرورة.

سباط اسم للحمى وذلك أن صحابها يُسبط عليه، أسبطت عليه الحمى إذا أخذته فتمدد[1] واسترخى -أى هم من الغزو والشحوب هكذا. وقال[2] :

السالكُ الثغرةَ اليقظانُ كالئها مشي الهلوكُ عليها الخيعلُ الفضُلُ

الثغرة والثغر سواء وهو موضع المخافة، والكالئ الحافظ، والخيعل ثوب يخاط أحد جانبيه ويترك الآخر، والهلوك المتثنية المتكسرة، والفضل من صفة الهلوك وكان ينبغى أن يكون جرًا ولكنه رفعه على الجوار للخيعل[3].

ومثله [للعجاج[4]]:

كأن نسج العنكبوت المُرمل

ومثله "جحر ضب خرب" ومثله [لامرئ القيس][5] :

كبير أناس في بجاد مزمل

أراد أنه آمن لا يخاف فهو يمشي على هينته[6].

وقال آخر من هذيل [وهو معقل بن خويلد][7] :

فما العمرانُ من رجلي عديّ وما العمرانُ من رجلي فئامِ

وأنهمــا لجوّابَـا خـــروقٍ وشــرابانِ بالنُّطَفِ الطوامي

العدى القوم الذين يحملون فـى الرحالـة أى مـا همـا مـن رحلـين، علـى التعجـب يريدهما فاضلان لهذا وهذا وهما أيضًا جوابًا خروق، والطوامى التى تركـت[8] فطمـت أى

---

[1] فى النقل "فتمل" وعلى هامشه "بالأصل فتمل" وفى اللسـان "أسبط على الأرض إذا وقع عليها ممتدًا" -ى.

[2] ديوانه، ٦ ب٦، واللسان ٣/ ٢٢٣، وكتاب الشعر ص٤١٧، وقد نقل صاحب خزانة الأدب ٢/ ٣٢٨ التفسير بكماله.

[3] رد ابن الشجرى وغيره هذا وقالوا إن الفضل نعت للهلوك باعتبار محلها فإنها فاعل فى المعنى. راجع أمالى ابن الشجرى ٢/ ٣١، والخزانة ٢/ ٢٨٨، ٣٢٩ ى.

[4] ديوانه، ٢٩ ب ١٠٨، واللسان ١٣/ ٣١٤.

[5] ديوانه، ٤٨ ب٧٢.

[6] بالأصل "هَينته" بفتح الهاء.

[7] أشعار هذيل، ٤٩ ب٧و ٨.

[8] فى النقل "نزلت" والسياق يبين الصواب- ى.

ارتفعت مما لا تورد، يقال: أراد ما هما من رحال العـدوْ ولكنهمـا حوابًا خـروق، والأول أحود. وقال الأخطل[1]:

لعمرى لقد ناطَتْ هوازنُ أمرها بمستربعْينِ الحربِ شُم المناخرُ

المستربع للشيء الحامل له، ربعت الحجر إذا أشلته[2].

وقال الفرزدق[3]:

فذاكَ أبي وأبوه الذى لمقعده حرم المسجدُ

أى لا يُنطق عنده بفحش كما لا يُنطق في المسجد. وقول الراعى[4]:

فوارسُ أبطالٌ لِطافُ المآزِرِ

أى هم خِماص البطون. وقال رجل من الخوارج[5]:

لطاف براها الصوم حتى كأنها سيوف يمان أخلصتها سُمومها

يعنى رحالا أضمرها الصوم فشبهها بسيوف، سمومها خروقهـا تبين أنهـا خالصـة وذلك أن ثقوب العُتق غير ثقوب الُحدث أى ذات خروق تُدلُ على عِتقها. وقال الأعشى وذكر نارًا[6]:

تُشَـبُّ[7] لمقرورَيْن يصْطليـانها وباتَ على النار الندَّى والمحلَّقُ[8]
رضيعى لبان[9] ثدى امٍّ تقاسما بأسـحمَ داجٍ عَـوَضَ ما نتفرقُ[10]

---

[1] ديوانه ص١٨٩.

[2] بالأصل "اسلته".

[3] النقائض، ص٧٩٠.

[4] لم أحد صدر البيت.

[5] اللسان ١٥/ ١٩٦.

[6] ديوانه، ٣٢ ب ٥٢ و٥٣.

[7] بالأصل "يشب".

[8] اختلف فى لامه فقيل مفتوحة وقيل مكسورة، راجع الخزانة ٣/ ٢١٥- ى.

[9] بكسر اللام كما فى المعاجم، وفى الخزانة ٣/ ٢١٦ أنه يروى بالتنوين ونصب ثدى ويروى بالإضافة- ى.

[10] فى النقل "ما يتفرق" وفيه فى التفسير "ولا يتفرق" والمعروف "لا نتفرق"، وفى الخزانة ٣/ ٢١٨ "وجملة لا تتفرق جواب القسم وجاء به على حكاية لفظ المتحالفين الذى نطق به عند التحالف ولو جاء بـه على لفـظ-

يقول حالف الجود أن لا يفارقه وهما فى الرحم وهو أسحم داج، عوض يفتح ويضم والفتح أكثر وهو الدهر، وأراد أن لا تتفرق أبدًا.

وقال يمدح هَوذة[1] :

فتىً لو ينادى الشمسَ ألقت قِناعَها ... أو القمرَ السارى لألقى المَقالدا[2]

ينادى يجالس من النادى، ألقت قناعها أى ذهب نورها وحسنها بحسنه، ولألقى القمر المقاليد إليه أى أقر له بالحسن. ويقال المقاليد المفاتيح وأحدها إقليد.

وقال أيضًا[3]:

هَضومُ الشتاء إذا المُرضِعا ... تُ جالَتْ أعضادُها

أصل الهضم الظلم، يقول يقرى في الشتاء ويطعم فيذهب بشدته، والجبائر أسورة النساء من دون[4] تجعل فى الأعضاد، جالت من الهزال.

وقال أيضًا[5]:

نهارُ شراحيل بن عمرو يريبنى ... وليلُ أبى ليلى[6] أمرُّ وأعلقُ

نهاره ظاهره وليله باطنه. وأنشد [للأعشى][7]:

فلا تحسبنِّى كافرًا لكَ نعمة ... على شاهدى يا شاهد ا لله فأشهدُ

شاهدى لسانى، وشاهد الله من يشهد ألا إله إلا الله، ويقال للملك الموكل به.

وقال الأعشى[8]:

-الإخبار عنهما لقال- لا يفترقان". وفى مغنى ابن هشام فى بحث "ما": وإذا نفت المضارع تخلص عند الجمهور للحال، وعلى هذا فلا تصلح هنا لأن المعنى نفى التفرق فى المستقبل-ى.

(1) ديوانه، ٧ ب١١.

(2) بالأصل "المقاليدا".

(3) ديوانه، ٨ ب ٢٣.

(4) كذا وفى اللسان "من الذهب والفضة" ى.

(5) ديوانه، ٣٢ ب ٣١.

(6) فى اللسان (ع ل ق) "أبى عيسى" ى.

(7) ديوانه، ٢٨ ب٣٥.

(8) ديوانه، ٣٤ ب ١٣.

ربى كريـــمٌ لا يكــدِّرُ نعمةً   وإذا تُنوشِدَ فى المهارق أنشدا

لا يكدر نعمة بالمن وإذا ناشدوه بالمهارق، وهى كتب الأنبياء، أنشدهم أى أجابهم، وفى بمعنى الباء. وقال لبيد يذكر عامر بن الطفيل[1] :

ومقَسمٌ يعطي العشيرة حقَّها   ومغــذمِرٌ لحقوقها هضّــامُها

المقسم الذى يعطيها مالها، والمغذمر الذى يحطم حقوقها ويسكرها، ويقال هو الذى يضرب حقوق الناس بعضهم ببعض ويهضم من ماله للناس ويعطى هذا ما يأخذ من هذا، ومنه قيل للحادى أنه لنو إذا مير فى حدائه، هضامها يهتضمها يحتملها.

وقال[2] :

وهم العشيرةُ أن يبطِّىء حاسدٌ   أو أن يلومَ مع العدى لوّامُها

أى لا يقدر حاسد أن يبطئ الناس عنهم بأن يقول فيهم قول سوء لا يقدر لائم على لومهم، قال : وهذا مثل قول مطرود بن كعب الخزاعى[3] :

أخلصهم عِــق لبــابٍ لُهــم   من لــومِ مــن لام بمُنجابِ[4]

المنحاب المنكشف. وقال القطامى يمدح قريشًا[5] :

قـومٌ ثبَّتوا الإسلام وامتنعوا   قومُ الرسول الذى ما بعده رسلُ

يريد: هم ثبتوا الإسلام وامتنعوا ممن أرادهم، قوم الرسول مستأنف؛ أى: وهم أيضًا قوم الرسول.

---

(1) المعلقة، ب٧٩.

(2) المعلقة، ب٨٩.

(3) سيرة ابن هشام فى أوائلها تحت عنوان "حلف الفضول"، والمحبر ص١٦٣، والمنمق نسخة خطية، ومعجم البلدان "ردمان"-ى.

(4) فى هامش الأصل "ع: القصيدة تائية" وقد أورد ياقوت هذا البيت هكذا "أخلصهم عبد مناف لهم، من لوم من لام بمنحات" أنظر طبعة مصر (٤/ ٥/ ٢) ويظهر من الشرح أن ابن قتيبة صحف- ك. أقول والبيت فى السيرة والمحبر والمنمق كما ذكره ياقوت سواء، والقصيدة تائية فالصواب "بمنحاة" قطعًا- ى.

(5) ديوانه، ١ ب٣٧.

وقال أيضًا[1] :

وتـــراهُ يفخرُ أن تحـلَّ بيوتُه بمحلّةِ الزمِـــرِ القصيرِ عِنانا

يفخر: أى يأنف، فخرت عن الشىء أنفت منه، والزمر القليل الخير.

ابن أحمر:

وذى بـــدنٍ أو مسبلٍ فوقَ قـــارحٍ جميل الدجى يعدو بلَدن مقوّمِ

بلدن درع قصيرة، ومسبل سابغة، أى بعد النعاس وبعـــد تغشى الكرى جميـلاً لا يؤثر فيه السهر.

وقال يذكر إبلا[2] :

عليهن أطرافٌ من القومِ لم يكُنْ طعامُهم حبًا بزغبةَ[3] أغبرا

أطراف جمع طِرف وهو العتيق من الخيل استعاره للناس، حبًا يعنى حنطة. وقـول الأعشى[4] :

طويلُ اليدْين رهطُه غيرِ ثنيةٍ[5] [أشمّ كريم جـارهُ لا يُرهقُ]

الثنية الذين دون الملك. وقوله أيضًا[6] :

أنتَ خير من ألف ألف من القو مِ إذا ما كَبتْ وجوهُ الرجال

---

[1] ديوانه، ٣ب ٥٧ ص.

[2] اللسان ١١/ ١١٧، ١٢١، ومعجم البكرى ص٤٤.

[3] فى النقل بضم الزاى وعلى هامشه «قال البكرى زغبة بالضم موضع بالبادية وضبطه فى الأصل بالفتح وكذا فى لسان العرب فى الموضع الثانى -ك» أقول وفى للموضع الأول بالضم وكذا فيه (ز غ ب) وظاهر كلامـه هنـاك يشهد لذلك لكن ذكره صاحب القاموس بالضم ثم قال "وبفتح" وفى معجم البلدان "بفتح أوله وسكون ثانيه، اسم قرية بالشام كأنه نقل عن زغبة (يعنى بفتح الزاى والغين) واحدة الزغب ثم سكن قال الشاعر....» فذكر البيت-ى.

[4] ديوانه، ٣٣ ب ٦١.

[5] شكل فى النقل بضم الثاء وفى التفسير والمعروف فى المعاجم بكسرها-ى.

[6] ديوانه، ١ ب ٥٤.

أصله من كبا الزند إذا لم يور وكذلك الرجل إذا لم يعط[1] عند السؤال. وقال النابغة[2] :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويمٌ فما يرجون غير العواقبِ

ذات الإله بلاد الشام لأنها مقدسة، ويقال بيت المقدس لأنه موضع الأنبياء، عواقب أعمالهم أن يثابوا بها، ويقال يرجون يخافون كقوله جل وعز: [3] ﴿مالكم لا ترجون لله وقارا﴾ أى لا يخافون إلا عواقب أعمالهم بخوفهم لله، ويروى: محلتهم- أى كتابهم كتاب الله.

وقال[4] :

سبقتَ الرجالَ الباهشينَ إلى النَّدى كسبق الجواد اصطادَ قبل الطواردِ

الباهش الذى يسبق إلى الصنائع، والطوارد من الخيل والكلاب كل ما طرد، فالواحد طارد. وقال[5] :

أثنى على ذى كل عُـذرةٍ إنه قد كانَ قدَّمَ قبل قيل القائل

يقول قد كان قدم ما يقال فيه قبل أن يمدحه المادح.

وقال[6] :

وأنتَ الغيثُ ينفع من يَليه وأنتَ السمُ يخلطُه اليرَونُ

يقال هو ماء الرجال، وقيل هو عرق الدابة، ويقال هو دماغ الفيل، ويقال هو السم القاتل. وقال أبو بكر كبير[7] :

---

[1] بالأصل "يعط" بفتح الطاء.

[2] ديوانه، ١ ب ٢٤.

[3] سورة نوح، ١٢.

[4] ديوانه، ٦ ب١٧.

[5] تكملة ديوانه، ٤٧ ب ٤.

[6] تكملة ديوانه، ٥٨ ب ٤٧.

[7] ديوانه، ١ ب ٣٩.

ولقد صَبَرْتَ على السَموم[1] يكنني   قـرَدٌ على الليتين غيرُ مرجّـلِ

أراد شعرًا قد تلبد مما لا يغسل ولا يدهن يريد أنه كان ربيئة في جبل. وقال[2]:

ومعنى لَبوسٌ للبئيس كأنَّه   روق بجبهـةِ ذى نعـاجٍ مجفـلِ

لبوس يعنى صاحبًا له، والبئيس الأمر الشديد يريد صبورًا علـى الشـدائد، والـروق القرن، مجفل نافر، شبه الرجل فى صلابته واندماجه بالقرن يعنى ثورًا وحشيًا.

وإذا يهُبُّ من المنام رأيتــهُ   كرتوبِ[3] كعب السياق ليسَ بزمّلِ

أى ينتصب عند قيامه من منامه كانتصاب الكعب إذا لعب به، زميل ضعيف.

وقال آخر:

أبا مالكٍ أوقدْت نارك للعلى   وأرغيت إذا أثغى موالٍ فى حبلي

أى قرنت لى إبلاًد ترغو إذا أعطونى هم غنمًا تثغو.

وقال الأخنس بن شهاب التغلبى[4]:

ونحنُ أناسٌ لا حجاز بأرضنا   مع الغيث ما نُلْقَى ومن هو غالبُ

أى ليس بأرضنا جبل نحتجز به فنحن مغضون، ومن كان له الغلب فهو مع الغيث أبدًا، ويقال لا نجتمع نحن ومن يغلب أبدًا أى من كان معنا فنحن غالبون له.

ترى رائدات الخيلِ حولَ بيوتنا   كمعزى الحجاز أعوَزَتها الزرائبُ

وكم أنــاس قـاربوا قيد فحلهم   ونحــن خلَعنا قيــدَه فهو ساربُ

أى الخيل كمعزى لا تجد زَربا فهى تسرح حول البيوت، وكل أناس حبسوا فحلهم أن يتقدم فتتبعه الإبل ونحن لعزنا تركناه يرعى حيث شاء، جعل الفحل مثلاً للعز.

وقال طرفة[5]:

---

[1] شكل فى النقل بضم السين وأحسب الصواب بفتحها، وقد قيل إن السموم تطلق على الريح الشديدة البرد، والبيت يصلح شاهدًا لذلك-ى.

[2] ديوانه، ١ ب ٣٨و ٢٣.

[3] بالأصل "كرتوب".

[4] المفضليات، ٤١ ب ١٨ و١٩ و٢٧.

[5] ديوانه، ٥ ب ٣٧.

ولى الأصلُ الذى فى مثله يصلحُ الآبرُ زرع المؤتبرِ

الآبر المصلح والمؤتبر منه، قال أبو عبيدة كل شيء أصلحته فقد أبرته. وقال الكميت:

بحمدٍ من شبابك لا بذم أبا قُرّان بتّ على مثـال

المثال الفراش أى مت وشبابك محمود ليس بمذموم.

وقال يمدح[1]:

كان[2] السِدى وللندى مجدًا ومكرُمة تلك المكارم لا يُورَثْنَ عن رقَبٍ[3]

رقب من الرقبى وهى وصية الرجل بالدار وغيرها، يقول هى لفلان فإن مات فهى لفلان فهذا يرقب موت هذا.

وقال وذكر الحوادث إذا نزلت بقومه:

ولم يوائم[4] لهم فى رَتبها[5] ثبجًا ولم يكُنْ[6] لهم فيهـا أبـا كرب

ولم يكُن[6] هِدمُها الخبون منفعةً إذا التقَتْ غُرضةَ التصدير والحقب

رتبها إصلاحها، ثبجا من التثبيج[7] والإفساد، أبا كرب يريد قولِ الناس[8]

---

[1] اللسان ١/ ٤١١، يمدح الكميت بهذا الشعر زياد بن معقل (كما فى اللسان) أو زياد بن مغفل (كما فى الأغانى- ١٨/ ١٥٣) وهو الذى أعان الكميت فى ديات بنى أسد على طيء-ك.

[2] فى النقل "فكان" وفى اللسان "كان" وبه يستوى الوزن- ى.

[3] بالأصل "رقب" بفتح الراء، وكذا فى التفسير.

[4] توائم وفى اللسان ٣/ ٤٣ "يوائم" وهو الموافق لقوله فى البيت السابق "كان السدى" ى.

[5] رواية اللسان، "فى ذبها" ورواية التاج "فى دينها"- ك. أقول بل الذى فى التاج "فى ذبها" أيضًا وسيفسر المؤلف الكلمة بقوله "الإصلاح و لم أجد الرتب ولا الذب بمعنى الإصلاح، ومما جاء بمعنى الإصلاح الرأب والرب-ى.

[6] فى النقل "و لم تكن" وعلى هامشه "بالأصل- و لم يكن" وراجع التعليق على أول البيت-ى.

[7] التفسير الذى فى اللسان يختلف عن تفسير ابن قتيبة فإنه قال: «ثبج هنا رجل من أهل اليمن غزاه ملك من الملوك فصالحه على نفسه وأهله وولده وترك قومه فلم يدخلهم فى الصلح فغزا الملك قومه، فصار ثبج مثلا لمن لا يذب عن قومه، فأراد الكميت أنه لم يفعل فعل ثبج ولا فعل أبى كرب ولكنه ذب عن قومه، و لم أجد لزياد هذا ذكرًا فى جمهرة النسب لابن الكلبى، وأبو كرب هو أسعد بن مالك الحميرى أحد تبابعة اليمن-ك.

[8] انظر أمثال الميدانى ٢/ ٩٥ ك. أقول كتب فى النقل على أنه نثر، وهو فى أوائل السيرة وغير واحد من الكتب ثابت على أنه شعر-ى.

لَيت حظي من أبي كَربٍ إنْ يســـدّ َخيـــره خَبَـلـــه[1]

والهِدم الخلق، والمخبون المعطوف، يقول لم يكن في الشدائد كالهدم المخبون الذي لا ينفع به.

وقال:

ولم يتجَهمْ لكَ النائبــات ولم تكُ[2] فيها اللياسُ الدَثورا[3]

ولم تكُ شِهدارةُ الأبعدِيْن ولا زُمّـــح الأقربينِ الشـــريرا

ولم تك لا جير للأبعديـــن مُخّةٌ ســـاق تجيـــب الصفيرا

اللياس الثقيل الضعيف، والدثور النوام، يتجهم يتنكر، والزمّح الشرير، لا جير قسم، وإذا أخذ الإنسان عظم ساق الشاة فنفضه ليخرج مخه فمضه أحاب المخ صفيره فخرج.

فموضوعُ جودِكَ أن لم تنا جِ[4] الابهاء لِهات[5] الضميرا

يقول أصغر جودك إن لم تحدث نفسك إلا بأن إذا قيل لك هات قلت هاء- ناولت. وقال :

وتحسبُ[6] طالبيك إذَ إذا أرادوا وثامك[7] أنتَ والشعرى العبورَ

الوثام المباراة، أراد إذا واءموك كنت في الارتفاع فوقهم كالشعرى.

وقال يمدح[8] :

---

(1) شكل في النقل بسكون الباء، فإن كان شعراً فالظاهر فتحها-ى.

(2) بالأصل "يك".

(3) اللسان ٥/ ١٠٣ و٣/ ٢٩٧.

(4) في النقل "إن لم تناج" بكسر الهمزة وفتح الجيم والتفسير يوضح الصواب-ى.

(5) بالأصل "لهات" بفتح اللام.

(6) لعله "وتحسر"-ى

(7) بالأصل "ولمك" بكسر ففتح فتشديد مع فتح.

(8) الأغاني ١٥/ ١١٩.

وتعاطى به ابنُ عائشةِ البد ... رَ فأمسى له رقيبًا نظيرا

لم تجهم له البطاحُ ولكنْ ... وجدتْها لـه معانًا ودُرا

ابن عائشة عبد الملك بن مروان، أى رام بأن يأتى به شبه البدر، وأصل الرقيب النجم يطلع إذا غاب رقيبه، يقول إذا ذهب البدر كان هذا مكانه، تجهم تنكر، والمعان المنزل، أراد أنه من قريش البطاح وهم أكرم من قريش الظواهر. وقال طُريح[1]:

أنتَ ابن مسلنطح البطاح ولم ... يعطفْ عليكَ الحنيّ والولُجُ

أراد محانى الأودية، والولج الغامض من الوادى.

[وقال الكميت] :

أخبرت عن فعاله الأرض ... واستنطق منها اليبابُ والمعمورا

أى أثر فيها آثارًا حسنة، بنى المساجد وحفر الآبار والأنهار، واليباب الخراب، أى بنى فيه فسكن. وقال يمدح بنى أمية[2] :

ولم يُدْبغُونا على تِحْلِىءٍ ... فيرمقُ أمرٌ ولم يغملوا

التحلىء أن يكون فى شعر الأديم وسخ فإذا قشرته بقد حلأته، أى لم يسيئوا سياستنا فيكونوا كمن دبغ ولم ينق وسخ الأديم، يرمق[3] يضعف، والغمل حتى يسترخى شعره وصوفه فينتزع[4] منه.

وتنأى قُعورهُم فى الأمورِ ... على من يُسمّ[5] ومن يسمُلُ

---

[1] الأغانى ٤/ ٨٠، واللسان ٣/ ٣١٩ ك. لكن فى الموضع المذكور من اللسان نسبة البيت إلى ابن قيس الرقيات لكنه ذكره ٣/ ٢٢٢ مع بيتين منسوبين لطريح يمدح الوليد بن عبد الملك وفى الأغانى أنهما لطريح يمدح الوليد ابن يزيد بن عبد الملك وكذلك قال المؤلف فى ترجمة طريح من الشعر والشعراء، وقد كرر صاحب الأغانى ذلك بأسانيده فهو الصواب ى.

[2] انظر اللسان ١١/ ٤١٨.

[3] الأصل "يرمق" بضم الياء وتشديد الميم.

[4] فى النقل "فينزع" وعلى هامشه بالأصل "فينتزع" لقول وهو صحيح أيضًا-ى.

[5] بالأصل "يسميم" وكذا فى التفسير وليس له أصل فى اللغة، وفى اللسان ١٣ / ٣٦٨ "يسم" وقال فى تفسيره هو الذى يسبر الشىء وينظر ما غوره، وانظر اللسان أيضًا ١٥ / ١٩٦ -ك.

قُعورهم عقولهم، يقال: ما أبعد قعره وغوره، يسم يصلح، يسمل مثله.

ولا يدمُسُ[1] الأمرُ فيما يلونُ　　على المنطِقَاتِ ولا يُدمَلُ

يدمس يستتر ومنه ليل دامس، والمنطقات المعايب، يدمل يطوى، أي لا يطوى على فساد، ويقال ندمل الجرح أي برأ والتأم.

وقال :

وقد طال ما يا آل مروان ألتم　　بلا دَمَس أمر الغريب[2] ولا غَمَلْ[3]

ألتم سستم، والدمس الظلمة. والغَمل أن يغم الأديم حتى يسترخي ثم يدبغ.

وقال:

مباؤك في البَثْنِ الناعما　　تِ عينًا إذا روَّح المؤصِلُ[4]

المباء المنزل، والبثن جمع بَثنة[5]، وهي الرملة السهلة اللينة، والناعمات عينا من قولك: نعم الله بك عينا، والمؤصل من الأصيل وهو العشي. وقال طرفة[6] :

خيرُ حيّ من مَعَدٍ علموا　　لِكفيّ ولجارٍ وابن عمِ

الكفّي الكفء، أي يخالفون الكفي الكفء، ويصلون الغريب ويفضلونه على الجار.

وقال لبيد في أخيه[7] :

يعفو على الجهدِ والسؤالِ كما　　أنزلَ صوب الربيعِ نو الرصدِ

يعفو يُجم ويزيد على السؤال كما يجم الماء يقال: عفا شعره إذا كثر، والرصد جمع رصدة وهي المطرة تكون أولاً لما يأتي بعدها كالعهد، وأراد أنه يعطي عطية ويرصد

---

[1] التاج (د م س) وفي اللسان العجز فقط -ى.

[2] في النقل "الغريب" وفي اللسان "القريب"، وفي التاج "العريب" وأراه الصواب يعني العرب، كما قال الآخر «ولحم الضباب طعام العريب – ولا تشتهيه نفوس العجم»-ى

[3] شكل في النقل بفتح الغين والميم وسكون اللام، وفي اللسان بفتح فسكون فكسر، وهو الظاهر-ى.

[4] اللسان ١٦ / ١٩٠.

[5] بفتح الباء في الأصل، وهو الأفصح، ويقال بكسرها، والجمع بِثَن بكسر ففتح-ك.

[6] ديوانه، ١٤ ب ٥.

[7] ديوانه، طبعة الخالدين، ص١٨.

بأخرى. وقال العباس بن عبد المطلب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته[1]:

من قبلها طبتَ في الظلالِ وفي مستودعٍ حيثُ يسترُ الورق

ويروى: حيث يُخصَف الورق، يعني ظلال الجنة، يعني أنه كان صلى الله عليه وسلم طيبا في الجنة في صلب آدم عليهما[2] السلام، والظلال جمع ظل و لم يرد ظل شجرها ونباتها لأن الجنة كلها ظل ممدوح وظلال الشجر والبنيان إنما يكون في موضع تطلع فيه الشمس والجنة لا شمس فيها ولا قمر، والمستودع يحتمل معنيين يجوز أن يكون أراد بالمستودع الذى جعل فيه آدم وحواء عليهما السلام من الجنة. والآخر أن يكون أراد النطفة في الرحم، وكان أبو عبيدة يقول في قول الله عز وجل[3] ﴿فمستقَر ومستَودَع﴾ قال: المستقر الصلب والمستودع الرحم، ويخصف الورق وللإشفى مخصف.

ثم هبطتَ البلادَ لا بشرٌ أنت ولا مضغةٌ ولا علقُ
بل نطفةٌ تركبُ السفينَ وقد ألجمُ نسرًا وأهلَه الغرقُ[4]
تُنقَل من صالبٍ إلى رحمٍ إذا مضى عالَم بدا طَبَقُ
حتى علا[5] بيتُكَ المهيمنُ من خندقٍ علياءَ تحتها[6] النطقُ

---

[1] اللسان ١٠/ ٤١٩ ك. أقول هناك البيت الأول فقط والقطعة مشهورة انظرها في تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٣٤٦- ى.

[2] في النقل "عليه" وعلى هامشه "بالأصل عليهما" أقول وهو صحيح يعني آدم ومحمدًا عليهما السلام.

[3] سورة الأنعام، ٩٨.

[4] في النقل" العرق" بعلامة إهمال العين، والصواب بالمعجمة كما في تاريخ ابن عساكر واللسان. (ن س ر) وغيره والمراد الطوفان الذى غرق فيه قوم نوح وصنمهم نسر ونجا نوح في السفينة، فأما الجام العرق بالعين المهملة فإنما يكون يوم القيامة ولا علاقة له بالشعر -ى.

[5] في تاريخ ابن عساكر واللسان (هـ م ن) "احتوى"، قال في اللسان "قال القتيبي" (كأنه في غريب الحديث) قيل معناه حتى احتويت يا مهيمن من خندق علياء يريد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقام البيت مقامه لأن البيت إذا حل من هذا المكان فقد حل صاحبه، قال الأزهري وأراد ببيته شرفه والمهيمن من نعته كأنه قال احتوى شرفك الشاهد على فضلك علياء الشرف من نسب ذوى خندق أى ذروة الشرف من نسبهم التى تحتها النطق وهى أوساط الجبال العالية جعل خندق نطقا له، قال ابن برى... أى بيتك الشاهد بشرفك وقيل أراد بالبيت نفسه" ى.

[6] بالأصل "عليها....تحتها" بضم التاء الثانية.

الصالب والصَلب والصُلب بمعنى، والعالم القرن مـن النـاس، وكذلـك الطبـق مـن الناس يكون طباق الأرض أى ملأها[1] ومنه الحديث "اللهم اسقنا غيثا مغيثا طبقا" ومنه[2]

طبق الأرض تحرّى وتدُر

وقوله تحتها النطق فيه ثلاثة أقاويل- أحدها أن يكون يريد أنك أعلى قومك نسـبًا وهم دونك كالنطاق لك، والآخر أنه يريد العفاف من لبس المرأة النطاق أى تحتها العفـاف والحسب، والثالث يعنى بالنطق المتكلمين جمع نـاطق أى أن كـل خطيـب فـى العـرب دون خطباء قومك من قول الله عز وجل[3] : ﴿بل هم قوم خصمون﴾

وقالت بنت النضر بن الحارث[4] للنبى صلى الله عليه:

أمحمدٌ ها أنت[5] ضنءٌ[6] نجيبةٌ ... فى قومها والفحلُ حلٌ ممعرقُ

الضنء الولد، والمعرق الكريم الأعراق المنجب.

الشعر والشعراء لابن قتيبة :

جاء العصر العباسى ومعه شعراؤه من مثل بشار ومسلم بـن الوليـد الذيـن جـددوا فى المعانى كما جددوا فى الأسلوب. وانقسم النقاد حيال هؤلاء الشعراء إلى فريقين، فريـق قديم محافظ لا يحب من الشعر إلا قديمه ومن هؤلاء اللغويـون، وفريـق جديـد متحـرر يـرى الشعر فنا وصناعة، وأنه بهذين المقياسين يجب الحكم عليه بـالجودة أو الـرداءة ومـن هـؤلاء الأدباء والكتاب. وهكذا نجد فى تـاريخ النقـد مشـكلة الخصومـة بـين القدمـاء والمحدثـين.

---

[1] بالاصل "ملها".

[2] وهو عجز بيت لامرىء القيس وصدره "ديمة هطلاء فيها وطف" ديوانه ١٨ ب ١.

[3] سورة الزخرف- ٥٨

[4] هى قتيلة انظر سيرة ابن هشام ص ٥٣٩ واللسان (١/ ١٠٦).

[5] ويروى "أمحمد ولأنت" كما فى اللسان ورواية ابن هشام فى السيرة "أمحمد يا خير ضنء كريمة" وقـال السـهيلى فى الروض (٢/ ١١٩) "أمحمد ها أنت ضنء نجية- قال قاسم أرادت يا محمد ها على التنبية" كذا قال- ى.

[6] شكل فى النقل بكسر الضاد وعلى هامشه "بالاصل-ضنىء- بالفتح" أقول وهما لغتان كما فى اللسـان وغـيره- ى.

وتعرضنا اليوم لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة من هو لمعرفة رأى ابن قتيبـه فـى هذه الخصومة إلى ما يثيره من مسائل نقدية ذات أهمية

١) يدعو ابن قتيبة إلى أنه لا ينبغى لنا حين نحكم على نص أدبى أنه جيـد أو ردئ التفرقة فى هذا الحكم بين القديم من الأدب والمحدث منه. ذلك لأن الشعر القديـم منـه مـا هو جيد ومنه ما هو ردئ. وليس كله جملة رديئا، ولا كله مطلقا جيـدا ... ومـن الأمـور البديهية المتفقة مع طبائع الأشياء أن قديم اليوم كان جديدا محدثا فى زمانـه وهكـذا الشـأن إلى ما شاء الله ...

يقول ابن قتيبة عارضا لوجهة نظره فى الخصومة بين القديـم والجديـد (و لم أسـلك فيما ذكرت من شعر كـل شـاعر مختـار لـه سبيل مـن قلـد أواستحسـن باستحسـان غـيره وإلا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمـه. ولا المتـأخر بعين الاحتقـار لتـأخره بـل نظرت بعين العدل إلى الفرقين وأعطيت كلا حظه. ووفرت عليـه حقـه، فـإنى رأيـت مـن علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى متخيره، ويرزل الشعر الرصين ولا عيب له عنـده إلا أنـه قيـل فـى زمانـه أو أنـه أى قائلـه، و لم يقصـر الله العلـم والشـعر والبلاغة على زمن دون زمن فى كل دهر وجعل كل قديم حديثا فى عصره، وكل شـريف خارجيًا ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادة فى أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان أبو عمرو بـن العـلاء يقـول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته، ثم صـار هـؤلاء قدمـاء عندمـا بعـد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهـم لبعدنـا. كـالحريمى والعتـابى، والحسـن بـن هـانئ وأشباههم فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، و لم يضعه عندنـا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الردئ ذا ورد علينا للمتقدم أو الشـريف. لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه)، وبالرغم مـن هـذه النظـرة التقدميـة المتحـررة فإنـه يناقضها بنظرة رجعية يحتم فيها على الشعراء فى كل عصر ألا يخرجوا علـى منهـج القدمـاء فى افتتاحيات قصائدهم.. يقول (وليس لمتأخر الشـعراء أن يخرج عـن مذهـب المتقدمـين فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفـوا علـى المـنزل والدائـر

والرسم العاثر، أو يرحل على حمار أو بغل لان المتقدمين رحلوا علـى الناقة والبعير أو يرد المياه العذب الجوارى لان المتقدمين وردوا على الاواحن والطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والعدد لان المتقدمين حروا على قطع منابت الشيح والعرار).

٢) ومما أثاره ابن قتيبة فى كتابه التفرقة بين الروح العلميـة والـذوق الأدبى، فهـو يسخر من الأدباء الذين يشتغلون بالمصطلحات الفلسفية معجبين بغرابتهـا مـع أن فيهـا لـو عنموا فسادا لأذواقهم. وهو يرى أن الأديب إنما يكون أديبًـا بتربيتـه الأدبيـة القائمـة على دراسة النصوص القديمة الجيدة، دينية أو غير دينية حتى اذا ما تكون الذوق الشخصى بطول التدريب والتمرين حكمناه فيما نقرأ.

٣) ومما تعرض له ابن قتيبة فى كتابه مسألة أن اللفظ فى خدمة المعنى، وأن المعنـى الواحد يمكن التعبير عنه بألفاظ مختلفة بعضها جيد وبعضها ردئ لكننا نرى أن ابن قتيبة هنا فاته أن يميز بين نوعين من الأساليب:

أ) **الأسلوب العقلى**: ومثل هذا الأسلوب نستخدمه فى العلم والتـاريخ والفلسـفة وعلى هذا الأسلوب تكون وجهة نظر ابن قتيبة صائبة إذ أن اللفظ عندئـذ لا يقصـد بـه إلا العبارة عن المعنى.

ب) **الأسلوب الفنـى**: وهـذا أسـلوب الأدب الجيـد بمعنـاه الضيـق، واللفـظ فيـه لا يستخدم للعبارة عن المعنى بل يقصد لذاته إذ هو فى نفسه خلق فنى، فنحـن مثـلا نقـول (إن وقت الظهيرة قد حان). فنؤدى المعنى الذى نريد نقله للسامع، لكن حين يقول شاعر كالأعشى (إذا اقتعل المطى ظلالها) للعبارة عن المعنى عينه نحس ساعتها أن عبارته فنية أراد منها إلى خلق صورة رائعة.

نلقى فى العصر العباسى ظاهرة نقدية جديرة بالنظر تلك هى ما يعرف فى تـاريخ النقد بالخصومة بين القدماء والمحدثين أو بتعبير عصرى انقسام الناس إلى تقدميـين ورجعيـين ذلك أننا كما نعلم نجد الدولة العباسية تحفل بالشعراء المجددين من مثـل بشـار ومسـلم ابـن الوليد جددوا فى المعانى كما جددوا فى الأسلوب، واختصم النقاد فيهم فمنهم من تعصـب للقديم لا يستسيغ الشعر إلا أن يكون قديما ومن هؤلاء اللغويين الذيـن كـانوا يستحسـنونه

البيت أو الأبيات فإذا قيل لهم إنها لمحدث رجعوا عن رأيهم ومنهم من كان يرى أن الشعر فن وصناعة وبهذين المقياسين يجب أن يحكم عليه بالجودة أو الرداءة وذلك رأى الأدباء والكتاب.

ونجد عند ابن قتيبة في أول كتابه "الشعر والشعراء" عرضا للرأيين يميل هو إلى جانب أحدهما... وإذا ما قمنا بجولة سريعة في مقدمة كتابه نجد أن أهم الأفكار التى تلم بها هى..

أولا: دعوة ابن قتيبة إلى عدم التفريق في الحكم بالجودة أو الرداءة بين قديم ومحدث، فالشعر القديم فيه الجيد والردئ وليس كله جيدا ولا كنه رديئا، والشعر المحدث فيه الجيد والردئ وليس كله رديئا ولا كله جيدا على الاطلاق، وقديم اليوم كان محدثا في زمانه.. ويقول في هذا السبيل (ولم أسلك فيما ذكرت من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم، بعين الجلالة لتقدمه، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه، فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل شريف خارجيا في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل، وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد هممت بروايته، ثم صار هؤلاء قدما وعندما بعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمى والعتابى والحسن بن هانئ وأشباههم، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه. كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف. لم يرفعه عندنا شرف صاحبه، ولا تقدمه) على أنه مع هذه النظرة الصادقة التقدمية نراه يناقضها بنظرته الرجعية المحملة في قوله في المقدمة.

(وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين، فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد بناء لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العاثر، أو يرحل على

حمار أو بغل لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير أو يرد المياه العذب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن والطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والعرار"

ثانيا: نظرة ابن قتيبة الصائبة فى تفريقه بين الروح العلمية والذوق الأدبى فهو يسخر من الأدباء الذين يشتغلون بالمصطلحات الفلسفية معجبين بغرابتها وفيها لو علموا فساد لأذواقهم ويرى أن الاديب انما يكون أديبا بتربيته الأدبية الذوقية القائمة على دراسة النصوص القديمة الجيدة دينية أو غير دينية حتى إذا تكون الذوق الشخصى بطول الممارسة حكمنا فيما نقرأ.

ثالثا: أثار ابن قتيبة فى مقدمته مسألة أن اللفظ فى خدمة المعنى، وأن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه بألفاظ مختلفة بعضها جيد وبعضها ردىء ولعله فى هذا قد فاته أن يميز بين نوعين من الاساليب.

١) **الأسلوب العقلى** الذى نستخدمه فى العلم والتاريخ والفلسفة.. إلخ وعلى هذا الأسلوب تصدق وجهة نظر ابن قتيبة إذ اللفظ عندئذ لا يقصد به إلا العبارة عن المعنى.

٢) **الأسلوب الفنى** وهذا أسلوب الأدب الجيد بمعناه الدقيق واللفظ فيه لا يستخدم للعبارة عن المعنى بل يقصد لذاته إذ هو فى نفسه خلق فنى. فنحن يسير علينا أن نقول (إن وقت الظهيرة قد حان)، فتؤدى للمعنى الذى نريد نقله للسامع، ولكن حين يقول شاعر كالأعشى (إذا انتقل المطى ظلالها) للعبارة عن المعنى عينه نحس ساعتها أن عبارته عبارة فنية قصد منها إلى خلق صورة رائعة لا إلى أداء فكرة مجردة، فالتصوير هو إمارة الفن فى التعبير. إلى جانب حديثه من الطبع والتكليف. تلك هى أمهات المسائل النقدية فى مقدمة ابن قتيبة والتى تعد أنفس ما فى كتبه (الشعر والشعراء) وكتابه يعد تراجم للمشهورين من الشعراء إلى أوائل القرن الثالث، يذكر لشاعر وزمنه ومنزلته وقبيلته، وصلة شعره بحياته والحسن من أخباره والجيد من قوله وما أخذ عليه العلماء من الخطأ فى الألفاظ والمعانى، والمعنى الذى ابتدعه والمعنى الذى أخذه عن غيره. وفى هذا الكتاب

بعض المحدثين كبشار والعتابي والنمرى والحسن بن هانئ.. وكم لقى هؤلاء من الطعن والتجريح لدى المتعصبين للقديم. ولكنهم عند ابن قتيبة بمأمن لأنه يحكم بين الشعرين لا بين العصرين...)

ابن قتيبة والمقياس الديني :

في مقدمة عيون الأخبار يعرض ابن قتيبة لموضوع القياس الديني والأخلاقي في الأدب عند باب (الملح والفكاهات والنوادر) ويرى أن الأدب يعرى من كثير من روحه إن أسقطنا هذا الباب منه. وهذا دلالة على صفاء الحس الأدبي لديه ووعيه إن الأدب يضرب في كثير من مناحيه في غير أبواب الجد والرزانة.

وفي تاريخ الأدب العربي كما قلنا ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه، وهو صدق القديم عن طبع وحياة، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن.

الروح العلمية والذوق الأدبي :

والواقع أن ابن قتيبة عنده ناحيتان: ناحية الروح العلمية التي تصدر عنها وهذه روح صائبة في دعوتها إلى تحكيم النظر الشخصي والاستقلال بالرأى وتقدير الأشياء في ذاتها على نحو ما رأينا. هذا الناقد يتحدث عن الشعر القديم والمحدث ويرفض أن يفضل القديم لقدمه ويرذل الحديث لحداثته، ثم ناحية الذوق الأدبي ونقد الشعر وهذه أضعف نواحيه. والغريب أننا نرى ابن قتيبة حتى في اتجاهه النقدى أكثر توفيقًا في النزعة منه في النقد ذاته، وفي المذهب الفني أكثر منه في الذوق الذى يعمله في النصوص - ولعل هذا لغلبة تفكيره على حسه الأدبي، فهو موجه خير منه ناقد.

وأوضح ما تكون نزعته الصائبة في سخريته من مذهب الفلاسفة في النقد ومحاولتهم زج المنطق الشكلى في فهم اللغة وتذوقها والكتابة فيها، وحرصه على أن يظل النظر في مسائل اللغة والأدب خاضعًا للتقاليد العربية الصحيحة ولممارسة النصوص الموروثة، وهو في هذا محافظ يريد أن ينحو بسلامة الذوق الأدبي ونفاذه من الجمود والسطحية الذين كان يخشى أن ينتهى المنطق بإنزالهما بالسليقة العربية، ومن البين أنه لا تناقض بين هذا الاتجاه وبين ما سبق أن قررناه عنه من نزوع إلى طرح الأحكام القيمية

التقليدية ودعوته إلى الأخذ بالرأى الفردى والصدور عن النظر الخاص. فهو يريد أن تظل التربية الأدبية قائمة على دراسة النصوص القديمة الجيدة دينية كانت أو غير دينية حتى إذا تكون الذوق الشخصى بطول الممارسة حكمناه فيما نقرأ وصدرنا عنه[*].

يقول ابن قتيبة فى مقدمة كتاب (أدب الكاتب) ولو أن هذا المعجم بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لحياة الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وفى علوم العرب لغاتها وآدابها، فغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمين، وقل فيه المناظرون له، ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم. فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة، راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه، والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تقسم، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار والرغبة، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر، والآن حد الزمانين، مع هذيان كثير، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه. فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلمة كانت وبالا على لفظه وقيدا للسانه وعيا فى المحافل وغفلة عند المتناظرين[1].

وقد أثبت تاريخ الأدب العربى وعلوم اللغة العربية صدق رأى ابن قتيبة فإن النظر الفلسفى الشكل الجاف كما انتهى إلى قدامة (٢٧٥هـ - ٣٣٧هـ) وإن لم يستطع لحسن الحظ أن يعم فى القرن الرابع، ولم يلبث أن أخذ يسيطر يبعد العرب شيئًا فشيئًا عن منابع أدبهم القوية وغلبة الصنعة الشكلية، وتقهقر الذوق العربى الخالص وكانت بوادر سيطرته عند أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ وسار الزمن به يجفف منابع الذوق وينتهى بالبلاغة إلى التحجر والعقم عند الخفاجى والسكاكى والخطيب القزوينى ومن إليهم.

(*) التيار الأجنبى فى البلاغة العربية ومقاومة ابن قتيبة له.

(1) نفسه ص١٧.

وكان هذا تأثير المر فى البلاغة فقط، أما النقد بمعناه الدقيق فقد ظل عربيًا خالصًا لا فى القرن الرابع عند الآمدى وعبد العزيز الجرجانى فحسب، بل وفى القرن الخامس عند رجل كأبى العلاء المعرى الذى ضمن (رسالة الغفران) الكثير عن النقد العربى والذوق السليم والمنهج. وليس من شك فى أن ابن قتيبة كان ذا فضل فى مقاومة التيار الجديد وحماية الدراسات الأدبية من طغيانه، وسوف نرى أن نزعته هى نزعة الأمدى وعبد العزيز الجرجانى: ذوق عربى، واستقلال فى الرأى، وتنمية للفلسفة عن مجال الأدب، إلا أن يكون ذلك فى طرق العرض وتنظيم المناقشة واتخاذ منهج فى التأليف. وإن كان رجل كالآمدى يجنح إلى التقيد بالقديم وإخضاع المحدث لما ألف ذلك القديم من قيم ومناهج حتى لنراه يقول غير مرو (أن اللغة لا يقاس عليها) و(إن هذا ليس من مذاهب الأولين) وإن قول أبى تمام (لا أنت أنت ولا الزمان زمان) غير مقبول لأن السابقين لم يقولوا (لا أنت أنت) وإنما هو توليد للمحدثين وأمثال ذلك مما سنراه بالتفصيل.

وإنما يهمنا الآن أن نسجل موقف ابن قتيبة من هذين التيارين كانا يتقاذفان الدراسات الأدبية واللغوية فى ذلك الحين، وأن نقوله بفضل الوقوف دون طغيان المنطق على الأدب طغيانه على الكلام عند المعتزلة وغيرهم[1].

والعيب الواضح فى نظرات ابن قتيبة يرجع إلى منهجه العقلى، فهو تقريرى النزعة فى كل شىء، وهو أحد تفكير منه إحساسًا أدبيًا، وهو لا ينظر إلى الظواهر نظرة تاريخية بل نظرة منطقية، تتناول الأشياء كما تعرض فى آخر مراحلها[2] . يقول: سمعت أهل الأدب يذكرون أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكا وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدد لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه،

---

[1] نفسه ص١٨.

[2] نظرة تقريرية نظامية يفسر بها ابن قتيبة تأليف القصيدة العربية.

وليستدعمه إصغاء الأسماع، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب وضاربًا فيه بسهم حلالاً أو حرام فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجيرة وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الأشباه وصغر في قدره الجزيل.

وهذه هي النظرة النظامية Statique في تفسير تأليف القصيدة العربية- فليس صحيحًا أن الشاعر المادح هو الذي فكر في أن يبدأ بذكر الديار والحبيبة والسفر وما إلى ذلك ليمهد لمديحه، وإنما هي تقاليد الشعر الجاهلي التي استمرت حية مسيطرة بعد أن دخل التكسب في الشعر فأصبحت المدائح تتكون من جزئين منفصلين تمام الانفصال: القصيدة القديمة كما نجدها عند الجاهليين القدماء، ثم المديح، ولا أدل على ذلك من أن نفكر فيما كان من الممكن أن تكون عليه تلك المدائح لو لم يوجد الشعر الجاهلي الذي لا مديح فيه ولو لم يطغ سلطانه على الشعراء اللاحقين. أتراهم كانوا يبدأون بذكر الديار ليمهدوا للحديث عن النساء "ليميلوا نحوهم القلوب ويصرفوا إليهم الوجوه ويستدعوا إصغاء الأسماع...إلخ من الأغراض التي قصد إليها الأولين لذتها بلا ريب[1]؟

فإما أن اللفظ في خدمة المعنى أو للعبارة عنه، فنظر جزئي قد أتلف ذوقه [أي ابن قتيبة. مصطفى] وذلك لوجوب التمييز بين نوعين من الأساليب[2]:

١- **الأسلوب العقلي**: الذي نستخدمه في العلم والتاريخ والفلسفة وأدب الفكرة، إن يصح أن يسمى هذا أدبًا. وعلى هذا الأسلوب تصدق وجهة ابن قتيبة إذ اللفظ عندئذ لا يقصد منه إلى غير العبارة عن المعنى بل نحن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن المعنى الواحد لا يمكن أن يعبر عنه إلا بلفظ واحد، فاللغات لا تعرف- ولا

---

(1) نفسه ص١٩.

(2) مسألة اللفظ والمعنى ونوعا الأسلوب.

يجب أن تعرف-الترادف. وأمر الألفاظ كأمر الجمل فالكاتب الحق هو الذى لا يطمئن حتى يقع على الجملة الدقيقة التى تحمل ما فى نفسه حملاً أمينًا كاملاً، بحيث تصبح عباراته كجسم حى لا يمكن أن ينتقص منه أو يزاد عليه شىء. والتحدث عندئذ عن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالتحدث عن شفرتى مقص والتساؤل عن جودة أحدهما كالتساؤل عن أى الشفرتين أقطع، وإنما لك أن تحكم على المعنى[1] المعبر عنه فتقبله كرأى مصيب أو ترفضه كرأى باطل.

٢- **الأسلوب الفني:** وهذا هو أسلوب الأدب الجيد بمعناه الضيق، بل هو الأدب ذاته إذا سلمنا بأن الأدب هو (العبارة الفنية عن موقف إنسانى عبارة موحية). واللفظ عندئذ يستخدم للعبارة عن المعنى بل يقصد لذاته إذ هو نفسه خلق فني- فمن اليسير مثلاً أن نقول (إن وقت الظهيرة قد حان) فتؤدى المعنى الذى نريد أن ننقله إلى السامع، ومع ذلك يقول الأعشى (إذا انتقل المطى ظلالها) للعبارة عن نفس المعنى فنحس لساعتنا أن عبارته عبارة فنية قصد منها إلى خلق صورة رائعة لا إلى أداء فكرة. وكذلك نستطيع أن نقول (وسارت الإبل فى الصحراء) عائدة من الحج كما يقول ابن قتيبة وكما يريد أن يفهم من قول الشاعر (وسالت بأعناق المطى الباطح) ولكن عبارة الشاعر عبارة فنية قصد منها إلى نشر ذلك المنظر الجليل أمام أبصارنا، منظر الإبل قاصدة من مكة متراصة متتابعة فى مغاور الصحراء، كأن أعناقها أمواج سيل يتدفق. وكذلك يستطيع مورخ أن يقول (إن العرب أنهكوا الفرس) وأما الأعشى فيقول: إنهم تركوهم "وقد حسوا من أنفاسهم جرعا" ولقد تصف الصحراء بأنها جرداء تمل عابريها أما الشاعر فيقول (وغبراء يقتات الأحاديث ركبها) وفى هذه الأمثلة الأربعة أفعال (انتقل) و(سال) و(حسا) و(اقتات) هى أمارة الفن فى العبارة[2] .

من الواضح أن مادة الشعر ليست المعانى الأخلاقية، كما إنها ليست الأفكار وإن من أجوده تصوير فنى، كما أن منه ما لا يعدو مجرد الرمز لحالة نفسية رمزًا بالغ الأثر قوى

---

[1] نفسه ص٢٠.

[2] نفسه ص٢١.

الإيحاء، لأنه عميق الصدق على سذاجته، ولعل من خير الأمثلة على ذلك قول ذى الرمة، الشاعر الدقيق الحس، وقد حط رحالة بمنزلة الحبيبة وتفقدها فلم يجدها:(*)

عشية ما لى حيلة غير أننى بلقط الحصى والخط فى الترب مولع

أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفى والغربان فى الدار وقع

فأى معنى يريد ابن قتيبة من مثل هذه الصورة الجميلة الصادقة، صورة شاعر أصابه الحزن بالذهول فجلس على الأرض منهمكًا ساهًا يخط ويمحو الخط بأصابع شرد عنها اللب فأخذت تعبث بالرمال وفى الغربان الواقفة بأنذار ما يملأ الجو أسى ولوعة، وهل أصدق من هذا وصفًا؟ وهل أقوى من إيحاء، ثم من يدرينا؟ لعل جماله فى خلوه من كل فكرة ولعل صدقه فى تناهى بساطته(١).

يجب أن ننظر فى حقيقة الخلق الأدبى ومراحله وضروبه والثابت أن الشراب والطرب والغضب والطمع وكافة المشاعر والانفعالات لا تخلق شعرًا ساعة احتدامها(**)، فالانفعال القوى يعقد اللسان، ويشمل التفكير ويشغلنا عما عداه، فالشاعر لا يقول(٢) الشعر إلا بعد أن يصحو من الشراب ويهدأ بعد الغضب، إذ تصفو عندئذ قريحته ويستطيع الخلق وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور كامنة- وإذن فهو لا يقول إلا عن روية، والشعر بعد صياغة يكون منها المتكلف والمطبوع. وإذا صح ما قدمناه يكون لدى الشاعر دائمًا ومهما كانت دوافعه من حرية النفس واطمئنان التفكير ما يستطيع معه أن يتكلف إذا كان فاسد الطبع أو سيء المذهب.

هذا والدوافع إلى الشعر لا تكفى لتقوله إذ لابد من طبع موات، بل إنه لا يكفى توفر الطبع، وكل خلق عمل إرادى، فالطبع الشعرى لا يُفَجِرُ شعرًا بذاته، وليس هو الشعر ويا بعد ما بين الطائر الذى يغرد والشاعر الذى يخلق. ونصل بالشعر إلى شطره الأخير

(*) مما يمكن أن يكون من أجود الشعر.

(١) نفسه ص٢٢.

(**) حقيقة الخلق الأدبى ومراحله وضروبه.

(٢) نفسه ص٢٤.

الذى لا يقل أهمية عما سبق فتقول: إن الإرادة نفسها لا تكفى، ونحن لا نستطيع كل ما نريد ولو توفرت فى نفوسنا سبله، بل لابد من الجهد، فالشعر كما قلناه صياغة لفظية وليس أشق من إخضاع الإحساس أو الفكرة للفظ، وفى هذا يقول ديهامل الشاعر الكاتب عن تجربة طويلة "كم من مرة إلى رحال أو نساء يتحدثون وسط الجموع فى عربة قطار أو أثناء وجبة طعام فتحتنى نفسى كل مرة: ها قد وقعت على صنعة نفسية أو تسقطت علاقة ولمحت دافعًا خفيًا ولكنى عاجز عن أن أصوغ ما اكتشفت ألفاظًا، ربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به أما الآن فلا، وأنا أعلم إنى إن لم أصب التوفيق فسيأتى من بعدى غيرى يفيد من تجاربنا وتساعده عبقريته فينجح فى العبارة عما لحناه نحن". وهذا لابد صحيح حتى فى الشعر العربى رغم ما نعرفه عنه من صدوره عن لغة شعرية تقليدية مستقرة. فهو ككل شعر إحساسات وصور وخواطر تصاغ ألفاظًا. ولو لم يكن فى هذه الصياغة إلا صعوبة الاختيار لكفى لتأييد ما نقول من أن الشعر صناعة ككل الصناعات، ولابد فى كل صناعة من مران وجهد.

وإذن فالشعر طبع ودوافع وإردة وصناعة وجهد. وهذه هى المراحل التى لم يفطن لها ابن قتيبة[1].

. يقول الأديب الصادق النظر الدقيق الذوق المرحوم طه إبراهيم "إن صاحب البديع يفكر مرتين، مرة للفكرة ومرة لتحويرها والتكلف بها حتى تسكن البديع"[*]. ومن المعلوم أن الصياغة حركة ذهنية عند الكاتب والشاعر، فإن تعقدت هذه الحركة لم يكن لنا أن ننتظر إلا عبارات معقدة وإلا نفسا فاترًا كلما هم بالإطراد وقف به الحرص على الزخرف، وحال بينه وبين الجيشان والاسترسال تلمس المحسنات، ولذلك فإن التكلف أول ظاهرة فى شعر المحدثين. "تاريخ النقد عند العرب ص٩.

وفى هذه الجمل الرائعة خير مقياس للتمييز بين صناعة الشعر وتكلفه، فالصناعة حركة ذهنية واحدة إذ يدرك الشاعر الصوت أو يخضع الإحساس للفظ فيكون الخلق الفنى،

---

(1) نفسه ص٢٤.

(*) فرق ما بين تقويم الشعر والتكلف.

وقد ولدت الصورة المجسمة أو صدر الإحساس مكونا، وأما قبل ذلك فلم يكن بنفس الشاعر شيء، وإن كان هذا ولا علاقة له بالأدب وما نظنه إلا أشباحًا أو حالاتٍ نفسية ممحوة المعالم لا يستطيع من تضطرب بنفسه أن يتبين لها حقيقة أو يميز حدودًا، ولابد له من الجهد حتى يستطيع خلقها. وهذا ما كان يفعله زهير والحطيئة، وما يفعله أو يجب أن يفعله كل شاعر مجيد، فالفن لا يجيء بغير الجهد والقيود والصناعة، وليس بصحيح أن الطبع يكفي دون ذلك، ولا أن الشعر الجيد رتجال. وإنما الصحيح أن أخذ الشعراء أنفسهم بتجويد صناعتهم يختلف قسوة ولينا، وأنهم يجدون في هذا الجهد مشقة تختلف حسب طباعهم عسرا ويسرا، وهم سواء قسوا على أنفسهم أو لانوا، وسواء أكانت مشقتهم عسرًا أو يسرًا، لا يخرجون لذلك بشعرهم عن الطبع إلى التكلف، وما نظن أحدًا يستطيع أو استطاع أن يصف شعر زهير والحطيئة بالتكلف غير ابن قتيبة. بل نحن لا نستطيع أن نصف أي شعر جاهلي أو أموي بهذه الصفة. والتكلف في آداب العالم أجمع لم يظهر عادة إلا في عصورها المتأخرة، عندما يطغى التقليد على الطبع، ويعجز التقليد بطبيعته عن محاكاة الروح واللباب، فيأخذ بالهياكل والقشور، وهذا هو شعر التوليد يحاول أصحابه أن يغطوا فقرة بصورة مقشرة أو محسنات زائفة.

وفيصل التكلف هو أن يفكر صاحبه مرتين: مرة للفكرة ومرة لتحويرها والتلطف بها حتى تسكن للبديع، وفي هذه الحالة يغلب أن تكون مادة الشعر نفسه متكلفة كاذبة، بل وطبع الشاعر فاسدًا إذا نحس بزيف الإحساس وعدم أصالة الخاطر وقسر الصورة، فيأتي الشعر أحوف متنافر النغمات، يقف عند الأذن وينفضه الإحساس ويرده الذوق كالبروج المرذول. وهذه صفة كثيرًا ما نجدها عند أبي تمام وأما عند زهير والحطيئة إنما هو التجويد والتثقيف والصقل حسبها ابن قتيبة تكلفًا[1].

لقد أورد (ابن قتيبة) حكمًا صحيحًا وشرطا يجب أن يتوفر في الشعر الجيد المطبوع وهو "أن لا نحس بما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح اللحيين" إذ

---

[1] نفسه ص٢٦.

من المسلم به عند ذوى البصر بالشعر بل والأدب أن الشاعر أو الكاتب إذا نجح فى جهده وواتاه الطبع جاء ما يكتب ولا أثر فيه لشدة العناء ورشح الجبين، وإنما نلمح ذلك عن بعد دفينا فى جودة السبك والصلات المحكمة بين الجمل وبين الصور والإحساسات(*). الجهد فى الشعر الجيد ضوء داخلى رقيق ينير ولكنه لا يغشى الأبصار. والجهد إذا ظهر فى "كثرة الضرورات وحذف ما بالمعانى حاجة إليه وزيادة.

والآن لم يبق لدينا للإحاطة بالموضوع إلا أن ننظر فى الأسس التى يفاضل بها بين الشاعرين، ولكن أليست هذه الأسس هى بعينها المقاييس التى تستخدم فى النقد كله؟ وحيث أننا سنفرد فصلا لتلك المقاييس فإننا نتركها إلى أن نصل إليها.

قدامة بن جعفر وكتابه نقد الشعر :

والناظر فى كتاب قدامة (٢٧٥- ٣٣٧هـ) يجد الاتجاه البلاغى الشكلى الذى انتهى بذلك العلم إلى التحجر. وتأليف هذا الكتاب فى ذاته هو بناء هيكل منطقى، تصوره بعقله المجرد، ولقد جارى قدامة هذا العقل الشكلى إلى نهاية شوطه غير ناظر إلى حقائق الشعر ولا متقيد بها(١) وليس كذلك ابن المعتز، فكتاب البديع ينقسم إلى قسمين كبيرين الأول (من ١- ٥٨) وفيه يحصى المؤلف خصائص المذهب الجديد الخمس التى ناقشناها فيما سبق. وفى الجزء الأخير (من ٥٨- ٧٧) يذكر "بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين. ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارًا، من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة". أى أنه يورد محاسن الكلام الأخرى التى لم يلجأ إليها أصحاب البديع بنوع خاص ولا اتخذوا منها مبادىء لمذهبهم. وهو يذكر من ذلك:

١- الالتفات ٢- الاعتراض ٣-الرجوع

٤- الخروج من معنى إلى معنى. ٥- تأكيد المدح يشبه الذم

(*) مظاهر التكلف فى الشعر.

(١) من النقد المنهجى للدكتور مندور ص٤٩.

٦- تجاهل العارف ٧- هزل يراد به جد

٨- حسن التضمين ٩- التعريض والكناية

١٠- الإفراط في الصفة ١١- حسن التشبيه

١٢- إعنات الشاعر نفسه في القوافي ١٣- حسن الابتداءات.

وهو وإن كان قد أخذ في كتابه بمنهج في التأليف، فقسم الكتاب كما رأينا إلى قسمين، وتتبع في الكلام على كل وجه من الأوجه التي ذكرها خطة ثابتة على نحو ما نراه يفعل عند الكلام على خصائص مذهب البديع الخمس يبدأ بذكر الخاصية ثم يورد أمثلة لها من القرآن يتبعها بأمثلة من الحديث الشريف وأقوال المتقدمين ثم من الشعر القديم وينتهي بالشعراء المحدثين، ويعقب كل ذلك بذكر ما عيب من استعمالات كل وجه. أقول برغم وضوح المنهج عنده والخطة المنطقية في التفكير، فإن ابن المعتز غير قدامة.

ابن المعتز يبدأ تفكيره من الوقائع والنظر فيها، وهو عربي صميم سليم الذوق، يعرف الشعر العربي ويتذوقه وإذا كان للفلسفة تأثير عليه فإنها لم تستعبده ولا أفسدت نظرته إلى الشعر. كما لم تبعد به عن الحقائق فمنطقه منهج في التأليف ومنهج في التفكير. وأما قدامه فعقليته شكلية صرفة.

وهو لا يبدأ بالنظر في الشعر بل يكون أولاً هيكلا لدراسته ويحدد تقاسيم، وإن شئت فقل إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب ثم يأخذ في ملىء أدراجها[1].

هل الشعر لا يمكن أن يكون صادقًا إلا إذا صدر عن التجربة الذاتية المباشرة؟[*]

يجيب النظر السريع على هذا السؤال بالإيجاب، فأنت لا تجيد وصف إلا إذا كابدته أو وصف الخمر إلا إذا شربتها وأنت لا تقف على الإطلاق إلا إذا مررت بها، وبهذا أبو نواس، ولكنه قول لا يمكن قبوله على إطلاقه وإلا لوجب أن يعيش الروائي أو الشاعر ألوانًا من التجارب لا تتسع لها الحياة. ونحن وإن كنا لا نقول بأن الأدب كله وصف لما نحياه أو ما عجزنا عن أن نحياه إلا أننا ننظر في حقيقة الخلق الفني فنجد أنه كثيرًا ما يكون قدرة على خلق الواقع بدلاً من الاقتصار على تصويره.

---

[1] نفسه ص٥٠.

[*] هل الشعر لا يصدق إلا بصدوره عن التجربة الذاتية المباشرة.

يلخص جورج ديهامل فى كتابه "دفاع عن الأدب" قصة لبيير لويس عنوانها "الرجل الأحوانى" وموضوعها فنان إغريقى يأخذ بعبد ويكوى صدره بالنار ليراه يتألم فيستطيع أن يلتقط ملامحه المتقلصة ويودعها لوحة زيتية كان يرسمها للشخصية الخرافية، شخصيته بروميثيوس الذى عذبته الآلهة لأنه سرق النار من السماء وأتى بها إلى البشر، وكان عذابه نسرًا ضاريًا[1]. نهش كبده بالنهار ويتركه ليعود فينمو بالليل وعند الصباح يستأنف النهش. ورسم الفنان اللوحة ولكن الشعب علم بتعذيبه لهذا العبد المسكين وثاروا وأتت الجموع إلى منزل الفنان لتنتقم منه، ولكن الفنان أطل على الشعب من نافذته وأراه اللوحة فنسى الشعب العبد المعذب وهلل للفن. ومع ذلك يعلق ديهامل على تلك القصة بقوله "ما أفقرها عبقرية تلك التى تشعر بالحاجة إلى أن تثير الألم بالفعل لكى تصوره.

وفى هذا ما يلقى كثيرًا من الضوء على مشكلة التقليد وإفادة الشعر العربى منه أو عدم إفادته، فالأمر ليس أمر تقليدى أو أمر موضوع يقال فيه الشعر وإنما هو أمر الشاعر نفسه، فهو إذا كان موهوبًا استطاع أن يصل بقوة خيالية إلى أن يخلق فى نفسه الجو الشعرى الذى يريده، ومتى خلق هذا الجو استطاع أن يصل بقوة خيالية إلى أن يخلق فى نفسه الجو الشعرى الذى يريده، ومتى خلق هذا الجو استطاع أن ينقل إحساساته إلى موضوع، وهذا ما يسمونه بنقل القيم، فهو إذا كان حزينًا استطاع أن يعبر عن حزن يوصف أطلال لم يراها، ويأتى هذا الوصف صادقًا مؤثرًا جميلاً، وعلى العكس من ذلك قد يرى شاعر آخر مئات من الأطلال يحاول وصفها فلا يصل إلى شىء لأنه غير موهوب ولأنه لا يملك القدرة على الانفعال ثم على التعبير عن انفعاله فى صيغة شعرية.

وللشاعر الفرنسى ألفريد دى فنى قصيدة (بيت الراعى) يعبر فيها عن هذه المعانى، ويأسف فيها لاختراع وسائل المواصلات الحديثة التى حلت محل الوسائل القديمة عندما كان المسافر يسير رويدا فيجد الوقت للتأمل فى الناس والأشياء تأملا يحرك الإلهام الذى لم نعد نجد له أثرا فى وسط ما فى حياتنا من تلك الآية التى قد تفسر الظاهرة التى نلاحظها اليوم فى أوربا كلها، ظاهرة قلة الشعر إن لم يكن وشك انقراضه.

---

[1] من النقد المنهجى للدكتور مندور ص٥٨.

القسم السادس

بلاغات النساء لابن طيفور

بلاغات النساء

وطَرائِف كلامهِنّ ومُلَح نوادرهِنّ وأخبار ذَوَات الرأى منهُنّ وأشعارهُنّ فى الجاهليَّة وصَدْر الإسلام(*)

نظرة عامة :

يُعَدُّ كتاب ابن طيفور من تتث المؤلفات التى قام منهجها وهدفها فى وقت معًا على الذوق الأدبي، فالاختيار والانتقاء هو الأساس والهدف وهو تربية الذوق الأدبى لدى المتلقى أو القارئ، والنموذج الذى اخترناه "لأروى" دليل على هذه الفصاحة الآسرة التى امتلكتها تلك السيدة الجليلة، أفحمت بها الرجال بدءًا بمعاوية الخليفة الأموى الأول، فعمرو ابن العاص، فابن مروان بن الحكم، ولقد خشى معاوية من لسانها فزاولها فيما طلبت من حق، والنص صورة أدبية من صور الحوار الرائع يمازج فيه الدين السياسية، وفن المدح بالذم والسرد بالحوار.

ترجمة ابن طيفور(**) :

هو أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طَيفُور الخُراسانى، مؤرخ من كتاب العصر العباسى الثانى، أصله من مرو الروذ، من أسرة إيرانية موالية لبنى العباس، واشتهروا بأبناء الدولة.

(*) أبي الفضل أحمد بن طاهر طَيْفُور الخُراسَانيّ (٢٠٤ هـ : ٢٠٨ هـ).

(**) طيفور : فى اللغة من الطفر فى اللغة وثبة فى ارتفاع، كما يطفر الإنسان حائطًا، أى يثبه، والطفرة : الوثبة؛ وقد طفر يطفر طفرًا وطفورًا : وثب فى ارتفاع، وطفر الحائط : وثبه إلى ما وراء، وفى الحديث "فطفر عن راحلته؛ الطفر : الوثوب، واللطرة من اللبن : كالطثرة، وهو أن يكثف أعلاه ويرق أسفله، وقد طفر.

وطيفور : طويئر صغير، وطيفور اسم.

وأطفر الراكب بعيره إطفارًا إذا أدخل قدميه فى رفغيه إذا ركبه، وهو عيب للراكب، ذلك إذا عدا البعير.

وفى القاموس المحيط : الطفرة : الوثب فى ارتفاع، كالطفور من اللبن كالطثرة، وقد طفر تطفيرًا، والطيفور : طير واسم أبى يزيد البسطامى شيخ الصوفية، وأطفر الراكب فرسه إطفارًا أدخل قدميه فى رفغيها وهو عيب للراكب.

ابن طيفور : أحمد بن طيفور (ت ٢٨٠ هـ)، وعبيد الله بن أحمد (ت ٣١٥ هـ) ومحمد بن طيفور (ت ٥٦٠ هـ).

ولد ببغداد سنة أربع ومائتين، وكان أول أمره مؤدبًا عاميًا، ثم اشتغل بالتأليف، واتخذ له حانوتًا بسوق الوراقية، فاشتهر أمره جدًا، و لم ألف "سرقات الشعراء" كثر أعداؤه، ورَمَوْه بقلة بضاعته فى الشعر، مع ضعفه فى النحو.

وقد أثنى عليه المسعودى، وذكر بعض شعره، وكذا الخطيب وقد نقل عنه الذهبى فى أكثر من موضع من السير، وذكر له تنفًا من شعره وأدبه.

ففى ترجمة أحمد بن الخطيب، قال الذهبى[1] : "قال أحمد بن أبى طاهر : كان يَحْتَدُّ، ويخرج رجله من الركاب فيرفس من يراجعه.

فقلت :

قُلْ للخليفةِ يا ابن عمِّ محمدٍ   شَـكِّلْ وَزيرَكَ إنَّـه مَحْلـولُ

فلسانُهُ قد جالَ فى أغراضِنا   والرِّجْلُ منه فى الصُّدُورِ تَجُولُ"

وفى ترجمة الذهبى للمنتصر بالله ذكر أن أحمد بن أبى طاهر كان طبيبًا له، قال[2]: "... فتحيلوا إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده.

وقال علقمة :

ذهبت منَ الهُجْرانِ فى غير مَذْهَبِ   ولم يَكُ حقًّا كلُّ هذا التجنب

وأنشداها فغلبت علقمة، فقال لها زوجها : بأى شىء غلبتيه ؟

قالت : لأنك قلت :

فللسوطِ ألهوب وللسَّاقِ درة   وللزَّجْرِ منه وقعُ أهوج متعب

فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك، وقال علقمة :

فولَّى على آثارهن بحاصب   وغيبة شُؤْبوب من الشَّدِّ ملهب

فـأدركهنَّ ثانيًا من عنَانه   يمـرُّ كمـرِّ الرائح المتغلب

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبى (١٢ / ٥٥٣).

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبى (١٢ / ٤٣)، وانظر فى السير (١٠ / ٢٥٦) كلامًا له فى ترجمة أحمد بن أبى خالد.

فلم يضرب فرسه بسوط، و لم يمره، و لم يتعبه بزجر.

وفى رواية : أن امرأ القيس قال لأمِّ جندب : بم فضلته علىَّ ؟ قالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك، زجرت وضربت وحركت ساقيك، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت، فغضب من قولها وطلّقها وخلف عليها علقمة[1].

وهنا نرى أن هذه المرأة الناقدة لم تقتصر فى نقدها عند حد الاستحسان الذاتى، وإنما اتخذت منهج النقد الموضوعى القائم على المبررات الفنية، والدراسة العميقة لدلالات الألفاظ ومدى نجاح الشاعر فى توظيفها لأداء المعنى المراد.

وقد وصل إلى هذه المكانة شاعرات أخريات غير امرأة امرئ القيس هذه، فلقد تبوأت الخنساء مكانة سامقة جعلت النابغة يفضل شعرها على شعر حسان ومن سواه من الوافدين عليه فى سوقه.

وشعرها معروف مشهور مشهود له بالتقدم، ولعلنا نورد بعضه فى تلك الدراسة، وفى الكتاب نماذج عديدة له.

وأما صدر الإسلام فيذكر لنا ابن طَيْفُور فى كتابه هذا نماذج عديدة من بلاغات النساء فى ذلك العصر، فقد صدر كتابه بخطب عائشة أم المؤمنين (رحمها الله)، وقد بلغت الغاية من الفصاحة والبيان جعلت أهل العلم والبيان يُقَدِّمُونها على من سواها من النساء والرجال على السواء.

وقد شهد بفصاحتها كبار الصحابة والتابعين (رضى الله عنهم).

فقال موسى بن طلحة[2] : "ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة (رضى الله عنها)" أخرجه الترمذى.

---

[1] "كتاب الأغانى" (ج ٧، ص ١٢١، ١٢٢) (ساسى).

[2] موسى بن طلحة بن عبيد الله، القرشى التيمى، كان أفضل ولد طلحة روى عن أبيه، وعثمان، وعلى، والزبير ابن العوام، وأبى ذر، وأبى أيوب، ومعاوية، وعبد الله بن عمر، والسيدة عائشة وغيرهم (رضى الله عنهم)، وكان ثقة، ومن الفصحاء، مات سنة ١٠٣ هـ أو ١٠٤ هـ).

انظر : "تهذيب التهذيب" (١٠ / ٣٥١).

وروى محمد بن سيرين عن الأحنف بن قيس[1] قال: "سمعت خطبة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، والخلفاء كلهم هَلُمَّ جَرًّا إلى يومى هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن، منه من عائشة (رضى الله عنهم)" أخرجه الحاكم في مستدركه.

وروى الحافظ الذهبى عن القاسم بن محمد[2] قال: "دخل معاوية بن أبى سفيان على عائشة (رضى الله عنها) فكلمها، قال: فلما قام معاوية اتكأ على يد مولاها ذكوان فقال: "والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة (رضى الله عنها)، ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3].

أما علمها ومعرفتها حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأمر مجمع عليه.

قال أبو موسى الأشعرى: "ما أشكل علينا، أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديث قط فسألنا عائشة (رضى الله عنها) إلا وجدنا عندها منه علمًا" أخرجه الترمذى، وقال: صحيح[4].

كما يذكر كذلك نماذج لا تقل جودة ولا براعة من خطب عائشة لفاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولزينب، وأُمّ كلثوم بنتى على بن أبى طالب (رضى الله عنهم).

---

(1) الأحنف بن قيس: روى عن عمر، وعلي، وسعد، وابن مسعود، وأبى ذر وغيرهم (رضى الله عنهم)، له مناقب كثيرة، وحلمه يضرب به المثل، وكان ثقة مأمونًا، توفى سنة (٦٧، ٧٢ هـ).

انظر: "تهذيب التهذيب" (١ / ١٩١).

(2) هو: ابن أبي بكر الصديق، ربى يتيمًا فى حجر عائشة أم المؤمنين، ثم روى عنها وعن العبادلة، وعن أبى هريرة ومعاوية وغيرهم (رضى الله عنهم)، فكان من سادات التابعين وخيارهم، ومن أفضل أهل زمانه علمًا، وأدبًا، وفقهًا، وكان ثقة، ورعًا إمامًا، وكان من أعلم الناس بحديث عائشة (رضى الله عنها)، توفى على الأرجح سنة (١٠٦ هـ).

انظر: "تهذيب التهذيب" (٨ / ٣٣٤).

(3) "سير أعلام النبلاء" للذهبى، ترجمة السيدة عائشة (رضى الله عنها)، ص ٦٧.

(4) "شرح خطبة عائشة أم المؤمنين فى أبيها رضى الله عنهما"، ص ٦، ٧، لمحمد بن الأنبارى، جمع وتحقيق الدكتور/ صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد - بيروت.

وكذا كلامًا بليغًا وشعرًا لحفصة بنت عمر (رضى الله عنهما) فى رثاء أبيها (رضى الله عنه)؛ وخطابتها بعد مقتله.

كما أورد كلامًا بليغًا لنائلة زوجة عثمان بن عفان، وعائشة ابنته بعد مقتل أبيها (رضى الله عنهم).

كما أورد كلام بعض الصحابيات المشتهرات بالفصاحة، والبيان أمثال : أروى بنت الحارث بن عبد المطلب (رضى الله عنها).

"وأما العصر الأموى، فمن شهيرات النساء فيه أُمّ البنين زوجة الخليفة الوليد ابن عبد الملك، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة الوليد يستشيرها فى مهام الدولة.

ومن شهيرات النساء فى العصر العباسى والأندلسى : أُمّ جعفر زبيدة بنت جعفر المنصور العباسى، وعلية بنت المهدى، والعباسة، وولادة بنت المستكفى، وحمدة بنت زياد، ولبنى كاتبة المستنصر، والأديبة الإشبيلية النفذة مريم بنت أبى يعقوب التى اتخذت من بيتها محفلاً لمدارسة الأدب، وندوة للأدباء حتى غدت موضع الأنظار وموضع التجلة والاحترام، وتسابق الأمراء والوزراء إلى تكريمها ونيل مودتها"[1].

وقد كان أدب النساء فى تلك العصور واسعًا متعدد الأغراض شعرًا ونثرًا.

وقد كان هذا الشعر يبارى شعر الرجال فى جودته وسعة أغراضه وجزالته وفصاحته، بل قد يتفوق عليه أحيانًا فى أغراض خاصة يجود فيها شعر النساء، وذلك كالرثاء الذى كان للمرأة منه القِدْحُ المُعَلَّى[2]، والنصيب الأوفى، فلا شك أن المرأة أوفر عاطفة من الرجال، وأشجى بكاء، وأكثر دموعًا، وإذا صح أن الرثاء نوع من النواح أو البكاء، فلا جرم تحتل المرأة الصدارة فى ذلك بلا منازع، فإن المرأة إنسان ضعيف رقيق لا سلاح له سوى النواح والدموع فى الأحزان، واللجاجة وسلاطة اللسان فى الأمان، ذلك النواح وتلك اللجاجة تبلغ المرأة فيها الغاية فى لغتها كائنة ما كانت، فإذا رثت المرأة، فقد

---

[1] أدب النساء فى الجاهلية و الإسلام، ص ١١، تأليف الدكتور / محمد بدر معبدى، طبعة مكتبة الآداب.

[2] يقال له : القِدْحُ المُعَلَّى : أى الحظُّ الأوفر.

رث رثاء الرجل بجوارها، وإذا خاصمت الرجل في أمورها فلاشك أنها سوف تخصمه حتى يجفّ ريقه في حلقه، وحتى ينقطع عن مجاراتها ومحاورتها ولا يهدأ له بالٌ إلاّ إذا أسكتته وصارت لها الغلبة عليه.

وهذا يدلك على أن قول الله تعالى فيهن : ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1] ليس على إطلاقه، فالمرأة إذا خاصمت الرجل فيما هو من أمورها، فإن لها لسانًا ذربًا فصيحًا، وبيانًا أدهى من السحر، وأمرّ من الصبر، فإذا خاصمت فيما سوى ذلك من الحقوق فالعِيُّ حليفها، والبكاء رفيقها، ومن ثم تتلعثم ولا تبين.

وإذا كان ثمة اختلاف بين أدب النساء وأدب الرجال في أغراض كل منهما، ففي ابتعاد النساء في عمومهن سوى الماجنات منهن عن الغزل المكشوف والمجون وشعر الخمر ونحو ذلك من الأغراض التي تأباها طبيعة المرأة التي جبلت على الحياء والتستر.

وهذه أمثلة مما أجادت فيه النساء من الأغراض، كالرثاء، والفخر، والمدح، والهجاء، والوصايا، ووصف العشرة وأخلاق الرجال، والأدب الاجتماعي، والأدب السياسي من مخاطبات للملوك والخلفاء والأمراء، والانتصار لبعض الولاة، أو الخلفاء دون بعض، والاعتذار لدى بعضهن ونحو ذلك.

وهذا يدل على أن المرأة قد زاحمت الرجال في كل مجال من مجالات الشعر التي لا تزرى بقيمتها، ولا تذهب بفضيلتها، ولا تحط من شأنها كامرأة مجبولة على العفاف والحياء.

وقد يتصور من ذلك -وهو كونها مجبولة على الحياء تُطلَب ولا تَطلُب- أن المرأة ليس لها نصيب في شعر الغزل، ولكن التراث أثبت لها بعض النماذج في ذلك، وإن كانت تتسم بالقلّة بالنسبة لغيره من أغراض الشعر عند النساء.

ويمكننا أن نعرض هنا لبعض تلك الأنواع بالتحليل والدراسة الفنية الموجزة، لعلنا نخرج من وراء ذلك بتصور واضح لأهم السمات الفنية المميزة لأدب النساء في تلك العصور الزاهرة.

---

[1] سورة الزخرف : الآية ١٨.

الرثاء :

وإذا كان الرثاء هو الغرض الذى برزت فيه النساء على الرجال وتقدمت فيه بلا منازع، فإن الخنساء شاعرة الجاهلية والإسلام هى سيدة هذا المقام، ومرثيتها فى رثاء أخيها صخر مشهورة أشهر من نار على علم. لاسيما قولها فيه :

وإنَّ صخـرًا لمولانا وسـيدُنا ... وإن صخرًا إذا نَشـتُوا لنحّار

وإنَّ صخـرًا لتأتمُ الهُداةُ به ... كَـأَنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسِـهِ نـار

لم تره جارةٌ يمشى بساحتها ... لريبَةٍ حين يخلى بَيْتَهُ الجار[1]

فإنها مدحت أخاها فى هذه الأبيات الثلاثة بالكرم والرياسة والعفة والطهارة، مستخدمة فى ذلك الكناية فى قولها : "نحّار" كناية عن كثرة إطعامه، معبرة عن ذلك بصيغة المبالغة فعّال.

وتبالغ فى البيت الثانى فى وصفه بالرئاسة والتقدم، حيث تجعله إمامًا للهداة يأتمون به، وتلجأ فى تصوير ذلك إلى التشبية التمثيلى فى قولها : "كأنه علم فى رأسه نار"، ثم تصفه فى البيت الثالث بالعفة و الطهارة عن طريق الكناية، فكونه لا يمشى بساحة جارته حين كونها مغيبة يدل على كمال عفته وصيانته لحرمة الجار.

فإذا تركنا الخنساء إلى غيرها من النساء الشاعرات اللاتى رويت لهن أشعار فى الرثاء، فإننا نجد عددًا كبيرًا من النساء قد أجدن فى ذلك، منهن من خلد التاريخ ذكراها، ومنهن من قصر المأثور عنها عن التعريف بها وتخليد اسمها، فقد أنشدوا لبثينة شعرًا ترثى به جميلاً حين بلغها موته، منه قولها :

وإنَّ سَلْوَى عن جميلٍ لساعة ... من الدهرِ ما جاءت ولا حان حينُها

السمات الفنية لأدب النساء :

لا نستطيع أن نتكلف لأدب النساء سمات خاصة تميزه عن أدب الرجال من الناحية الفنية على الجملة، فالمرأة عمومًا قد بارت الرجل فى استخدام جميع الوسائل والأدوات

---

[1] بلاغات النساء، ص ٢٣٣، طبعة مكتبة السندس.

الفنية من الصياغة وجودة النظم، وحسن التصوير، وتوشية الكلام وتطريزه بحُلل البديع، واكتسائه حلل الفصاحة وأثواب البيان.

غير أننا من خلال تلك الدراسة الموجزة نستطيع أن نلتمس بعض تلك السمات الخاصة لكثير من أدب النساء، فمن ذلك شيوع الكنايات فى ذلك الأدب.

ويمكننا أن نرجع شيوع ذلك النوع من الوسائل البيانية فى أدب النساء إلى ما انطوت عليه طبيعة المرأة من الحياء والتستر، ومن ثم فإن الكناية أنسب لطبيعتها من التصريح.

كذلك يشع فى ذلك الأدب توشية الكلام بسائر أنواع البديع من السجع والجناس والمطابقة وغير ذلك، وهذا كله لا اختصاص فيه بشعر النساء، غير أننا قد نرجع كثرة استخدام النساء له إلى ميلهن إلى الزينة عمومًا، والبديع يدخل فى عموم الزينة، لأنه زينة اللفظ، وإن كان ذلك لا يغض من أثره فى مطابقة المعنى كما ذهب إليه البعض خطأً.

غير أن الذى يثير العجب حقًا هو كثرة الاقتباس والتضمين لكثير من خطب النساء لآيات القرآن الكريم.

فلا أدرى أيرجع ذلك لرهافة حسّ النساء وشدّة تأثر الحافظات للقرآن منهن به عن الرجال ؟ أم يرجع ذلك لقصر باعهن فى القول، ولجوئهن إلى ما يسعفهن من المحفوظ من القرآن الكريم ؟

لعل الأول هو الأرجح وذلك لقوّة تأثير القرآن الكريم على ذوى القلوب الرقيقة الرحيمة.

أمر آخر يميز أدب النساء عمومًا هو : صدق العاطفة لاسيما فى الرثاء، وكذا المدح والفخر، وصدق اللهجة، ولذاعة الخطاب عند الهجاء، ولعل ذلك واضح الصلة بطبيعة المرأة، مما جعلها تبرز على الرجال فى تلك الأغراض.

***

وبعد فتلك دراسة سريعة موجزة جعلتها كالتقدمة بين يدى هذا الكتاب القيم، راجيًا أن تسنح لى فرصة لدراسة عميقة توفى هذا الجانب حقه، وتسد تلك الثغرة فى

الدراسات الأدبية، لتراثنا العميق وعلى كل فإني أحمد الله أن وفقني لخدمة هذا الكتاب وتذليله عسى أن يكون مُشوِّقًا لكثير من القراء بموضوعه المعجب لجني قطوف البلاغة، واستنشاق أريج الفصاحة الفوّاحة من شذا عطور بلاغات النساء في ذلك السفر الجليل.

كما أنبّه القارئ من باب الأمانة العلمية إلى أني قد صنت خاطره وعينيه أن تقعا على ما يؤذي القارئ من ألفاظ بذيئة أو حكايات سخيفة لمواجن النساء قد صرحن فيها بألفاظ الجماع الصريحة وغيرها من العبارات الوقيحة؛ فحذفت ذلك كله صونًا للأسماع والعيون والخواطر، ودرءًا للفتنة في زمان عج بالفتن. فأردت ألا أمدها بوقود جديد.

واحتسبت الأجر في ذلك عند الله، وسوف يستحسن ذلك الفضلاء إن شاء الله، ومن أراد الوقوف على ذلك لغرض من الأغراض فليراجعه في أصول الكتاب وهي محفوظة بدور الكتب لا تزال.

والله أسأل أن يجزي صاحب (دار الفضيلة) الأستاذ / طه عاشور خير.

كلام أروى[1] بنت الحارث بن عبد المطلب ـ رحمة الله عليها :

روى ابن عائشة، عن حماد بن سلمة، عن حميد الطويل، عن أنس ابن مالك – رضي الله عنه– قال : دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية بن أبي سفيان بالموسم[2]، وهي عجوز كبيرة، فلما رآها قال : مرحبًا بك يا عمة، قالت : كيف أنت يا ابن أخي، لقد كفرت بعدي بالنعمة وأسأت لابن عمك[3] الصحبة، تسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك[4]، بغير بلاء[5] كان منك ولا من آبائك في الإسلام، ولقد

---

[1] أروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية، والدة المطلب بن أبي وداعة السهمي، ذكرها ابن سعد في الصحابيات في باب بنات عم النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال : أمها غزية بنت قيس بن طريف، وولدت لأبي وداعة المطلب، وأبا سفيان، وأم جميل، وأم حكيم والربعة. "الإصابة" (٨ / ٤، ٥).

[2] لعله موسم الحج بمكة.

[3] ابن عمه : تعني به عليًا أمير المؤمنين رضي الله عنه، وكان معاوية حاربه انتقاضًا على خلافته.

[4] تشير إلى أخذه الخلافة.

[5] اجتهاد وعمل.

كفرتم بما جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، فأتعس[1] الله منكم الجدود، وأصعر منكم[2] الخدود، حتى رد الله الحق إلى أهله، وكانت كلمة الله هي العليا، ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- هو المنصور على من ناوأه[3] ولو كره المشركون، فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظًا ونصيبًا وقدرًا، حتى قبض الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، مغفورًا ذنبه، مرفوعًا درجته، شريفًا عند الله مرضيًا، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى -عليه السلام- من آل فرعون (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ[4] نِسَاءَهُمْ)[5]، وصار ابن عم سيد المرسلين[6] فيكم بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى -عليهما السلام- حيث يقول: ﴿. . . يَا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي . . .﴾[7]، ولم يجمع بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لنا شمل، ولم يسهل لنا وعر[8]، وغايتنا الجنة، وغايتكم النار.

قال عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: أيتها العجوز الضّالة، أقصري من قولك، وغضّي من طَرفك، قالت: ومن أنت لا أُمّ لك؟ قال: عمرو بن العاص، قالت: يا ابن اللخناء النابغة[9] أتكلمني، أربع على ظلعك[10]، واعن بشأن نفسك، فوالله ما أنت من قريش في اللّباب[11] من حسبها، ولا كريم منصبها، ولقد ادعاك ستة من قريش كلهم

---

[1] أهلك أو أعثر، والجدود: جمع جد، وهو الحظ والغنى.

[2] أي أذهب صعرها: أي كبرها وتصعير الخد: إمالته عن الناس كبرًا.

[3] عاداه.

[4] يستبقون.

[5] اقتباس من القرآن الكريم سورة البقرة، الآية ٤٩.

[6] تعني عليًا أمير المؤمنين رضي الله عنه.

[7] سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

[8] الوعر: ضد السهل.

[9] اللخناء: الأمة التي لم تختن، والنابغة: البغيّ.

[10] وأربع: أقم، وظلعك: تهمتك، والمعنى اسكت على ما فيك من عيب.

[11] لباب الشيء: خالصه، والحسب: الشرف الثابت في الآباء.

يزعُم أنهُ أبوك[1] ، ولقد رأيت أُمّك أيام منى بمكة مع كل عبد عـاهر (أى فـاجر)، فـأتم[2] بهم فإنك بهم أشبه.

فقال مروان بن الحكم : أيتها العجوز الضالة، ساخ بصرك مع ذهاب عقلـك، فـلا يجوز شهادتك، قالت : يا بنى أتتكلم فوالله لأنت إلى سفيان ابن الحارث بن كلـدة أشبه منك بالحكم، وإنك لشبهه فى زرقة عينيك، وحُمرة شعرك، مع قصر قامته، وظاهر دمامته، ولقد رأيت الحكم ماد القامة[3] ، ظـاهر الأمـة[4] ، سـبط الشـعر[5] ، ومـا بينكمـا قرابـة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب[6] ، فاسـأل أُمّـك عمـا ذكـرت لـك، فإنهـا تخـبرك بشأن أبيك إن صدقت، ثم التفتت إلى معاوية، فقالت : والله ما عرّضنى لهؤلاء غـيرك، وإن أُمك للقائلة فى يوم أُحُد[7] فى قتل حمزة -رحمة الله عليه-

نحـــن جزينَـــاكُم بيـــوم بَـــدرِ	والحـربُ يـومَ الحـربِ ذاتُ سُـعرِ[8]
مَا كَـانَ عَـــنْ عُتْبَـةَ لِـى مِـنْ صَـبْرِ	أبِـــى وَعَمِّـــى وَأخِـــى وَصِهْـــرِى[9]

---

[1] كانت أم عمرو رضى الله عنه من الإماء العواهر التى يغشاهن الرجال، فإذا ولدت إحداهن نسب مولودها إلى من هو أدنى شبهًا به ممن غشيها، ولما ولد عمرو رضى الله عنه نسب إلى العاص لشبهه بـه، وأروى صاحبة هـذه الخطبة تقول : "إنه لما ولد عمرو ادعاه ستة ... إلخ".

[2] أى اقتد.

[3] أى طويلاً.

[4] الهيئة والنعمة.

[5] أى طويل الشعر.

[6] الضامر : أى الدقيق الوسط، والأتان : الحمارة، والمقرب :من قربت ولادتها فيكون بطنها كبيرًا.

[7] أُحد : جبل حصلت عنده حرب بين المسلمين والمشركين، وكان فى هؤلاء بنو أمية قبل أن يسلموا، وقد قتل فى هذه الحرب حمزة بن عبد المطلب عم النبى -صلى الله عليه وسلم- وأروى صاحبة هذا الكلام هى أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : أى بنت أخى حمزة رضى الله عنهم، فلما قتل حمزة فرحت بنو أمية، لأن حمزة قتل منهم عددًا فى حرب قبل ذلك هى حرب (بدر) وقد سبقت الإشارة إليها.

[8] ذات سعر : من سعر الحرب أو قدها.

[9] تشير إلى من قتل منهم : أى من بنى أمية يوم (بدر).

شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدرى
شفيتَ نفسى وقضيتَ نذرى[1]

فشكرُ وحشيٍّ علىَّ عُمرى
حتى تغيّبَ أعظمى فى قبرى[2]

فأجبتها :

يا بنتَ رقاعٍ عظيمِ الكُفرِ
خزيتِ فى بدرٍ وغير بدرِ[3]

صبحكِ اللهُ قُبيلَ الفجرِ
بالهاشميين الطوال الزُّهْرِ[4]

بكلِّ قطاعٍ حُسامٌ يفرى
حمزة ليثى وعلىَّ صقرى[5]

إذ رام شيبُ وأبوك غدْرى
أعطيت وحشى ضمير الصَّدر

هتك وحشيُّ حجابَ الستر
ما للبغايا بعدها من فَخْرِ

فقال معاوية لمراون وعمرو : ويلكما أنتما عرضتمانى لها، وأسمعتمانى ما أكره، ثم قال لها: يا عمة، اقصدى قصد حاجتك، ودعى عنك أساطير النساء[6] ، قالت : تأمر لى بألفى دينار وألفى دينار وألفى دينار، قال ما تصنعين يا عمة بألفى دينار ؟ قالت : أشترى بها عينًا خرخارة[7] ، فى أرض خوّارة[8] ، تكون لولد الحارث بن المطلب، قال : نعم الموضع وضعتها، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت أُزوج بها فتيان[9] عبد المطلب من أكفائهم، قال : نعم للموضع وضعتها، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت : أستعين بها على

---

[1] شفيت وحشى : أى شفيت يا وحشى، وهو وحشى بن حرب قاتل حمزة رضى الله عنه، والغليل : الحقد أو حرارة الحزن.

[2] القائلة لهذا الشعر هى هند أم معاوية، وقد أجابتها عليه أروى بنت الحارث بالشعر الآتى بعده.

[3] رقاع : كثير الحمق من أرقع جاء بالحمق، ويروى "يا بنت خوان أو يا بنت جبار".

[4] قبيل : : تصغير قبل، والزهر : الحسان البيض الوجوه.

[5] يفرى : يقطع، والليث : السبع، وعلى : تريد به أمير المؤمنين رضى الله عنه.

[6] الأساطير :الأحاديث التى لا نظام لها.

[7] أى عين ماء جارية.

[8] أى منخفضة، والمراد أرض تصلح للزراعة ليست وعرة.

[9] شبان.

عسر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام[1]، قال : نعم الموضع وضعتها، هي لك نعم وكرامة[2] ثم قال : أما والله لو كان على ما أمر لك بها، قالت : صدقت، إن عليًا، أدى الأمانة، وعمل بأمر الله، وأخذ به وأنت ضيّعت أمانتكَ، وخُنت الله في ماله، فأعطيت مال الله من لا يستحقه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها، وبينها فلم تأخذ بها، ودعانا (أي - علي - رضي الله عنه) إلى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا، فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها، وما سألتك من مالك شيئًا فتمن به، إنما سألتك من حقنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا، أتذكر عليًا فض الله فاك، وأجهد بلاءك، ثم[3] علا بكاؤها وقالت :

أَلا يـا عَيْـنُ وَيْحَـكِ أَسْـعِدِينَا ... أَلاَ وابْكِـي أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَـا[4]

رُزِينَـا خَـيْرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَايَـا ... وَفَارِسَـها وَمَـنْ رَكِـبَ السَّـفِينَا[5]

وَمَـنْ لَبِـسَ النِّعَـالَ أو احْتَذَاهَـا ... وَمَـنْ قَـرأَ الْمَثَـانِي والْمِئِيـنَا[6]

إِذَا استقبلتَ وجـهَ أبـي حسـين ... رأيـتَ البـدرَ راعَ النَّاظِرِينَـا[7]

ولا والله لا أنســـى عليًّـــا ... وحســنَ صلاتــه فــي الرَّاكعينَـا

أفي الشَّـهرِ الحَـرَامِ فجعتمـونا ... بخيـرِ النـاس طـرًّا أجمعينَا[8]

قال : فأمر لها بستة آلاف دينار، وقال لها : يا عمة أنفقي هذه فيما تحبين، فإذا احتجت فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صفدك[9]، ومعونتك إن شاء الله.

---

[1] أي الكعبة.

[2] أي إنعامًا لعينك وإكرامًا.

[3] فض فاه : أي دقه، وأجهد بلاءه : أوجده في حالة شديدة، والبلاء : التكليف.

[4] ويح : كلمة ترحم.

[5] رزينا : أنقصنا وأصبنا، والمطايا : الدواب، وتمط : أي تجده في سيرها.

[6] احتذاها : قدرها ولبسها، والمثاني : آيات القرآن.

[7] راع : أعجب.

[8] الشهر الحرام : تريد شهر رمضان الذى قتل فيه على خير الناس، وهو ليس من الأشهر الحرم، ولكن تقصد بحرمته عظمة مكانته عند الله وعند عباده، وطرًا : أي كلهم.

[9] أي إذا احتاجت تكتب إليه فيحسن عطاءها.

القسم السابع

ابن المعتز

قال عبد الله بن المعتز رحمه الله : قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وبعض أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع(*)، ليعلم أن بشارًا ومسلمًا وأبو نواس ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائى ومن بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن فى البيت والبيتين فى القصيدة، وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرًا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل، وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال، ويقول لو أن صالحًا نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه، لسبق أهل زمانه وغلب على مد ميدانه. وهذا أعدل كلام سمعته فى هذا المعنى.

فى هذا النص الهام حقيقتان : أولاهما إن البديع لم يخترعه أبو تمام، بل سلقه إليه القرآن والحديث وشعر المتقدمين، وثانيهما إن أبا تمام قد شغف بالبديع حتى غلب عليه وتفرغ فيه(**) فأما أن البديع شيء قديم اهتدى إليه الشعراء بقريحتهم وبحكم طبيعة الشعر ذاته فأمر يحتاج إلى تفصيل، وذلك لأن الشعر إلى حد كبير صياغة، وفى طرق هذه الصياغة تتركز عادة أصالة الشاعر، إذ بفضلها يقيم علاقات بين الأشياء، وكلما ازدادت كمية تلك العلاقات ودقتها وقوة إيحائها ازداد شعره جودة. فالليل "كالجمل تمطى بصلبه... إلخ.

"والبرق كمصابيح راهب أمال السليط". و"الحرب تهر الناس أنيابها عضل". والرجل الشجاع "تسد به لهوات ثغر". و"الصدر يريح الليل عازب همه". كما يريح

(*) نص تاريخى عن البديع.

(**) الشعر إلى حد كبير صياغة.

الراعى الإبل إلى مباءتها و"نوارس تغلب يضمعون الموت كل همام" وما إلى ذلك مما يجده القارئ فى باب الاستعارة من كتاب ابن المعتز السابق ذكره.

[كتاب البديع لعبد الله بن المعتز طبعة كرتشكوفسكى سنة ١٩٣٥ ص ٢ - ٥][1] :

وإذن فالاستعارة أمر أصيل فى الشعر، بل نكاد نقول إنها خيوط نسجه وهى منه كالنحو من اللغة(*).

وكما اطردت اللغات قبل أن يعرف متكلموها القواعد ويفطنوا إلى وجودها. كذلك صدر الشعراء عن الاستعارة بفطرتهم دون معرفة نظرية ولا وعى تحليلى لطرق استعمالها، ولهذا جاءت معظم الاستعارات القديمة صادقة لأن ملكة الشعر انتزعتها من طبائع الأشياء، أو على الصحيح لأن الأشياء أملتها على الشعراء دون أن (يصنعوا) هم شيئًا.

فالاستعارة كما قلنا هى لباب الشعر ولا كذلك "التجنيس" و"المطابقة" و"رد إعجاز الكلام على ما تقدمها" و"المذهب الكلامى" وتلك هى -مع الاستعارة- الوسائل الخمس التى يعددها ابن المعتز ويقصر عليها مميزات المذهب "البديع" أى المذهب "الجديد" الذى اتخذه أبو تمام مدرسة له عن نظر ووعى وصنعة(**) .

فالتجنيس إما عبث لفظى يعتمد على الاشتقاق ولا يستند إلى غير التداعى الشكلى، كقول الشاعر "يوم خلجت على الخليج نفوسهم" وأما لعب المعانى ومهارة فى استخدام مفردات اللغة المتحدة فى المعنى كقول الآخر "إن لوم العاشق اللوم" أو "جلا الظلم من وجه أمه" [البديع، ص ٢٥ - ٣٦] والطباق بمجرد مقابلات بين المعانى "كأحداث الزمن التى ترد الشعور السود بيضا والوجوه البيض سود" [البديع ص ٣٦ - ٤٧].

ورد إعجاز الكلام على ما تقدمها هو الآخر حلية لفظية ولباقة فى طرق الأداء كقول الشاعر :

---

(١) من النقد المنهجى للدكتور مندور.

(*) الاستعارة لباب الشعر.

(**) ليست وسائل مذهب البديع الأخرى كالاستعارة بل هى طرق أداء.

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى السريع

وأمثال ذلك مما تقابل فيه الألفاظ على اختلاف موضعها، في مطلع البيت أو في عروضه أو في حشوه [البديع، ص ٤٢ - ٥٣].

والمذهب الكلامي نوع من الجدل العقلي والقدرة على توليد المعاني والدقة في المفارقات لم ير ابن المعتز بدًا من ذكره كميزة من مميزات الشعر الجديد الذي سرى بإمامه أبو تمام (إن الشعر صوب العقول) وهو فيما نعتقد ليس من جوهر الشعر، بل ولا من جوهر التفكير المنتج، فقولنا[1] ومع هذ فإن تلك الوسائل الأربعة لم يخطرها أحد على الشعراء، ونحن لا نقول أنها غريبة عن الشعر أو يجب أن تكون غريبة، فهي من طرق الأداء التي للشاعر الحق في استخدامها، ولكننا لا نرى أنها ليست كالاستعارة، وما هي إلا محسنات لفظية أو طريقة من طرق التفكير الذي يغلب عليه العقم، إنها أشياء ليست من جوهر الشعر ولا هي حتمية فيه. وإنه وإن تكن هناك مجانسات ومطابقات جميلة موفقة دالة، فالذي لا ريب فيه إن الشعراء القدماء، وهم أساتذة الشعر العربي، لم يقصدوا إليها ولا بحثوا عنها ولا اتخذوا منها مذهبًا.

ونخلص من هذا إلى أن ابن المعتز في كتابه البديع، عندما أراد أن يحصي مميزات المذهب (الجديد) قد جمع بين ثلاثة أشياء مختلفة بطبيعتها :

١- الاستعارة التي هي عنصر أصيل في الشعر.

٢- طرق أداء تتعلق بالشكل ولا تمس جوهر الشعر في كثير، وهي التجنيس والطباق ورد العجز على الصدر.

٣- مذهب عقلي هو المذهب الكلامي.

والآن فلنتساءل كيف أصبحت هذه الوسائل خصائص للمذهب الجديد ؟

للجواب على السؤال لابد من أن ننظر في حقيقة عامة اشتركت منها كل الآداب على السواء، وهي مشكلة التقليد، فعالجها علاجًا مختصرًا مرجئين تفاصيلها إلى باب السرقات.

---

[1] نفسه، ص ٣٦.

وأول ما نلاحظه هو إن الإسلام لم يحدث تغييرًا كبيرًا فـي تقـاليد الشـعر العربـي، فنحن مثلاً نلاحظ أن المسيحية قد حطمت الأدب القديم خلال العصـور الوسـطى تحطيمًـا شبه تام، وذلك لأنه كان إنتاجًا مباشرًا للديانة الوثنيـة، فلـم تقبلـه المسـيحية كمـا لم يقبلـه الإسلام- ومن المعلوم إن القرون الوسطى لم تعرف فى الشـرق أو الغـرب عنـد المسـيحيين أو عند المسلمين من التفكير اليونانى إلا المستقل عن المعتقدات الدينية أو الذى أمكن فصلـه عنها، ولكن الأدب الجاهلى لم يكن كذلك، فهو -كما وصلنا- لا نكاد نجد فيه أثرًا لديانة العرب الوثنية، ولهذا نرى الإسلام لم يحاربه، ولا تزال كتب الأدب التـى بـين أيدينـا تحمـل أصداء لاختلاف المسلمين الأوائل فى الحكم على الشعر ووجوب محاربتـه أو تعزيـزه أو التسامح فيه- وإذا كان من الثابت أن كلمة المسلمين قد اجتمعت على محاربة الشعر الـذى كان صادرًا عن روح قبلية تبعث الخصومات القديمة، فإن هـذا قـد كـان لأغـراض سياسـية أكثر منها دينية، والسياسة لم تحرك الشعوب، خصوصًا القديمة منها، ولا كـان لهـا قـط مـا للدين من تأثير، ولهـذا نـرى أن تلـك التجـارب نفسـها لم تنجـح إلا نجاحًـا محـدودًا بحيـث نستطيع أن نقرر إن التقاليد الشعرية قد اطردت عند العرب برغم ظهور الإسلام[1].

وجاء العصر العباسـى وقـد اتسـعت آفـاق العـرب بفضـل احتكـاكهم بالشـعوب الأخرى وبفضل ترجمة الثقافات الأجنبية فظهر أناس ينزعون إلى التجديد[*].

والواقع إن التجديد ممكن على أساس القديم، وهذا ما يثبته تاريخ الآداب المختلفـة فالفرنسيون مثلاً يعودون فى القرن السابع عشر إلى الـتراث اليونـانى يـأخذون منـه هيـاكل لآدابهم وأحيانًا مادة لهذا الأدب، فيتخذ راسين مـن أسـطورة (فـدر) وحبهـا لابـن زوجهـا (هيبوليت) موضوعًا لإحدى مسرحياته، وأما كان هذا العصر عصـر الإنسـانيات فقـد غـير الشاعر دوافع شخصياته مستبدلاً بإرادة الآلهة شهوات البشر، وبفكرة القضـاء فكـرة الجـبر النفسى، وبذلك تخلص من الوثنية، وهذا هو المذهب الكلاسيكى المعروف.

---

[1] نفسه، ص ٣٧.

[*] فى أدب الكليات التجديد ممكن على أساس القديم.

ولكن هذا النوع من التجديد، بل الخلق لم يعرفه العرب لأنهم لم يتجهوا هذه الوجهة، وأدبهم أدب جزئيات وحدتها البيت لا الفكرة ولا الأسطورة ولا الواقعة التاريخية. ولقد كان عندهم من هذا الشيء الكثير الجميل كأيام العرب القدماء وخرافاتهم ولكنهم لم يستغلوا شيئًا منه، و لم نستغله نحن حتى اليوم. ولو أننا تركنا هذا الاتجاه في أدب الكليات ونظرنا في الشعر الغنائي الذي يشبه الشعر العربي، لوجدنا في القرن الثامن عشر في فرنسا مذهب شينييه الذي دعا إلى تجديد الشعر الفرنسي، فقال بيته المشهور[*] : "لننقل أفكار جديدة في صياغة قديمة". وهو يريد بذلك أن نصدر في شعرنا عن إحساسنا نحن وأفكارنا. بل وما وصل إليه العلم الحديث، ولكن على أن تكون الصياغة على غرار الصياغة القديمة -وتلك عنده هي الصياغة اليونانية التي تمتاز بالبساطة والقصد إلى المعنى والسهولة في التعبير والخلو من المحسنات اللفظية التي شاعت فيما بعد عند اللاتين.

ولكن أمثال هذه المحاولة أيضًا لم يعرفها الشعر العربي، فأبو نواس عندما كان يسخر من تقليد معاصريه القدماء بالبكاء على الديار التي لم يعودوا يرونها والتشبيب بهذا أو دعد، لم يدع إلى التمسك بالصياغة القديمة كما فعل شينييه، بل قصد إلى التجديد في المعنى والتجديد في العبارة العى السوائ وها نحن نرى ابن المعتز يُرد إليه تنمية الاتجاه نحو مذهب البديع الذي انتهى إلى أبي تمام.

ثم إن محاولته لم تنجح وهو -فيما يظهر- لم يكن مؤمنًا بها ولا جادًا فيها ولا قادرًا عليها بدليل إنه لم يصدر عنها هو نفسه إلا في بعض الأحيان كما فعل في الخمريات مثلاً. وأما مدائحه فقد قالها على نمط المدائح التقليدية، من بكاء الديار إلى وصف الرحلة... إلخ.

وهي على أي حال لم تكن مذهبًا ثابتًا[1].

وإذن فالظاهرة التي سادت عند أصحاب مذهب البديع لم تكن الظاهرة التي يتحدث عنها شينييه -فهم لم يقولوا أفكارًا جديدة في صياغة قديمة- حاولوا بوجه عام أن

---

[*] الشعر الغنائي، التجديد فيه يكون بالأفكار الجديدة في صياغة قديمة.

[1] نفسه، ص ٣٨.

يقولوا الأفكار القديمة فى صياغة جديدة، وبخاصة عند أبى تمام الذى لم يكد يجدد شيئًا فى موضوعات الشعر، وإنما تجددت المعانى فى القرن الرابع والخامس عند المتنبى وأبى العلاء(*).

يقول الآمدى فى الموازنة : كان أبو تمام مشتهرًا بالشعر مشغوفًا به مشغولاً مدة عمره بتخميره ودراسته وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة، فمنها "الاختيار القبائلى الأكبر" اختار فيه من كل قصيدة وقد مر على يدى هذا الاختيار ومنها اختيار آخر ترجمته "القبائلى" اختار فيه قطعًا من محاسن شعر الجاهلية والإسلام، وأخذ من كل قصيدة شيئًا حتى انتهى إلى إبراهيم بن هلامة وهو اختيار مشهور معروف باختيار (شعراء الفحول) ومنها اختيار تلقط فيه أشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين وبوبه أبوابًا وصدره بما قيل فى الشجاعة، وهو أشهر اختياراته وأكثرها فى أيدى الناس ويلقب بالحماسة ومنها اختيار المقطعات وهو مبوب على ترتيب الحماسة، إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم والقدماء والمتأخرين وصدره بذكر الغزل، وقد قرأت هذا الاختيار وتلقطت منه نتفًا وأبياتًا كثيرة وليس بمشهور شهرة غيره، ومنها اختيار مجرد فى أشعار المحدثين وهو موجود فى أيدى الناس -وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر. فإنه اشتغل به وجعله كده واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه فإنه ما من شيء كبير ولا صغير من شعر جاهلى ولا إسلامى ولا محدث إلا قرأه واطلع عليه. فى هذا النص لم يوجهنا نحو طريقة أبى تمام فى التجديد وسبيله إليه(**) . فقد توفر هذا الشاعر على النظر فى شعر السابقين وأراد أن يجدد دون أن يستطيع الإفلات من التقاليد الشعرية الثابتة، فكان موقفه شبيهًا بما نراه فى كافة الآداب فى عصورها المتأخرة عندما تستمر الحياة العقلية لشعب معًا على اطرادها دون أن تجد أحداث فكرية أو دينية أو سياسية أو اجتماعية من القوة بحيث تستطيع أن تغير المناهج وتوقف الاتجاهات أو تقلبها- وهذا واضح فى الآداب القديمة، حيث لم يكن النقد والتفكير النظرى قد تكونا بعد. أما فى الآداب الحديثة فمن المعلوم إن

(*) كيف كان التجديد فى الشعر الغنائى العربى.

(**) أبو تمام وكيف جدد شعره.

مناهج الأدب وتياراته ومدارسه قد تغيرت أكثر من مرة تغيرًا قويًا بحركات تجديد ذاتية تدعو إليها أجيال الشعراء والأدباء المتلاحقة، صادرين عن نظر عقلي في[1] تيارات الأدب عند سابقيهم ورغبتهم في تحويل تلك التيارات إلى نواح أخرى أقرب إلى إحساسهم أو أكثر تمشيًا مع ملابسات حياتهم، وعلى هذا النحو خلفت الرومانتزم للمذهب الكلاسيكي وخلف الرمزيون الرمانتزم وهكذا، بينما الآداب القديمة لم يحدث فيها شيء من ذلك، لأن النقد كما قلنا لم يلعب فيها دورًا هامًا. ولهذا سارت سيرها المحتوم. وكلما تراخى بها الزمن ضعفت حيويتها وازداد اعتمادها على التقليد. ومن الثابت إن التقليد لا يمكن أن يتناول العناصر الأساسية بعصر ما وإنما يتناول الأشياء الخارجية، وبهذا ينتهي إلى الصنعة اللفظية، يسرف فيها المجددون ظانين أنهم لم يأتون بشيء "بديع"[*]. وهذا ما كان في تاريخ الآداب اليونانية واللاتينية حيث انتهى الأدب اليوناني في عهد الإسكندرية إلى الصنعة المتكلفة، فأسرفوا في تجميل الأسلوب وحشوه بأسماء الآلهة وأساطير الأقدمين دون أن يستطيعوا إيداعها معاني إنسانية تعطيها قيمة حقيقية. فأصبح الشاعر منهم يتحدث عن الريف وعن الرعاة وهو لم ير الريف ولا رعى شيئًا، تخبطوا في وصف غرام السذج وهم أعقد من ذنب الضب، ومن ثم جاء شعرهم في الغالب باردًا متكلفًا على نحو ما نرى عند كاليماكس مثلاً. وكذلك اللاتين في عصر الإمبراطورية المتأخر، فهؤلاء قد أرادوا تقليد الشعر اليوناني فلم يأخذوا عن المتقدمين أمثال هوميروس وبندار، بل أخذوا في الغالب عن شعراء الإسكندرية، فجاء شعرهم تقليدًا لشعر متكلف لا أصالة فيه ولا صدق، ومن ثم لم تكن له قيمة كبيرة على نحو ما هو واضح عند أوفيد وتيبيل ويرويرس وغيرهم.

وتلك هي الظاهرة التي حدثت في القرن الثالث العباسي، إذ كان الزمن قد طال بالشعر العربي، وكانت الحضارة قد عملت عمليها في إضعاف قوة البداوة وأصالة الطبع عند العرب، وكان الاختلاط بالشعوب الأخرى قد أضعف من حيويتهم، فأضاف كل هذا إلى فعل الزمن والتطور الذاتي لكل ما في الحياة، وساعد على أن يصل بالأدب العربي إلى مرحلة الهرم.

---

[1] نفسه، ص ٣٩.

[*] التقليد لا يتناول العناصر الأصلية.

ولم تكن الثقافات الأجنبية قد اختمرت بعد في النفوس ولا استطاعت أن تهزم فتجدد حياتها ولو في تلك الحدود التي تستطيع العناصر الدخيلة على حياة الشعوب الروحية أن تغير من عقليتها، وإنما كان هذا الاختمار وتلك المزة في القرن الرابع والخامس حيث ظهر المتنبي وأبو العلاء، فهما الثمرة الحقيقية لحركة الانتعاش الروحي التي قامت على الثقافات الأجنبية، عندما تم امتزاجها بالتراث العربي. ومن البين إن حركة الخلق في هذين القرنين كانت مؤقتة عارضة، فلم يلبث تيار الدرس والتحليل ووضع القواعد والعلوم أن طغى على كل خلق، بل أفسده. وانتهت الحياة الروحية كلها إلى النضوب والتحجر فالموت.

وإذن فمذهب أبي تمام يعتبر مرحلة ذاتية طبيعية في تاريخ الأدب العربي والنقاد قد أصابوا[1] بلا ريب فاصلة الحق عندما أجمعوا على إرجاع أصول هذا المذهب إلى بشار ابن برد (م ١٦٧ هـ) فأبي نواس (م ١٩٨ هـ) فمسلم بن الوليد (م ٢٠٨ هـ) ثم أبي تمام (م ٢٣١ هـ) وفي هذا يقول أبو بكر الصولي وهو من كبار المتحمسين للمذهب الجديد "اعلم أعزك الله إن ألفاظ المحدثين منذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمتنقلة إلى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء والطبع والاكتفاء" [أخبار أبي تمام، ص ٢٦] وفي موضوع آخر : "ومن تبحر شعر أبي تمام وجد كل محسن بعده لائذًا به، كما إن كل محسن بعد بشار لائذ بيشار ومنتصب إليه في أكثر إحسانه" [أخبار أبي تمام، ص ٧٦] وفي موضوع ثالث : "قال أبو بكر وكنت يومًا في مجلس فيه جماعة من أهل الأدب والعصبية لأبي نواس حتى يفرطوا، فقال بعضهم : أبو نواس أشعر من بشار، فرددت ذلك عليه وعرفته ما جهله من فضل بشار وتقدمه، وأخذ جميع المحدثين عنه واتباعهم أثره" [أخبار أبي تمام، ص ١٤٢] السلسلة إذن متصلة، وبشار هو أصل المذهب في رأى أنصار البديع ومع ذلك فيخجل إلينا أن أبا تمام قد أحدث تغيرًا كبيرًا، وذلك بأن جعل من هذا الاتجاه مذهبًا عامًا.

---

[1] نفسه، ص ٤٠.

ومن المعلوم إن كل مذهب عام ينتهي دائمًا إلى التكلف والغلو والفساد، وهذا ما أحسه عن ذوق صادق كبار أدباء العصر كابن المعتز ثم الآمدى الذين أوردنا رأيهما فيما سبق. ومن الواضح إن شعر أبى تمام صادر عن صنعة ووعى بما يفعل وأن الطبع فهو ضعيف الحظ، وهو رجل خبر الشعر ودرسه فى كافة عصوره منذ الجاهلة إلى عصره كما تدل مختاراته الست. وعندما تقوم فى الشعر مذاهب نظرية ترى دائمًا أنها لا تطغى إلا على الشعراء غير الموهوبين، فهى "وأما الشاعر الأصيل فإن المذهب لا يمكن أن يكون عنده إلا مجرد اتجاه عام، فالرومانتيكية أو الكلاسيكية مثلاً غير موجودتين بمبادئهما المحكمة إلا عند الضعفاء من الشعراء والأدباء. وأما كبارهم فقد صدر لكل منهم عن طبعه هو و لم يكن للمذهب تأثير عليه إلا فى التوجيه العام، لهذا نجد الكلاسيكية الشكلية عند براون أكثر مما نجدها عند راسين، وكذلك الأمر فى الرومانتيكية فهى أوضح -كمذهب- عند بريزيه Brizeux مثلاً منها عند موسيه.

أبو تمام قد طغى المذهب على طبعه إلى حد كبير ولذلك كثر سقطه وإن لم يخل شعره من الجميل الرائع فى بعض الأحيان، بحيث يبدو لنا أن مذهبه كان أقوى من طبعه وإن صنعته كثيرًا ما أفسدت ذوقه[1]. نظر أبو تمام فى الشعر القديم والحديث وأراد أن يجدد فلم يستطع إلا فى الصياغة وذلك لأنه كان مغلولاً بالتقاليد، والصياغة خيرها أصيل لا يمكن تقليده لغلبة العناصر الشخصية العميقة الدفينة فى لغة كل كاتب أو شاعر، كطريقة نسجه للعبارة ومنحها فى الأداء ثم نوع أسلوبه : حسى أو مجرد، قوى أو رقيق، طويل النفس أو قصيره، وفى هذا يقول بوتون : "إن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه"، ويقول عبد العزيز الجرجانى فيصيب شاكلة الصواب "وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق" [الوساطة، ص ٤٣] كما يقول عن

---

[1] نفسه، ص ٤١.

المحدثين: "فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء فمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف وأتم تصنع. ومع التكلف والمقت وللنفس عن التصنع نفرة، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق وأخلاق الديباجة وربما كان ذلك سببًا لطمس المحاسن، كالذى تجده كثيرًا من شعر أبى تمام، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه، فحصل منه على توعير اللفظ. وتبجح فى غير موضع من شعره فقال:

فكأنما هى فى السماع جنادل وكأنما هى فى القلوب كواكب

فتعسف ما أمكن، وتغلغل فى التعصب كيف قدر. ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع، فتحمله من كل وجه، وتوصل إليه بكل سبب، و لم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة، وقصد الأغراض الخفية، فاحتمل فيها كل غث ثقيل وأرصد لها الأفكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة، فإن ظفر به فمن بعد العناء والمشقة وحين حسره الإعياء وأوهن قوته الكلال. وتلك حال لا تهش فيها للاستماع لحسن أو الالتذاذ بمستظرف، وهذه جريرة التكلف. ولست أقول هذا غضًا من أبى تمام، ولا تهجينا لشعره، ولا عصبية عليه لغيره، فكيف وأنا أدين بفضله وتقديمه، وانتحل موالاته وتعظيمه، وأراه قبلة أصحاب المعانى وقدوة أهل البديع. ولكن ما سمعتنى أشترطه فى صدر هذه

طبقات الشعراء للمحدثين لابن المعتز

١- يعد هذا الكتاب من النماذج التطبيقية فى أساليب التحقيق وما فيها من سلب وإيجاب.

٢- من الجانب النقدى فابن المعتز شاعر محدث واختياراته من شعر الشعراء فى حد ذاتها عنصر نقدى هام يرمز إلى الجانب التأثرى أو الانطباعى فى نقدنا العربى يضاف إلى ذلك عبارات النقد الصريحة التى ينطق بها ابن المعتز.

٣- يبدو أن الطبقات مرتبة ترتيبًا زمنيًا، لا فنيًا ومع الأسف ضاعت المقدمة الأصلية لابن المعتز وما هو وارد بالموضوع من كتابه هى مقدمة زائفة. على كل حالة ما يورده ابن المعتز من أخبار ومواقف تكشف جوانب من شخصية الشاعر ولها انعكاسات على فنه.

٤- أن هذا الكتاب قد يزيل لبسًا عن موقف ابن المعتز من المحدثين فهو فى كتابه البديع يأخذ على المحدثين إسرافهم فى البديع بعكس القدماء وهنا كتابًا يفرد للمحدثين وشعرهم الأخبار والمختارات والنقد مما يعنى أن موقفه فى كتابه البديع موقف فنى نقدى وليس رفضًا لشعر المحدثين وانحيازًا كليًا للقدماء.

ويؤكد اتجاه ابن المعتز الفنى من شعر المحدثين تفضيله لأبى تمام على البحترى مع ما هو معروف من اتجاه البحترى التقليدى واتجاه أبى تمام التجديدى فلو كان ابن المعتز متعصبًا للقديم لفضل البحترى على أبى تمام.

ونحن بكتاب ابن المعتز فى طبقات المحدثين نحصل على آراء نقدية وأدبية لها قيمة فهى صادرة عن شاعر مبدع له حساسية خاصة فى نقده الفنى لشعر المحدثين وتنقد الشعر بخاصة فى جوهره وصميم روحه.

أخبار أبى تمام بن أوس الطائى :

حدثنى أبو الأسود الموصلى قال :

قال الحسن بن رجاء الضحاك : كنا مع أمير المؤمنين المعتصم بالرَّقَّة فجاء أبو تمام، وأنا فى حرَّاقتى، فجعل ينشدنى ويلتفت إلى الخدم والغلمان الوقوف بين يدى، ويلاعبهم ويغامزهم -وكان الطائى من أكثر الناس عبثًا ومزاحًا- فقلت له : يا طائى قد ظننت أنك ستصير أمير المؤمنين مع الذى أرى من جودة شعرك، فانظر : إنك إن وصلت إليه لا تمازح

غلامًا ولا تلتفت إليه، فإنه من أشد الناس غَيْرة، وإني لا آمن إنْ وقف منك على شيء أن يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد منهم مائة صفعة. فقال : إذا أخرج من عنده ببدر مملوءة صفعًا.

وحدثني عبد الصمد الراوى قال :

حدثني محمد بن حسان الضَّبِّى قال : قدمت[1] بأبي تمام معى من الشام إلى العراق، وكان معى في سفينتى مُنجم قد حملته في حملتى، فكان الطائى قد أولع به يضربه ويَخْرق[2] ثيابه، فكنت ألومه على ذلك وأعذله، وأقول : ويحك، رجل قد صحبنا، ووجب حقه علينا، لِمَ تفعلُ به مثل هذا؟ والله ما هذا من فعل الكرام، ولا من شأن أهل الأدب، وكان من جوابه لى أن قال : هذا العاض بظرأمه، لو كان منجمًا، وكان يعلم شيئًا كما يزعم، لما ركب معنا هذه السفينة، وأنا أضربه هذا الضرب وأوذيه هذا الأذى.

وحدثني أبو الغصن المحمد بن قدامة قال : دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى، فوقفت ساعة لا يعلم بمكانى لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إلىّ وسلم علىَّ، فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنظر فى الكتب كثيرًا وتدمن الدرس فما أصبرك[3] عليها ! فقال : والله ما لى إلْف غيرها ولا لذة سواها، وإنى لخليق إن أتفقّدها أن أحْسن.

وإذا بحُزْمتين : واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله، وهو منهمك ينظر فيهما ويعزيهما[4] من دون سائر الكتب، فقلت : فما هذا الذى أرى من عنايتك به أوكد من غيره ؟ قال : أما التى عن يمينى فاللّات. وأما التى عن يسارى فالعُزّى، أعبدهما منذ عشرين سنة، فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغوانى، وعن يساره شعر أبى نواس.

---

(1) فى الأصل : أنا قدمت.

(2) فى الأصل : يحرق، وصوبها أيضًا "ق".

(3) فى الأصل : ما أصبر عليها.

(4) فى الأصل : يميز منها، ويميزهما : يفضلهما.

ومما يستملح من شعره -وشعره كله حسن- داليته في المأمون التي أولها :

كشف الغطاءُ فأوقدي أو أخمِدي

وهي أشهر من الفرس الأبلق، وكذلك كل ما نذكر من قصائده هاهنا، فإنا نقتصر على ذكر أوائلها نحو قوله :

وأبـــي المنـــازل إنهـــا لشُـــجُـونُ

وقوله :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غدِ[1]

وقوله :

متـــي أنـــت عن ذُهليَّةِ القوم ذاهلُ

وقوله :

أصغـــي إلى البين معتزًّا فـلا جرما

وقوله :

دِمَـــنٌ ألـــمَّ بها فقـــال سـلامُ

وقوله :

بدِّلَـــتْ عبرة مـــن الإيمـــاض

وقوله :

الحـــقّ أبلـــج والسيوف عوارى

وقوله :

الســـيف أصدق أنباء من الكتبِ

وقوله :

---

(1) في الأصل : سرت تسحر الطرف خوف فواغد. وفي الديوان : غدت تستجير الدمع ... إلخ، ما أثبته، فوضعت سرت من الأصل وكملت من الديوان.

نسج المشيب له قناعًا مغدقا[1]

وقوله :

خشُنْتِ عليه أُختَ بني خُشَيْن[2]

وقوله :

خذى عبرات عينك من[3] زماعى

وقوله :

يــوم الفراق لقد خُلِقت[4] طويلاً

ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التى هى عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك وإن لم نذكر منها إلا مصراعًا، لأن الرجل كثير الشعر جدًّا، ويقال[5] إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ماله جيد، والردئ الذى له إنما هو شىء يستغلق لفظه فقط، فأما أن يكون [فى] شعره شىء يخلو من المعانى اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا. وقد أنصف البحترى لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدى، ورديئ خير من رديِّه. وذلك أن البحترى لا يكاد يغلظ لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأما أن يشق غُبار الطائى فى الحذق بالمعانى والمحاسن فهيهات، بل يغرق فى بحره، على أن للبحترى المعانى الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبى تمام ومسروق من شعره وأبو تمام هو الذى يقول :

يـا لابسًا ثـوب الملاحـة أبْلِـه	فلأنـت أولى لابســيه[6] بلبسِــهِ
لم يعطـك الله الــذى أعطاكـــه	حتـى استخفُّ ببـدره وبشمســه

---

[1] فى الأصل : مغدقًا.

[2] فى الأصل : خشت عليه أخت بنى خيعش، والتصويب من الديوان.

[3] فى الديوان : عن.

[4] فى الأصل : حلقت والتصويب من الديوان.

[5] فى الأصل : جدًا وأكثر الجيد يقال : وقد حذفنا هذه الزيادة لأنها حشو وتكرار لما سيأتى بعد.

[6] فى الأصل: لابستيه لبسه. والتصويب من الديوان

رشأ إذا ما كان يُطلق طَرْفه | في فتكه أمَرَ الحياءُ بحبسه
وأنا الذى أعطيته غضَّ الهوى | وضممته فأخذت عُذْرة أنسه
وغرسته فلئن جنيت ثماره | ما كنت أول مجتنٍ من غرسه
مولاك، يا مولاى، صاحبُ لوعة | فى يومه وصبابة فى أمسه

وهو القائل:

محمد بن حُمَيْدٍ أخلقت رِمَمُهْ | هُريق ماءُ المعالى مُذْ هُريق دَمُهْ
تَنَبَّهتْ لبنى نَبْهانَ يوم نَوى | يدُ الزمان- فعاثت فيهمُ- وفَمُهْ
رأيته بنجاد السيف مُحْتبِيًا[1] | كالبدر لما جلت عن وجهه ظُلَمُه
فى روضة قد كسا أطرافها زَهرُ | أيقنتُ عند انتباهى أنها نِعَمُه
فقلت والدمع من حزن ومن فرح | فى اليوم قد أخْضَل الخدّين مُنْسجمهُ
ألم تمت[2] يا شقيق النفس مُذْ زمن | فقال ى: لم يمت من لم يمت كَرَمُه

وهذه أخبار أبي تمام:

أخبار أبى العَمَيْثل :

حدثنى ابن أبى شُبْرمة قال: دخل أبو العميثل على طاهر بن الحسين، وقد جلس للناس فقبّل يده، فقال له طاهر: ما أخشنَ شاربك يا أبا العميثل!

فقال: أيها الأمير، إن شوك القنفذ لا يضر ببرثن الأسد. فضحك طاهر وقال: هذه الكلمة أعجب إلىّ من قصيدتك. وأعطاه ألف درهم على قصيدته، وثلاثة آلاف على كلمته.

وحدثنى محمد بن أبى يونس قال: كان أبو العميثل أحد شعراء طاهر، وكان يقدمه ويؤثره، وأنه وَجَدَ عليه فى شىء فجفاه[3] وتركه، فقال:

---

[1] فى الأصل: مجتبيا.

[2] فى الأصل: يمت

[3] فى الأصيل: فحقاه.

سأترك هذا الباب ما دام إذنُهُ على ما أرى حتى تلين قليلا
إذا لم أجد يومًا إلا الإذن سُلّمًا وجدت إلى ترك المجيء سبيلا

فرجع إليه طاهر، و لم يزل إليه محسنًا ما عاش.

ومما يستحسن من شعر أبي العميثل قوله فى الفضل والحسنى ابنى سهل يذكرهما معًا:

كأَنَ أشكالَ وجهِ الحزم بينهما ظِلٌّ تَلاقَى عليه الشمسُ والقمرُ

وله أيضًا:

[قد] جارَ وا لله على جاره وا لله قد أوصاه بالجار
حتى متى يا سيّدى أنت لى تمزج إقبالاً بإدبار
يا من رأى فيمن رأى قبله الـ لدينار فى راحة دينار

وهذه أبيات فيها من خفة الوزن ما ترى.

فقال فريق: علىٌّ أشعر. وقال أكثر الناس: مروان أشعر. حتى قال مروان بيتيه هذين:

لعمرك ماجهم بن بدر بشاعر[1] وهذا علىّ إبْنه يدَّعى الشّعرا
ولكن أبى قد كان جارًا لأمه فلما روى الأشعار أوهمنى أمرا

فأجابه على بن الجهم بهذين البيتين:

بَلاءٌ ليس يُشبهه بلاءٌ عداوةُ غيرِ ذى حَسَب ودِين
يُبيحك منه عِرضًا لم يَصُنْه ويقْدَح منك فى عِرْض مَصُون

فحكم الناس جميعًا لمروان أنه أشعر، وأن الذى قال على ليس بجواب. إنما هو استخذاء[2].

---

(1) فى الأصل: لعمرك ما تدرين جهم. والتصويب من الأغانى وذيل زهر الآداب وغيرهما وليس فى الأمر إلا تقديم من الناسخ.

(2) فى الأصل: استحذا

ومما يستحسن له:

إنَّ الشباب طريق الشَّيْب والكِبَر وما يدوم لحيٍّ جِدَّة الشَّعر
شمس الشباب عَلَيَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغرب، إن الدهر ذو غِيَر
أنا ابن عشرين مازادت وما نقصت أنا ابن عشرين من شيب على خَطَر
إذا الشباب مضتْ عنّا بَشاشته[1] فما نُبالى متى صرنا إلى الحُفَر
لنا من الشوق أكبادٌ مُصدّعة وأعينٌ كُحِلَتْ بالدّمع والسَّهر
سَقْيًا وَرَعْيًا لأظعان مُوَلِّية فيها خرائدُ كالغزلان والبَقَر
يُمْسِي ويُصبح قلبى من تذكُّرها كأنَّه بين نابَيْ حَيَّة ذَكَر
وَدَّعتُهنَّ وَدَاعًا زادنى كَمَدًا ما كان إلا كَوِرْد الطائر الحذِر
يا رُبَّ خَرْقٍ[2] كأنَّ الله قال له إذا طَوَتْك ركاب القوم فانتشِر
تمشى به النَّعجةُ الحوراء آمنة مشى الخريدة ذات الدلّ والخفر

وكان أبو السمط هذا ناصبيا. فإن كان هذا حقًّا فلعنة الله عليه[3]

أخبار البحترى :

واسمه الوليد بن عبيد ويكنى أبا عبادة.

حدثنى علاّن بن محمد قال:

هجا البحترى أبا الفضل بن الحسن بن سهل، فتركه أيامًا وأظهر قلّة المبالاة والإهمال لهجائه، ولم يظهر الموجدَة بذلك. وحضره[4] يومًا فقال له: يا أبا عُبَادة. تبيعنى غلامك نسيمًا؟ فقال: كيف أبيعك من لو فارقته ساعة فارقتنى روحى؟ فقال: أعطيك به رغيبة[5] فقال: وكم تعطينى؟ قال: أعطيك ألف دينار. قال: لا أفعل. قال: أعطيك ألفى

---

[1] فى الأصل: وما نقصت.

[2]. الخرق: القفر البعيد

[3] هذه الجملة: فإن كان هذا...إلخ يبدو أنها مقحمة من النساخ وذكر "ق" أنه لعله قارئ شيعى.

[4] فى الأصل: حضره بدون واو العطف.

[5] الرغيبة: العطاء الكثير.

دينار، فقال له: أحضر المال. فباعه وتسلمه أبو الفضل. فما مرّ للبحترى يوم حتى قامت قيامته، وندم، فواصل غُدوَّه برواحه إلى باب أبى الفضل يسأله الإقالة وهو يأبى عليه، فلما عِيل صبرُه كتب إليه:

أبا الفضل فى تسع وتسعين نعجةً[1] ... غنىً لك عن ظبى بساحتنا فرد

أتأخذه منى وقد أخذ الهوى ... فؤادِى له فيما أُسِرّ وما أُبدى

وتغدو عليه صبوتى وصبابتى ... ولم يعْدُه وجدى ولم يأله جهدى

وقلت: اسل عنه، والمنية دونه ... وكيف سُلُوُّ ابن المفرّغ عن برد

وابن المفرغ شاعر كان له غلام اسمه بُرْد فباعه وندم. وله فيه أشعار كثيرة- فقال أبو الفضل: أبيعكه بجميع ما تملك، فقال له: أفعل. فباعه بجميع ملكه وأشهد عليه ورد الغلام إليه، فلما كان من الغد، ردّ عليه الكتاب وأقاله من جميع ذلك، وحمل إليه صِلَة وقال له: إياك أن تهجو الأحرار، فإن لهم مكايد يضلّ فيها هجوك ومدحك.

أخبار العَطَوِىّ ويكنى أبا عبد الرحمن :

حدثنى أبو جعفر محمد بن أحمد بن الحباب البصرى قال: كان العطوى يذهب مذهب الحسين النَّجار[2]، وكان الإسكافي يقول: العطوى أحدُ المتكلمين المتقدمين، وكان إذا حضر مجلسًا غلب عليه ببراعته وفصاحته وما اخترنا له قوله:

وما لبس العشَّاق ثوبًا من الهوى ... ولا خلعوا إلا الثياب التى أبلى

ولا شربوا كأسًا من الحبِّ حلوةً ... ولا مرّةً إلا وشربهُمُ فَضْلى

وهذا العطوى (هو) الذى يقول:

يا أيها الجامع علماً جمًّا ... امض إلى الحُرْفَة[3] قَدْمًا قُدْمًا

لأجهدنّ أن يكون خصما

---

[1] فى الأصل: عن تسع...فرد.

[2] الحسين النجار: من المجبرة له مع النظام مجالس راجع الفهرست الفن الثالث من المقالة الخامسة.

[3] الحرفة: الفقر.

قال: وكان صديقًا لعلى بن القاسم بن الحسين، فَوُلِدَ لعليٍّ غلام، فكتب إليه بهذه القصيدة:

عليُّ أيا ابن الشفيع[1] المطاعِ ... ويا ابن المصابيح يا ابن الغُرَرْ
ويا ابن الشريعة وابن الكتاب ... ب وابن الرواية وابن الأثَرْ
ويا ابن المشاعِرِ وابنَ المقام ... وزمزمَ والركن وابنَ الحجرْ
مناسب، ليست بمجهولة ... ببَدوِ البلاد ولا بالحضَرْ
مهذَّبة من جميع الجها ... ت من كل شائنة أو كدر[3]
أتيتك جذلان مستبشرا ... ببشراك لما أتاني الخبر
أتاني البشير فكم ساءَ ما ... أتاني به من أُناس وسَرّ
أتانيَ يذكر أن قد رُزِقتَ ... غلامًا فأبهجني ما ذكَرْ
وأنك والرُّشدُ فيما فعلـ ... ـت سَمَّيْتَه باسم خير البشر
فَعَمَّرك الله حتى تراه ... وقد قارب الخَطْوَ منه الكِبَرْ
وحتى يرى حوله من بنيه ... وإخوته وبنيهم زُمَر
وحتى يَروم الأُمور الجسام ... ويُرجى لخيْر ويخشى لشر
فأوزَعك الله شكر العطاء ... فإنَّ المزيدَ لِعَبْدٍ شَكَرْ
وصلَّى على سَلَف[2] الصالحـ ... ـين منكم وبارك فيمن غَبَرْ

---

[1] فى الأصل: أباى يا بن الشفيع... يصح أن تكون محرفة عن أتانى يابن شفيع.. لكنه قد كرر ذلك، ففى البيت السادس: أتيتك و.... لما أتانى الخبر. وفى البيت السابع والثامن: أتانى وكلها تحتاج إلى مخاطب أولاً.

[2] كذا فى الأصل ولعلها: السلف الصالحين أو سلف صالحين.

[3] فى الاصل: شائنة. وشانية مقبولة المعنى ولعلها محرفة أيضًا عن شائبة.

الفهرس